جامعة بيروت العربية
كلية الاداب
قسم التاريخ – السنة الرابعة

المغرب القديم

قاعة بحث الامبراطوريه الرومانية

بقلم
الدكتور رشيد الناضوري

١٩٧٥

طبعت
بمكتبة كرديه اخوان
بيروت

جامعة بيروت العربية
كلية الاداب
قسم التاريخ ـ السنة الرابعة

المغرب القديم

قاعة بحث الامبراطورية الرومانية

بقلم
الدكتور رشيد الناضوري

١٩٧٥

طبعت
بمكتب كزيديه اخوان
بيروت

الباب الأول

أقسام التاريخ المغربي القديم وبعض مصادره الرئيسية

مر تاريخ المغرب القديم بالمراحل الرئيسية في تاريخ الانسانية كعصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي . ويعتمد الباحث في دراسة هذا التاريخ على المصادر الأصلية الأثرية واللغوية المدونة لمحاولة الوصول الى حقائق تاريخ الانسان في هذه المنطقة . هذا بالاضافة الى بعض الظواهر الأنثروبولوجية الثقافية التي تلقي ضوءا على جوانب معنوية واجتماعية في هذا التاريخ . وأيضا ما سجله الكتاب اليونان والرومان والمسيحيون والمسلمون والعرب عن هذه البلاد . وقبل تتبع بعض هذه المصادر تنبغي الاشارة أولا الى الأقسام الرئيسية للتاريخ المغربي القديم .

الفصـــل الأول

أقسـام التاريخ المغربي القديـــم

حاول الانسان منذ توصله الى المرحلة الانسانية تطوير حياته والعمل على تثبيت كيانه في كافة المجالات الاقتصادية والحضارية . وقام في هـــذا الصدد بجهود متواصلة في سبيل محاولة تحقيق ذلك . وقد اتجه العلماء الى البحث والتنقيب عن آثار هذه الحضارات الأولى التى صنعها هـــذا الانسان الأول في كافة أنحاء الأرض . وثبت من هذه الأبحاث أهمية الـدور الذى أداه هذا الانسان في منطقة المغرب القديم ، من حيث كونها مـــن المناطق الهامة التى استقر فيها الانسان الأول الى جانب منطقتى الشرق الأدنى والشرق الأقصى في العصور القديمة .

ويتميز تاريخ هذه المنطقة ببعض الخصائص التى تشكله بنمط معين نابع من المقومات الرئيسية الفعالة في هذا التشكيل . ويمكن للباحث تتبع هـــذه الخصائص والمقومات في عاملين رئيسيين : العامل الأول هو الموقع الجغرافي ، فالمغرب يقع في موقع له طبيعته الخاصة في شمال وشمال غرب أفريقيا ، وهـذا المكان فريد من حيث اتصاله بالجانب الأوروبى من ناحية ، والأرض الأفريقيـــة التي تمتد الى العالم الصحراوى جنوبا وشرقا من ناحية أخرى ، وحوض البحـر الأبيض المتوسط وامتداده حتى الشرق الأدنى وجنوب أوروبا من ناحية ثالثة ، هذه الحقيقة الجغرافية قد ميزت تاريخ المغرب بظاهرة خاصة هى الاتصـــال بهذه البيئات التى تقع في محيطه . ويؤيد التاريخ القديم منذ أقدم مراحـــل عصور ما قبل التاريخ هذه الظاهرة بالأدلة الأثرية . ويظهر ذلك في وجـــود اتصالات حضارية وسياسية لا تقتصر على جانب واحد بل تجمع في بعض العصور بين أكثر الجوانب . ولقد كان لهذا الاتصال أثره البالغ في تاريخ المغـــرب القديم ، هذا بالاضافة الى دخول عناصر بشرية جديدة الى المغرب وتأثيرهـا بدورها من هذه الناحية في طبيعة تكوين العناصر المحلية . وقد اختلفـــت هذه المؤثرات من حيث مدى قوتها وضعفها أثناء تاريخ هذه المنطقة . أما

العامل الثاني فيظهر في موضوع البيئة من حيث طبوغرافيتها وما تشمله من تضاريس خاصة ، فقد صدق المؤرخون العرب عندما اصطلحوا على استخدام تعبير جزيرة المغرب ، وبصفة خاصة بالنسبة لأقطاره الثلاث ، عندما حلوا به بعد ترحالهم الطويل . فالصحراء تحد المغرب من الجنوب وتتخللها بعض الأودية التى كانت تتجمع فيها القبائل والعناصر البشرية المختلفة الآتية من الشرق والجنوب في طريقها الى المغرب الذى كان بمثابة الجزيرة التى رست عندها قوافلهم . هذا بالاضافة الى طبيعة التضاريس المغربية من حيث كونها تتضمن سلاسل جبال الأطلس بامتدادها من الجنوب الغربى حتى الشمال الشرقى الى جانب وجود الأنهار الدائمة الجريان والجافة في بعض الأحيان والهضاب المتناثرة المؤدية الى المناطق السهلية وكذا الغابات . وكانت هذه الطبيعة من العوامل الفعالة في تشكيل حياة الانسان وتاريخه في هذه المنطقة لأن الصفة السهلية ليست متوفرة الا في بعض الأقاليم على ذلك اضطر الانسان الى بذل جهود كبيرة في سبيل التحكم في هذه البيئة والانتشار وتثبيت كيانه فيها . وقد استوجب هذا الجهد وقتا كبيرا مما كان له أثره البالغ في هذا التاريخ المغربى القديم .

وقد نتج عن تأثير هذه المقومات الرئيسية في حياة الانسان في المغرب القديم ملاحظة وجود منطقة ساحلية لها وضعيتها التاريخية القديمة الخاصة ومنطقة داخلية اكتسبتها هذه المقومات مكانة أخرى . وليس معنى ذلك انعدام وجود اتصال بين المنطقتين بل لقد توفر هذا الاتصال على الرغم من الصعوبة البيئية التى تعوق تحقيقه بسهولة ، ولكنه كان متفاوتا من عصر الى آخر الى أن اكتمل أخيرا خلال العصر القرطاجى وما تلاه .

وتنبغى ملاحظة ظاهرة أخرى في تاريخ المغرب القديم وهى جمع هذا التاريخ بين الصفة المحلية من ناحية والصفة الدولية من ناحية أخرى في اطار حوض البحر الأبيض المتوسط . ومع أن هذه الظاهرة تتضح في تاريخ حياة مختلف الدول والشعوب بوجه عام الا أنه بالنسبة لتاريخ المغرب القديم بالذات

تتجسم هذه الظاهرة منذ بداية العصر التاريخي الصميم ، بل ان هذه البداية قد حدثت نتيجة الصلات الخارجية بصفة خاصة ، ولا يعني ذلك انعدام الكيان الذاتي بل لقد ظل هذا الكيان محتفظا ببعض أسسه مؤثرا ومتأثرا بعلاقاته الخارجية في المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية ومثبتا وجوده التاريخي في بعض فترات العصر القرطاجي والعصر الروماني الى أن اندمج في الكيان العربي الاسلامي .

وقد قام العلماء بالبحث والدراسة والتنقيب عن آثار التراث المغربي القديم الذي يرجع الى عصور ما قبل التاريخ بمختلف أقسامه وأيضا العصر التاريخي . وقد تضمن هذا البحث الآثار المادية كبقايا القرى والمدن والتلال والطرق والطبقات الأثرية والكهوف والمغارات وما تشمله جميعا من آثار استقرار وحضارة وأيضا آثار فكرية سجلت باللغات البونية والليبية واللاتينية . وقد اشترك في هذه الأبحاث علماء فرنسيون وأسبان وأمريكيون وانجليز ومغاربة .

وقد يمكن تقسيم العصور القديمة في تاريخ المغرب الى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول :

عصور ما قبل التاريخ وتنقسم بدورها الى العصر الحجري القديم الأسفل والعصر الحجري القديم الأوسط والعصر الحجري القديم الأعلى ثم العصر الحديث . وتستمر هذه المراحل من الناحية الزمنية منذ ظهور الانسان الحامل للصفات الانسانية في المغرب حتى نهاية مرحلة العصر الحجري الحديث ، وهي المرحلة التي تؤرخ نهايتها بصورة تقليدية معتمدة على المصادر الكلاسيكية بحوالي سنة ١٢٠٠ ق.م بينما ترجع الأدلة الاثرية الفينيقية الأولى الى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد . ويمكن القول بأن هذا القسم الأول من تاريخ المغرب قد استمر لحد ما خلال العصر التاريخي في بعض المناطق الداخلية .

والقسم الثاني :

العصر التاريخي ويبدأ بالعصر الفينيقي الذى يؤدى الى العصر القرطاجي ويستمر من الناحية الزمنية حتى عام ١٤٦ ق.م. ويتضمن مرحلة الممالك البربرية بصفة خاصة أثناء العصر القرطاجي . ويمثل هذا القسم مرحلة اتصال التاريخ المغربي القديم بالشرق الأدنى القديم وغربي أفريقيا وأوروبا .

والقسم الثالث :

المغرب في العصر الروماني ثم الوندالي والبيزنطي ويستمر حتى عام ٦٤٧م. ويتصل فيه المغرب اتصالا وثيقا بالجانب الأوروبي ويتداخل تاريخه القديم مع تاريخه الوسيط الى أن يبدأ العصر العربي الاسلامي الذى يمثل مرحلة جديدة في تاريخ المغرب تستمر حتى الآن .

الفصـــل الثانـــى

بعض المصادر الرئيسية لتاريخ المغرب القديـــم

قبل دراسة المعالم الرئيسية لهذا التاريخ المغربى القديم تنبغى الاشارة الى بعض المصادر الرئيسية فيه وتنقسم الى خمسة أقسام :

المصدر الأول : مجموعة التقارير العلمية التى تسجل نتائج الحفائر فـــي المواقع الأثرية المختلفة وتتضمن عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخى . وتعتبر هذه التقارير بمثابة مصادر أساسية في غاية الأهمية بالنسبة للأصول الاولـــى لهذا التاريخ ، وخاصة لأنها تتضمن الأدلة الأثرية المادية التى تشهـــد بصحة الحقائق التى يعبر عنها المؤرخون . وقد دعمت هذه التقارير بالصور والخرائط والجداول التقويمية وكذلك الرسومات البيانية ، ولكن على الرغم مـن ذلك فانه يلاحظ وجود اتجاهات مختلفة في تفسير بعض الظواهر الحضاريـــة والتاريخية التى سجلتها هذه التقارير . ويستوجب ذلك ضرورة اعادة النظـــر في دراسة المادة الأثرية وتفسيرها في ضوء الدراسات المقارنة من ناحيـــة والآثار المكتشفة حديثا من ناحية أخرى . كما أن بعض المواقع الأثرية لم تستكمل عمليات الحفر فيها مما يستلزم ضرورة الاحتياط عند تناول مادتها الأثريـــة والوصول الى حقائق تاريخية ثابتة . هذا بالاضافة الى ملاحظة بعض آراء معينة في تفسير الآثار ترمى الى ربط بعض المراحل الحضارية المغربية القديمـــة بالحضارة الأسبانية القديمة على الساحل الأسبانى الشرقى أو ببعض حضـــارات الشرق الأدنى القديم ، وأحيانا بالحضارات الافريقية . لكن هذا الاتجـــاه في التاريخ ينبغى أعادة النظر فيه مرة أخرى بطريقة منهجية حديثة هادفة الى الحقيقة المجردة .

المصدر الثانى ـ النصوص التاريخية الليبية أى البربرية والفينيقية والقرطاجية واليونانية واللاتينية :

وهذا المصدر من الأهمية بمكان نظرا لاعتبار تلك النصوص كوثائق أصيلة تعبر عن تاريخ المغرب القديم في المراحل المنتمية اليها . وفيما يتعلق بالنصوص الليبية فينبغى الاهتمام بها لأنها تصف جوانب من تفكير البربر وحياتهم وأديهم وهذه الناحية لها دورها الرئيسى في تاريخ المغرب القديم ، لأن البربر هم أقدم العناصر البشرية التى أدت دورا حضاريا وسياسيا قرب نهاية عصور ما قبل التاريخ وأثناء العصر التاريخى في هذه المنطقة . وفيما يلى بعض هذه النصوص .

Chabol,B. Recueil des Insceiptions Libyques, 1940,1941.
Marcy, G., Lesinscriptions Libyques bilingues de L'Afrique du Nord, Chiers de la Société asiatique, fasc. V. 1936.

Chabot J.- B.,Fantaisies Libyques, Revue Africaine,1937.

Marcy, G.,Epigraphie berbère (numidique et saharienne), annales de L8Institut d'Etudes Orienales de la Faculté de lettres de L'univ. d'Alge t. II, 1936.

Salluste, Bellum Ingurthinum, éd A. Ermount, 1941.G.Budé.

Cèsar, Bellum civile, éd. P. Fabre, 1936,coll.G. Budé.

وبالاضافة الى هذه النصوص البونيه والتى سجلها القرطاجيون وتعبر عن مختلف نشاطهم السياسى والفكرى في المغرب القديم ، وتمثل بذلك بعض الجوانب التى تعمدت بعض النصوص الكلاسيكية اغفالها . وترتبط هذه النصوص بالنصوص الفينيقية في الشرق الأدنى لأنها تعتبر بمثابة امتداد لها ، هذا بالاضافة الى تأثر القرطاجيين بالبربر واكتسابهم بعض الجوانب البربرية فى حضارتهم مما أعطى لهم طابعا خاصا يميزهم من الناحية الفكرية عن الفينيقيين فى

الشرق . ولا يعني ذلك عدم تأثير البربر بهم بل أن التأثيرات الفينيقيــــة والقرطاجنيــة لبعيدة المدى في المجتمعات البربرية القديمة . ومن هـــذه النصوص ما ذكر في مجموعة .

Corpusiinscriptionum semiticarum, premiére partie, Châpitre XIII.

Chabout. J. -B., Punica Journal Asiatique, t. VII, I9I6; VIII, I9I6 I I9I7; X I9I7; XI, I9I8.

أما النصوص اللاتينية فهي تعبر عن مراحل العصر الروماني في المغرب وهي المرحلة التي تمكن الرومان فيها من فرض سيادتهم السياسية والعسكريــة لحد كبير في هذه المنطقة رغم محاولات البربر المتكررة القيام بثورات تحـــاول تخليص البلاد من نفوذهم واستعادة الحرية . وقد عثر على هذه النصوص فـــي المواقع الاثرية الكثيرة وخاصة المدن الرومانية التي تمكن الرومان من تأسيسهـــا وتحصينها . وتماثل هذه النصوص لحد كبير غيرها من النصوص اللاتينيـــــة المنتشرة في ارجاء الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط فهـــي تعبر عن طبيعة الحكم الروماني في عصر الامبراطورية . ومن نصوص هـــــذه المرحلة ما سجلته مجموعة .

Corpusiinscripitionum Latinarum, t. VIII.

St. Gsell, Inscripitions latines de L'Algèrie, t.1, Paris I922.

Chatelain L. Incripitions latines du Maroc. Paris, I948.

Merlin , A., Inscriptions latines de la TunisMe, Paris, I944.

اما بالنسبة للنصوص الخاصة بمرحلة الواندال فمنها :

FiebgerO., et Schidt L. Inschriften sammlung Zur Geshichte derOsgerman Denkschriften der Kaiserl. Akademie der Wissenschaften de Viennce Phil.Hist. Klasse. t., IX, Vienne, I9I7.

وبالنسبة للنصوص في العصر المسيحي متضمنة المذهب الدوناتي فمنها :

Von Sorden, H. Urkunden zu Entstehungsgeschichte des Donatismus, Kleine texte, de Lietzmann, H.,t. Bonn, 1913.

Duchesne,L.le dossier du Donatisme, Mélanges d'Archéologie et d'Histoi de L'Ecolefrançaise dd Rome, 1980.

Monceaux, P.L'Epigraphie donatiste, Revue de Philogie, 1909.

Gagé, J, Sur deux inscriptions Chrétiennes d'Hippone, Bull. de L'Académie d'Hippone, No, 37,1930-35.

أما النصوص اليونانية فهي نسبيا محدودة نظرا لعدم تمكن اليونان من فرض سيادتهم العسكرية الا لفترات وجيزة في منطقة تونس ، هذا بالاضافة التي منطقة برقة . ولا يمنع ذلك من وجود النفوذ اليوناني في المجال الحضاري في العصر القرطاجي فقد اعتمد القرطاجيون على بعض المظاهر الحضارية اليونانية من حيث النظم السياسية والدستورية ، وأيضا في المجال الفني . بل لقد اتجه القرطاجيون الى تدريس اللغة اليونانية باعتبارها لغة تعبر عن تراث حضاري له أهميته في ذلك الوقت . وقد جمعت بعض هذه النصوص في :

Cagnat, R.;Toutain, J.Jouguet, p. Inscriptiones graecae ad res romanas pertinentes, t,I, 1911.

وتعتبر جميع هذه النصوص السالفة الذكر من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحث في تاريخ المغرب القديم وهي تكمل الجانب الممثل في التركة المادية التي خلفتها مراحل هذا التاريخ في هذه المنطقة .

المصدر الثالث – ما سجله الكتاب اليونان والرومان والمسيحيون ، عن تاريخ وتراث هذه المنطقة . وهذا المصدر له اتجاهاته الخاصة نظراً لأن بعض أجزاء هذه المنطقة كانت قد دخلت في نطاق النشاط الفينيقي في المجالات الاقتصادية والحضارية . وقد تطور ذلك الى نجاح الفينيقين في تأسيس دولة مستقلة هي الدولة القرطاجية . وقد اعتبر الاغريق والرومان تكوين هذه الدولة بمثابة حد لنشاطهم التجارى والسياسى والحضارى في هذه المنطقة . ولذلك اقتصروا على توجيه اهتمامهم بالمناطق الشمالية في حوض البحر الابيض المتوسط أى جنوبى أوروبا . واتخذوا موقفا معاديا للفينقيين والقرطاجيين مما يستوجب ضرورة الاحتياط والحذر عند دراسة كتاباتهم عن النشاط السامى وخاصة الفينيقى والقرطاجى ، بل أثناء تحريه لحقائق احداث التاريخ المغربى القديم . ويتضمن هذا المصدر ما سجله المؤرخون والجغرافيون الكلاسيكيون مثل هيردوت وأرسطو وبوليبيوس وديودور وبلوتارك وسيليوس ايتاليكوس واسترابو وغيرهم .

والمصدر الرابع – يمكن تتبعه في بعض الظواهر الانثروبولوجيه الثقافية وبصفة خاصة بعض العادات والتقاليد المعاصرة في بعض مجتمعات البادية المغربية . وتتمثل في الوشم والرقص الشعبى والأغانى والأمثال وكذا بعض مظاهر العمارة وبعض العادات الدينية القديمة . وتدخل هذه الجوانب في حقل الانثروبولوجيا الثقافية وتصور عادات متوارثة عن المجتمعات القديمة ومستمرة حتى الوقت الحاضر . فهى تلقى بعض الضوء أحيانا عن بعض التقاليد والعادات في العصور القديمة . وهذا المصدر من الأهمية بمكان ويستوجب سرعة التسجيل نظرا لاندثار هذه العادات والتقاليد بحكم التقدم الحضارى المعاصر .

والمصدر الخامس – ما سجله المؤرخون والجغرافيون والرحالة والمسلمون والعرب عن المغرب وآثاره وشعوبه وقبائله ولهجاته ومن أهم هؤلاء :–

عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في سبعة أجزاء بما في ذلك المقدمة ، القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

والبكرى في كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دى سلان ، الجزائر سنة ١٩١١ .

والشريف الادريسى في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر الجزء الخاص بالمغرب والأندلس ومصر المستشرقان دوزى ودى خويا ، ليدن سنة ١٨٦٦ .

وعبد المنعم الحميرى في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٣٧ .

وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مغربى غير معروف نشره سعد زغلول ، الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .

ولسان الدين ابن الخطيب في رسائله التى نشرها أحمد مختار العبادى تحت عنوان مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .

ويعطى هذا المصدر صورة لآراء ومشاهدات المؤرخون والجغرافيون والأدباء المسلمين عن هذه المنطقة وينبغى على الباحث التزام جانب الحيطة والدقة عند تتبعه لآرائهم بالنسبة للتاريخ القديم .

وتعتبر هذه المصادر الخمسة السالفة الذكر بمثابة العمد الرئيسة التى يعتمد عليها الباحث في دراسة التاريخ المغربى القديم . هذا وقد أخرج المؤرخون ... ضخما من المراجع والكتب والدوريات العلمية التى تعتمد على هذه المصادر وتسجيل أحداث هذا التاريخ .

وفيما يلي أقدم مراحل تاريخ المغرب القديم وهى مرحلة عصور ما قبل التاريخ .

الباب الثاني

عصور ما قبل التاريخ في المغرب الكبير

قبل الاحاطة بحضارات عصور ما قبل التاريخ في المغرب القديم ينبغي الاشارة أولا الى كل من المحورين الرئيسيين اللذين ينبع منهما الانتاج الحضارى بكافة مظاهره وهما البيئة والانسان . فالحضارة في أوسع مجالات مفهومها ما هى الا نتاج تفاعل الانسان مع البيئة . ويعتمد هذا الانتاج فيما يعتمد ، على طبيعة هذه البيئة وما تكتنفه من ظواهر جغرافية تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولذلك كان العامل البيئى من أهم العوامل التى تؤثر في هذا الانتاج وتشكيله بشكل معين . ومن ناحية أخرى ظل الانسان يترقب هذه البيئة ويداوم على ملاحظة مظاهرها المختلفة الأرضية والجوية والمائية والنباتية والحيوانية ويكتسب في هذا الصدد الكثير من التجارب التى تعاونه في دفع عجلة التحول والتطور والاختراع والانتاج .

والواقع أن هذه التجارب المتوارثة والمكتسبة هى بمثابة الأساس الذى تقوم عليه عملية الانشاء الحضارى وليس للعنصر البشرى من حيث انتمائه الى جنس معين أية صلة بالتفوق الحضارى . فعبقرية الانتاج تعتمد على الظروف البيئية والتجارب المختلفة وأيضا المثابرة على ملاحظة وربط الظواهر العامة والخاصة . وتتفاعل في هذا المجال المقومات المحلية مع المؤثرات الخارجية مما يؤدى الى نمو أو تعديل الاتجاهات الحضارية .

الفصـــل الأول

البيئـــة والانســان

في عصور ما قبل التاريخ في هذه المنطقة

تجمع البيئة المغربية بين مختلف التضاريس فهناك مجموعة جبـــال الأطلس والهضاب المحيطة بها والسهول الساحلية والداخلية والمنخفضات والواحات والأودية والغابات والصحراء الكبرى الممتدة من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي . ويتصل تاريخ هذه البيئة في عصور ما قبل التاريخ اتصالا وثيقا بالتطورات الجغرافية الجوية والأرضية والمائية التى حدثت في الزمـن الجيولوجى الرابع أى عصر البليستوسين ، ولكنها تميزت بتطوراتها الخاصة ، فبينما سادت هذا العصر الهجمات الجليدية في أوروبا وفترات تراجعهـــا كانت هناك الهجمات المطيرة وفترات الجفاف في المغرب القديم في ذلك الوقت . وقد قام العلماء بالبحث عن الأدلة المختلفة التى تثبت حدوث هذه المراحـل المطيرة في تلك المنطقة وأيضا نوع الحياة الحيوانية والنباتية والانسانيـــة أثناءها . واشترك في هذا الصدد علماء الجيولوجيا والجغرافيا والجو القديم والنبات القديم والحيوان القديم والانثروبولوجيا والآثار الذين قاموا بالدراسات المختلفة كل في ميدانه الخاص متوخين الوصول الى حقائق هذه المرحلة مـــع محاولة التعرف على صلات هذه الأدلة ببعضها . وبدأ الجيولوجيون بقياس الارتفاع في البحار نتيجة ذوبان الجليد وتأثيرها على الشواطئ البحرية وبذلك بدراسة الرسوبات المختلفة التى تجمعت على هذه الشواطئ والتى تظهــــر طبقاتها في بعض المحاجر والهضاب المتاخمة لهذه السواحل . ومن الأمثلـــة الجيدة لهذه المحاجر محجر سيدى عبد الرحمن ومحجر مارتن في نواحـــى الدار البيضاء بالمغرب .

ويلاحظ أن هذه الطبقات تدل على مراحل الازدياد والتراجع وتقابـــل بدورها مراحل الهجمات الجليدية وتراجعها ، ولكن على أساس أن التراجع فـــي هذه الناحية البحرية يوازى مراحل الهجوم الجليدى ، وأن الازدياد فيها معناه

تراجع الجليد . وذلك على أساس أن عملية ذوبان الجليد في فترات التراجع الجليدى تؤدى الى ازدياد نسبة المياه مما ينتج عنه ارتفاع مستوى البحار وتكوين الرسوبات التى تظهر في طبقات هذه الشواطئ والمحاجر الساحلية ، والعكس صحيح . وعلى ذلك فدراسة هذه الطبقات تعطى الباحث صورة عن الاحوال الجوية في هذه العصور بجانب ما تكتنفه هذه الطبقات من آثار عظيمة حيوانية وانسانية وصناعات حجرية هامة من مخلفات انتاجه في ذلك الوقت .

وبالاضافة الى دراسات الجيولوجيين يقوم الجغرافيون وعلماء الجو القديم بالبحث عن أدلة أخرى تثبت حدوث الهجمات المطيرة في تلك العصور . فاتجهت ابحاثهم الى دراسة الصحراء الكبرى التى تحدثت المصادر الكلاسيكية عن خصوبتها . فقد عثر على عدد كبير من الاودية والبحيرات التى تجمعت فيها الرسوبات الناجمة عن العصر المطير ومن أهم هذه الاودية وادى اغراغار الذى يبدأ من جبال الهجار ويتجه شمالا حتى منخفض توغورت ويصل حتى شط ملغير في شرقى الجزائر . وكذلك عثر على رسوبات في هضاب تاسيلى شمال جبال الهجار السالفة الذكر وأيضا في وادى مردوم في شرقى طرابلس . ومما يسترعى الانتباه العثور في منطقة نهر النيجر الأعلى على بقايا بعض عظام متحجرة لأسماك وأفراس نهر وزراف وفيلة وغيرها من الحيوانات . ويقوم علماء الحيوان القديم بدراسة هذه البقايا العظمية للتعرف على نوع الحياة الحيوانية السائدة في تلك العصور والتى تتفق مع الظروف المناخية والبيئية الملائمة لها . وقد تخللت فترات العصر المطير مراحل جفاف بعد تراجع الموجات الباردة نحو الشمال . ويمكن تتبع هذه الفترات من دراسة الطبقات الرسوبية المحتوية على بقايا عظام حيوانات تلائمها تلك الظروف الجوية .

وقد حاول العلماء ربط مراحل العصر المطير بمراحل الهجمات الجليدية في أوروبا وتمكنوا بعد دراسات جيولوجية وجغرافية طويلة من التعرف على المراحل

التالية بالنسبة الى منطقة المغرب الأقصى والموازية لمراحل الهجمات الجليدية :

المراحل الجليدية الأوروبية			المراحل المطيرة في المغرب الأقصى	
فرم الجديدية	Neowrm	توازى	الغربية	Rharbien
فرم	Wurm	تـوازى	السلطانية	Sohanjen
رس	Riss	تـوازى	التنسيفتية	Tensiftien
منـدل	Mindel	تـوازى	العامريـة	Amirien
جنـز	Gunz	توازى	السلاويـة	Salétien
ما قبل جنز	Pregunz	توازى	الملويـة	Moulouyen

وكما اجتذبت هذه البيئة المغربية الحيوان رغم الصعوبات المناخية فقد اتجه الانسان أيضا الى الحياة في تلك المنطقة محاولا اثبات كيانه . وقـام العلماء بالبحث عن أقدم انسان وصل الى تلك المنطقة وصناعته وحضارته الأولى ، وأيضا التعرف على علاقة هذا الانسان بزملائه في القارتين الأوروبية والآسيوية .

وقد عثر علماء هذا الأول في عدد من المواقع الأثرية المغربية المنتميـة الى العصر الحجرى القديم الأسفل والاوسط والأعلى وأيضا العصر الحجـرى الحديث . وقبل التعرف على نوع هذا الانسان ومكانه في سلم التطور تنبغـى الاشارة الى مراحل التطور الرئيسية للانسان بوجه عام والتى على أساسها يمكن وضع الانسان المغربى القديم في مكانه بين السلالات البشرية . وتنقسم هذه المراحل الى ما يلي :

(١) مرحلة ما قبل الانسان Prehunlans في عصرى الميوسـين والبليوسين منذ حوالى ١٥ مليون سنة .

(٢) مرحلة الانسان الأول وذلك في عصر البليتوسين وتشمل ما يلي :

١ـ مرحلة انسان جاوه Pithecanihropus وانسـان بكيـن

Snanthropus، وبداية صناعة الادوات الحجرية منذ حوالي نصف مليون سنة ،وانسان بلتدون Ppiltdown في انجلترا .

٢ ــ مرحلة انسان نياندرتال Neanderihal في ألمانيا وانسان هيدلبرج Heidelberg في ألمانيا وانسان روديسيا R Rhodesia في أفريقيا وانسان Solo في جاوه .

٣ ــ مرحلة الانسان الحديث الأول Early modern man ويشمل انسان Galley Hill في انجلترا وانسان سوانسكوب Swanscombe في انجلترا وايضا انسان ستاينهيم Steinheim في ألمانيا ،وينتمي الى هذه المجموعة أيضا انسان جبل الكرمل Mönnt Carme بفلسطين .

(جـ) مرحلة الانسان الحديث أو الانسان العاقل Homo Sapiens وقد ظهر منذ حوالي ٧٥,٠٠٠ سنة وما بعدها . وفي أوروبا ظهر هذا الانسان منذ حوالي ٥٠,٠٠٠ سنة وينتمي الى هذه المرحلة مجموعة انسان كروما نيون Cro-Magnon بفرنسا ومجموعة كومبي ــ كابل ــ برن Combe-Capalle Brunn وانسان جريما لدى Grimalde ذو الصفات الزنجية بايطاليا .

وهناك أمثلة أخرى تمثل السلالات البشرية المختلفة البيضاء والسوداء والصفراء أي العناصر القوقازية والزنجية والمغولية .

أما في المغرب فقد عثر على عدد كبير من البقايا العظمية الانسانية وبصفة خاصة عظام الفك السفلي والعلوي والجمجمة ،لأن هذه العظام تعتبر من أقوى الاجزاء العظمية في الهيكل الانساني وتتحمل لحد ما فاعلية الزمن . وأقدم هذه الآثار العظمية الانسانية في المغرب ما عثر عليه في موقع باليكاو بالجزائر وتنتمي الى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل . وهي عبارة عن ثلاث عظام فكية سفلية وتتميز بكبرها وثقلها وأيضا عظمة جدار أيمن للجمجمة . ويلاحظ العثور عليها مع مجموعة من الفئوس اليدوية مما يغلب انتمائها الى مرحلة حضارية واحدة .

وقد قام العلماء بالدراسات المقارنة لمعرفة مكان هذا الانسان في التطور البشرى فثبت أنه ينتمى الى مجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس Atlanihropus Mauritanicus وترتبط هذه المجموعة الأخيرة مع مجموعة الشرق الأقصى أى انسان جاوه وانسان بكين . ويدعم هذا الارتباط وجود وجه شبه في الأسنان . وقد عثر أيضا على مجموعة أخرى في غاية الأهمية تنتمى الى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل في محجر سيدى عبد الرحمن وهو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة في نواحى الدار البيضاء نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية . وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظيمة لحيوانات فقرية كفرس النهر ووحيد القرن وحيوانات لا فقرية بالاضافة الى البقايا الأثرية التى خلفها الانسان في هذه المرحلة . وتنحدر هضبة هذا الموقع من ارتفاع يزيد على مائة متر الى مسافة خمسة كيلومترات تجاه الشاطئ الأطلسى وتمتد نحو الجنوب الغربى حيث عثر على كهفين هما كهف الدببة grottes desOurs وكهف ليتررين Grotte des Littorines، وفي هذا الأخير اكتشف فك سفلى انسانى سنة ١٩٥٥ من قطعتين وفي حالة جيدة وهو ينتمى الى نفس مجموعة انسان باليكاو أى مجموعة اتلانثروبوس ، ولو أن حجم الاسنان يقل عما يناظره في باليكاو حيث عثر على ثلاثة عظام فك سفلى ، وعظمة جدار أيمن للجمجمة ، ويلاحظ العثور معها على فئوس يدوية . وترتبط مجموعة باليكاو وهى من مجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس Atlanthropus Mauritanicus بمجموعة سينانثروبوس بيتكانثروبوس Sinanthropus Pithecanthropus في الشرق الأقصى .

وكذلك قد عثر في نواحى الرباط على بقايا انسان يعرف باسم انسان الرباط . وذلك في شهر فبراير ١٩٣٣ حيث وجد الفك الأسفل لهذا الانسان ضمن الحصى والحجر الغاص بصف الطريق في ذلك الوقت . وتوجه العلماء الى الحجر الذى قطع منه هذا الحجر وقاموا بدراسة طبقاته وآثاره . ويبلغ مجموع القطع العظمية المنتمية لهذا الانسان ٢٣ قطعة ولكنها مفككة ويصعب ترميمها وهى تنتمى لجمجمة هذا الانسان ، وأهمها الفك الأسفل وجزء من

سقف الحلق خاص بالجانب الأيسر . ويمتد الفك الأسفل من مستوى الضرس الأول الأيسر حتى الوجه الخلفي للضرس الثالث الأيمن ويتضمن قواطع وناببين وأربعة أسنان واقفة بين الناب والضرس الأول الايسر والضرس الثالث الايمن ، وكذلك جذور الضرسين الأول والثاني الايمنين . وقد قام العلماء بدراسة بقايا الفكين والاسنان دراسة مقارنة . وقد لوحظ وجود نتوء تحت القاطع الجانبي والناب والسنتين الواقعتين بين الناب والضرس والضرسين الاولين السفليين والعلويين ، وهذه الظاهرة لوحظ وجود ها في انسان بكين واتلانثروبوس . ويغلب أن انسان الرباط ينتمي الى مجموعة اتلانثروبوس أى نفس المجموعة المنتمي اليها انسان باليكاو وسيدى عبد الرحمن .

ومن الأهمية بمكان الاشارة الى أرجحية التشابه في التكوين الجيولوجي بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط ، مما يؤكد لحد كبير تشابه البيئة المحيطة بحياة هذا الانسان الأول في كلا الموقعين .

وفيما يتعلق بانسان العصر الحجرى القديم الاوسط في المغرب فقد عثر على فك انساني ينتمي الى هذه المرحلة في كهف Haua Fteah غرب درنة . وقد استخدم الكربون المشع ١٤ في اختبار عمر الفحم الخشبي الذى وجد في مواقد هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة وقد أعطى سنة ٤٣٠٠٠ ق.م كتأريخ له .

وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الانسان مع انسان نياندرتال في فلسطين . كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربي آسيا وشمال شرقي ليبيا . وهناك اتجاه الى اعتبار هذا الانسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب اثر هجرة جنوبية — شمالية ظهرت أيضا آثارها في وادى النيل ثم تطور بعد استقراره في هذه المنطقة . وكذلك قد عثر على عدد من البقايا العظمية الانسانية في الكهوف والمغارات الساحلية المواجهة

للمحيط الاطلسى . هذا ويلاحظ أن ظاهرة الكهوف تمتد على طول الساحل المغربى الاطلسى مثل كهوف، مغارة العالية واشقر بجوار طنجة، ودار السلطان جنوب الرباط ، والخنزيرة جنوب الجديدة ، وغيرها بسبب عوامل التحات والتعرية الناجمة عن مياه المحيط مع الصخور المتاخمة للساحل . وقد اتخذ الانسان القديم هذه الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ما قبل التاريخ . وقد عثر في أرضياتها على عدد من الطبقات الأثرية الدالة على مراحل سكناه فيها .

ومن الكهوف المنتمية الى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط مغارة العالية حيث عثر فيها على بقايا فك انسانى علوى غير كامل النمو وناب مكتمل النمو . ويغلب أن هذه البقايا تنتمى الى مجموعة اتلانثروبوس Atlanthropus مما يبعدها لحد ما عن انسان برقة النيندرتالى وكذلك فلسطين حيث كانت الحضارة اللفلوازية ـ الموستيرية . وعلى ذلك يمكن اعتبار انسان مغارة العالية انه انسان قديم له تطوره المحلى البحت .

أما انسان كهف دار السلطان الذى يقع جنوب الرباط فقد اعتبر العلماء أن بقاياه العظمية تنتمى الى الانسان الحديث أى العاقل Homo sapiens وانه يرتبط بمجموعة انسان مشطة العربى في الجزائر

هذا وقد اختلف العلماء في محاولة ايجاد صلة بين هذا الانسان والتطورات البشرية الأخرى، ولكن ثبت أنه لا يتصل بانسان نيندرتال بل يرتبط مع انسان الحضارة الوهرانية .

ومن آخر الاكتشافات في المجال البشرى في هذه المرحلة العثور على انسان جبل ارحود ، الذى عثر عليه أخيرا جنوب شرقى مدينة أسفى بالمغرب الأقصى . ويغلب انتماؤه الى انسان نيندرتال .

أما فيما يتعلق بالبقايا العظمية الانسانية الى مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى فقد عثر عليها في عدة مواقع أثرية مثل عين Metherchem في تونس وفي مشطة العربى وافلوبو Rhummel وكهف على باشـــا بالجزائر وغيرها . فقد عثر في موقع افلوبو Rhummel على ما لا يقـــل عن أربعين جمجمة بشرية جيدة الحفظ تنتمي الى مجموعة الانسان العاقـــل . هذا بالاضافة الى أجزاء أخرى من الهياكل العظمية الانسانية في طبقـــات أثرية جيدة . ويتميز العصر الحجرى القديم الأعلى بظهور حضارتين رئيسيتين هما الحضارة الوهرانية أو الايبرو مورية والحضارة القفصية . ويتجه العلماء الى اعتبار انسان مشطة العربى الذى يمثل الحضارة الوهرانية من أصل غربـــى بينما انسان الحضارة القفصية الذى عثر على بقاياه العظمية في كثير من مواقع هذه الحضارة من أصل يرجع الى منطقة شرقى البحر الأبيض المتوسط . ومما يسترعى انتباه الباحث ليس فقط وجود وجه شبه بين انسان مشطة العربـــى وانسان كرومانيون بل أيضا بينه وبين انسان جزر كناريا التى كانت بمثابـــة ملجأ بشرى تصل اليه العناصر البشرية من المغرب . وقد كان لهذه الحقائق المتصلة بالكيان البشرى أثرها الكبير في التطور الحضارى في المنطقة وسدى وجود صلات حضارية بين أجزائها .

أما في مرحلة العصر الحجرى الحديث عصر الاستقرار والرعى والزراعـــة فقد سكنت المغرب القبائل البربرية . وهذا وقد اختلف العلماء اختلافـــا كبيرا فيما يتعلق بأصل البربر والى أية عائلة بشرية تنتمى هذه العناصر وكتب في هذا الصدد الكثير من المؤرخين وبصفة خاصة ابن خلدون . وقد أطلـــق البربر على أنفسهم اسم الامازيغ أى الأحرار . ويغلب أنهم ينتمون الى مجموعـــة الشعوب الحامية التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء أو عن طريق القـــرن الأفريقى من موطنها الأصلى الذى يعتقد أنه كان اليمن أو عمان . أما كلمـــة بربر ذاتها فهناك اختلاف أيضا بين العلماء في التعرف على أصلها ولكـــن يغلب أنها مشتقة من اللاتينية Barbarus ، وهو التعبير الذى استخدمه

الروطان بالنسبة لمن يقل عنهم حضارة . وهم ينتمون الى عنصر البحر الابيض المتوسط بوجه عام ولكن تتفاوت مدى دقة صفات هذا العنصر فيهم حسب أماكن استقرار قبائلهم . فقد استقرت بعض هذه القبائل في الشمال والأخرى في الجنوب مما جعلها تتأثر بالموجات البشرية القادمة عن طريق البحر الابيض المتوسط أو عن طريق الصحراء .

وقد تمكن الانسان المغربي القديم منذ العصر الحجرى القديم الاسفل من صنع حضارة ترك آثارها في المواقع الاثرية المختلفة ، ويمكن تتبع المقدمات الرئيسية لتلك الحضارة في الفصل التالي .

الفصـــل الثانـي

مرحلة العصر الحجرى القديم الأسـفل

تعتبر هذه المرحلة من أطول مراحل تاريخ الانسان ، فهى المرحلـــة الأولى التى بدأت بحملة صفاته الانسانية وانشاء باكورة أعماله الانتاجيـــة . ولم تكن مهمته في تلك الفترة الزمنية الطويلة بالمهمة السهلة بل لقد تاسس فيها الكثير من المصاعب الجوية والأرضية والحيوية . ولكنه رغم ذلك قد تمكن من الصمود والنجاح واثبات كيانه وتفوقه العقلى على المخلوقات الاخرى فـي هذا الكون . ولا تختلف وضعية الانسان المغربى القديم في هذا المجـال عن زملائه الآخرين في كافة أنحاء الكرة الأرضية في ذلك الوقت المبكر . فقـد كان العالم يمر بمرحلة التقلبات الجوية أثناء عصر البليستوسين بمرحلـــــة الجليدية والمطيرة . ولا تزال معرفة الباحثين بتاريخ الانسان في هــــذه المرحلة محدودة ومليئة بالفجوات التى يحاول العلماء تفهمها بمداومة الكشف والتنقيب والبحث عن معالم حياة هذا الانسان الأول . ولذلك يلاحظ اختلاف آراء العلماء من حيث مستوى هذا الانتاج الحضارى في بقاع العالم المختلفة اعتمادا على الآثار التى سمحت الظروف باكتشافها في بعض هذه البقاع ويغلب اختفاؤها في بقاع أخرى . فالصورة الحقيقية لحياة الانسان في هذه المرحلة الأولى لم تكتمل بعد . وقد اتخذ العلماء الاصطلاحات الأوروبية في هـــذا الصدد مقياسا تقاس على أساسه حضارات المناطق الأخرى ، وذلك بســـبب أسبقية العلماء الاوروبين الى البحث في هذا الموضوع . ولكن احتمـــالات وامكانيات البحث في المناطق الأخرى في المستقبل قد تغير الكثير من الآراء . وقد بذل الانسان المغربى القديم جهدا في هذا المجال أثبتته الأدلـــة الأثرية في المواقع المختلفة ويمكن ارجاع ذلك الى أقدم مراحل الحضـــارة الانسانية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل

وقد سبقت الاشارة الى البيئة المغربية المتميزة بهضابها وجبالها وغاباتها وسهولها وصحرائها مما أدى الى التجاء الانسان الى الاودية والسهـــــول والعيون والواحات والبرك والبحيرات والكهوف والمغارات أى المناطق التـــى

يستطيع العيش فيها والالتجاء اليها . وقد اختلفت مراحل سكنى الانسان باختلاف الظروف الجوية المحيطة ، فبينما كانت تسود مراحل العصر المطير كان الانسان يلتجىء الى الكهوف والمغارات لحماية نفسه من الظروف الجوية القاسية ثم بانتهاء هذه المراحل يتجه الى الانطلاق في المناطق السهلية حيث تتجمع الحياة النباتية والحيوانية التى يستطيع الاعتماد عليها في غذائه وحياته . ويقوم اقتصاد الانسان في هذه المرحلة على الجمع والالتقاط فليست لدى الانسان مهنة محددة يتوفر على أدائها بل هو يعمل ما تتطلبه الظروف المختلفة في حياته ويركز جهده الأول في البحث عن طعامه المعتمد على صيد الحيوانات والطيور والاسماك وأيضا الاعتماد على المحاصيل البرية الموجودة في محيط مكانه .

وقد تطلبت هذه الحياة صنع أدوات حجرية وخشبية أو عظمية أو عاجية تعاونه على تنفيذ رغباته وتحقيق أغراضه السلمية والدفاعية . وعلى ذلك بدأ في صناعة أقدم آلات حجرية لتحقيق هذه الاغراض السالفة الذكر . ويمكن القول أن الحضارة الانسانية تبدأ بتلك المرحلة التى فكر فيها الانسان وحقق هذا التفكير بصنع وتشكيل آلاته الحجرية الاولى . ولم يكن هذا التفكير الأول مجرد تفكير عابر بل ان ذلك كان نتيجة عدة تجارب وجهته نحو تركيز انتباهه واحساسه ونظره وبالتالى البحث عن وسيلة في دائرة امكانياته المحيطة تحقيق له الغاية المطلوبة . وعلى ذلك بدأ باستخدام الحجر الذى يعتبر أقدم مادة استخدمها الانسان وصنع منها أدواته الأولى . وقد نمى هذا الجهد الانسانى الأول وتنوع نتيجة مطالباته المختلفة وتبع ذلك ظهور قواعد وتقاليد وقدرات فنية صناعية معينة Technique مما أدى الى تطور وتعدد حضارات هذا الانسان الأول . ولم يقتصر مجهود هذا الانسان على الجانب المادى البحت بل لقد فكر في نطاق تجاربه محاولا استكمال حياته المادية بجانب معنوى . وقد عثر فعلا على عدد من الآثار المادية التى تثبت اتجاه الانسان الى الايمان ببعض المقومات المعنوية في حياته الأولى . وقد تمت هذه الأفكار الاعتقادية جنبا الى جنب مع نتاجه المادى مكونة بذلك التكامل الحضارى الذى يعتبر من

أهم خصائص الكائن الانساني . وقد قام العلماء بالبحث عن أقدم مراحـــل حضارة الانسان في المغرب القديم . وقد عثر فعلا في هذا الصدد علـــى عدد من المواقع الأثرية التى تمثل هذه المرحلة الحضارية الأولى . ويصعب ايجاد رابطة مستمرة بين حضارات الانسان في هذه المواقع المنتمية الـــى هذه المرحلة الأولى وهى العصر الحجري القديم الاسفل وهى المرحلـــة المعروفة بالفرنسية تحت اسم Paleolithic inférieur وبالانجليزية Lower Paleolithic ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود أيـــة رابطة حضارية بين آثار هذه المواقع فهناك امكانية استنتاج وجود خـــط تطور حضارى يفتقد بعض مراحل التكامل أى تكتنفه فجوات قد تمـــلأها نتائج الحفائر المستقبلة في المواقع الأثرية . وهذا بالاضافة الى تمييز بعض هذه المواقع بحضارة انتشرت أساليبها في بعض المراكز المحيطة . ورغـــم هذه الصعاب التى يتلمسها الباحث في حضارة العصر الحجرى القديـــم الأسفل في المغرب يمكن حصر حضارة هذا الانسان في تلك المنطقة في ذلك الوقت في مرحلتين أساسيتين ،

أولا ـــ المرحلة الأولى : وتتميز ببداية الصناعة الحجرية فيلاحظ جهـــد الانسان لأول مرة في عملية تشذيب الحجر في اتجاه واحد أو عدة اتجاهـــات وقد أطلق العلماء الفرنسيون في اصطلاحاتهم الاخيرة اسم حضارة الحصـــى المشذب Gales aménagé أو Pebble culture القديمة والمتطورة على تلك المرحلة .

ثانيا ـــ المرحلة الآشولية باقسامها القديمة والوسطى والمتطورة : وهـــى المرحلة التى سادت فيها حضارة النواة المشذبة من وجهيها biface وهي المرحلة المعروفة أيضا باسم الكلاكتو ـــ ابفيليه Calcto- Abbevillien .
وقد تضمنت هذه المرحلة الآشولية ثمانية طبقات من الأولى حتى الثامنة وقد عثر العلماء على آثار هذه الحضارات في عدد كبير من المواقع الأثرية الداخليـــة

والساحلية والصحراوية . ويمكن تصنيف هذه المواقع الى أربعة أقسام رئيسية :—

(أ) مواقع ترتبط بتطورات الزمن الجيولوجي الرابع من الناحية البحرية مثل بعض المحاجر الساحلية كمحجر سيدي عبد الرحمن ومحجر مارتن Martin ومحجر ديريه Deprez ومحجر S.T.I.C. وجميعها في نواحي مدينة الدار البيضاء في المغرب الأقصى .

(ب) مواقع سهلية لجأ اليها الانسان بحثا عن الطعام والشراب مثل Ouzidane ويقع على بعد بضعة كيلومترات شمال شرقي تلمسان على الضفة اليمنى لوادي صفصاف ، وبصورة أدق عند رأس كهوف الريح القريبة من عين الحوت ، وعين كرمان Inkermann جنوب غربي مدينة الاصنام في غربي الجزائر . Clairfontine وتقع في شرقي الجزائر على الضفة اليمنى لوادي ملاق وفي الطريق بين سوق اهراس وتبسه ، وموقع الماء الأبيض El-ma-el-abiod حوالي ٤٥ كم جنوب تبسة ، Champlain شرقي المدينة جنوب الجزائر العاصمة ، وموقع تمدا Tamda في نواحي أعالي وادي سباو وجنوب دلس ، وموقعي قفصة وسيدي الزين .

(جـ) مواقع العيون والآبار ، التي تجمع عندها الانسان وترك آثاره في طبقات الأرض المطلة على تلك العيون والآبار مثل موقع عين حنش على بعد ٦ كم شمال غرب سانت أرنود St .Arnond (العلمة) شرقي سطيف ،

وموقع تيت مليل ، وعين فريطسة ، وموقع Chetma على بعد ٨ كم شرقي بسكرة ، وموقع Abukier شرقي وهران ، وبحيرة كارار Karar بجوار تلمسان ، وترنيفين بجوار باليكاو في غرب الجزائر .

جدول رقـــم (١)

جدول تتويمى لحضارات العصر الحجرى القديم الأسفل في المغـــرب

العصور الجليدية في أوروبـــا	العصور المطيـــرة في المغرب	الحضـــارة
دنـاو	الملـــوى	Calèt amenagé حضارة الحصى المشذب
جنز	السلاوى	
مندل	العامـــرى	حضارة النواة ذات الوجهين Biface
رس	التنسيفتى	
غـــرم	ما قبل السلطانى	

المراحل الحضارية	المواقع الأثرية
المرحلة القديمة	Tardignet-er Rahla ـ عرباوة ـ دوار الدوم محجر دبريه Deprez بالدار البيضاء عين حنش ـ Champlain ـ منصورة
المرحلة المتطورة	محجر شنيدر بالدار البيضاء سوق الاربعاء ـ سيدى عبد الرحمن ـ شالة
الاشولية القديمة	سيدى عبد الرحمن ـ قمة عين حنش ؟ ترنيفين سيدى عبد الرحمن . محجر S.T.I.C. بالدار البيضاء ـ وادى ملاح .
الاشولية الوسطى	سيدى عبد الرحمن . كهف الدببة Ours بسيدى عبد الرحمن كهف Littorina بسيدى عبد الرحمن ـ محجر مارتن .
الاشولية المتطورة	سيدى عبد الرحمن ـ وادى الخميس رأس شاتليه ـ عين حلوف ـ سيدى الزين .

(د) مواقع صحراوية مثل تيهودين Tihodaine في قلب الصحراء في منطقة جبال الهجار ، ويعين هذا الموقع حقيقة رسوبات غرينية قديمة نتيجة نزول كميات كبيرة من الأمطار في قلب الصحراء في مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل ، وقد عثر خلالها على أدوات حجرية وخاصة فئوس يدوية ، بالاضافة الى بقايا عظام حيوانية .

وقد كان اعتقاد عدد من الباحثين في حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل أن آثار موقع عين حنش تمثل أقدم جهد انسانى في صناعة الأدوات الحجرية في شمال أفريقيا وذلك على أثر العثور على قطع حجرية من الحجر الجيرى ويقترب شكلها من الشكل الكروى وتتميز بكثرة اضلاعها وزواياها .

وقد تردد العلماء في بداية الأمر في شأن حقيقة هذه القطع الحجرية من حيث كونها من صناعة الانسان أم من مخلفات الطبيعة نتيجة عوامل التحات والتعرية المختلفة . ولكن العثور على فئوس يدوية منتمية الى نفس الحضارة رغم عدم وجودها في ذات المكان يساعد على الاعتقاد بأنها من صنع الانسان . ويغلب أن هذه "الكرات" الحجرية كانت أصلا أكبر حجما ثم قطعت منها شظايا وتبقت هذه القطع الحجرية في صورتها الحالية . وقد اعتقد العلماء في قدم هذه "الكرات" الحجرية لأنها لا تمثل تقليدا حضاريا معينا بل هى نوع من الجهد الصناعى الانسانى الأول . ولكن العثور على أدلة أثرية جديدة وخاصة في منطقة المغرب الاقصى قد أدى الى تعديل الرأى القائل بأولوية آثار عين حنش السالفة الذكر من حيث القدم . ويتجه الرأى الجديد بناء على الدراسات المقارنة الى اعتبار آثار مواقع عرباوة ودوار الدوم و Tardignet er- Rahla ومحجر دبريه Deprez أقدم من آثار عين حنش . فهى تمثل جهدا صناعيا أكثر أولوية في القدم من "الكرات" الحجرية المنتمية الى عين حنش وعلى هذا الاتجاه الجديد في التفسير من آثار هذه المواقع الأثرية الأخيرة تمثل أقدم آثار

صنعها الانسان في المغرب الكبير في أقدم عصوره . ويقع موقع عرباوة Arbaona في شمال سهول المغرب، أما موقع دوار الدوم ففي نواحي مدينة الرباط، وموقع ترديجة الرحلا في نواحي غاية المعمورة، وجميعها غربي المغرب الاقصى وقريبة نسبيا من المحيط الاطلسي . وتنتمي حضارات هذه المواقع الى المرحلة القديمة الاولى والثانية المنتمية لحضارة الحصى المشذب .

وقد تمكن الانسان الانتقال بحياته من مستوى حضارة الحصى المشذب في المرحلة القديمة السالفة الذكر الى مرحلة جديدة هي المرحلة المتطورة ويمكن تتبع هذا التطور من الدراسات المقارنة للآلات الحجرية التى خلفتها مواقع آثار هذه الحضارة حيث يلاحظ جهدا انسانيا أكثر وضوحا في المرحلة المتطورة . ولقد كانت النقلة من حضارة الحصى المشذب الى حضارة النواة ذات الوجهين Biface بطيئة ولكن يمكن تلمس صناعة هذه الحضارة الجديدة من آثار المواقع الاثرية الكثيرة التى تنتمى الى هذه المرحلة التى تعرف أيضا باسم مرحلة الحضارات الاشولية القديمة والوسطى والمتطورة . وتتميز بصفة خاصة بكثرة الفئوس اليدوية التى كانت تستخدم في عدة وظائف تتصل بقطع ما يحتاج اليه الانسان . هذا بالاضافة الى المحكات والمكاشط الجانبية التى بدأ الانسان يشكلها لتغطية بعض جوانب ضرورياته . ومن الاهمية بمكان الاشارة الى العثور على بقايا عظيمة حيوانية وانسانية مع الادوات الحجرية في بعض المواقع، مما يؤكد تجمع بقايا مخلفات المجتمع بكافة أركانه في مكان واحد . ولم يقتصر الانسان على الادوات الحجرية بل استخدم أيضا الخشب والعظم في بعض صناعاته .

ويصعب القول كما سبقت الاشارة الى وجود نمط حضارى معين سائد في كافة هذه المواقع المنتشرة في أنحاء المغرب رغم تنقل الانسان من مكان الى آخر فان صلاته الحضارية لا تزال في طورها الأول .

ولكن يمكن النظر بعين الاعتبار لموقع معين بالذات قرب ساحل المحيط الاطلسي وهو محجر سيدى عبد الرحمن لأنه يحمل أهمية خاصة من النواحي الجيولوجية والأثرية والبقايا العظمية الانسانية والحيوانية . ونظرا لأهمية النتائج الاثرى لهذا الموقع فقد اعتبره بعض العلماء مثلا لحضارة أطلق عليها اسم الحضارة الرحمانية . ولكن يتجه بعض العلماء الآخرين الى تسمية هذه المرحلة الحضارية باسم الحضارة الكلاكتوابفيلية . وطبيعة الأرض في هذا الموقع عبارة عن هضبة تنحدر نحو ساحل المحيط الاطلسي من ارتفاع حوالى ٤٠٠ متر مسافة حوالى ٥ ك م . وقد استخدمت هذه الهضبة كمحاجر بصفة خاصة بالنسبة للحجر الرملي مما أدى الى كشف الآثار التى خلفها انسان هذه المرحلة في تلك المنطقة . وقد امتدت حفائر محجر سيدى عبد الرحمن مسافة أكثر من ١ ك م . حيث عثر في طبقاته على عدد من الفئوس اليدوية والشظايا والبقايا العظمية الحيوانية كعظام فرس النهر ووحيد القرن . ومما يستحق الذكر وجود بعض الكهوف في نفس الطبقة الحضارية في شمال محجر سيدى عبد الرحمن حيث لوحظ وجود عدد من طبقات المخلفات الاثرية في أرضيات بعضها مثل كهف الدببة Grotte des Ours . وكهف ليتورين Grotte de Littorires ، وخاصة بالنسبة للأخير فقد عثر على بقايا انسان سيدى عبد الرحمن .

ولقد كان قوام حياة الانسان الاقتصادية في هذه المرحلة الجمع والالتقاط ولذلك فاستقراره في هذه الكهوف وحول العيون والآبار والأودية كان استقرارا موقتا ، فسرعان ما ينتقل الى مكان آخر يبحث فيه عن طعام جديد .ولقد نجح هذا الانسان الأول في بداية تطوير حياته بصنعه الآلات الحجرية الأولى كالفئوس اليدوية . ومن الأهمية بمكان مقارنة مستوى هذه الصناعة الحجرية بما يناظرها في شرق ووسط أفريقيا وكذا في أوروبا وغربى آسيا ، مما يساعد على تفسير هذه الحضارات من حيث أصولها وتطوراتها وصلاتها الحضارية ومستواها الفنى . ولكن يصعب التثبت في هذه المرحلة الاولى من الجهد الانسانى الأول من الصلات الحضارية الا على

سبيل الاقتراض النظرى الذى يحتمل تدعيمه مستقبلا بالأدلة الأثرية .
ولكن مما لا شك فيه أن انسان العصر الحجرى القديم الأسفل قد تمكن
خلال هذه المرحلة الزمنية الطويلة من اكتساب عدد من التجارب الحيوية
في حياته مما ساعد على دفعه نحو الانتقال الى المرحلة الحضارية التالية
وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط .

مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط

يمكن للباحث تتبع الانتقال الى هذه المرحلة الحضارية الجديدة وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط عندما يتلمس بوضوح معالم قدرة صناعية فنية جديدة تظهر بصفة خاصة في صناعة الأدوات الحجرية . وقد تجلت هذه المقدرة الفنية الجديدة في صناعة الشظايا Flakes ويمكن ملاحظة ذلك في عدد من المواقع الاثرية التى تجمع في آثارها بين حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل والعصر الحجرى القديم الاوسط مما يؤكد بداية مرحلة الانتقال الحضارى بين العصرين . ومن البديهى أن هذه الصناعة الجديدة تحل محل الصناعة الأقدم منها بصورة تدريجية مما يتفق مع سنة التطور . ويصعب على الباحث التعرف على الاسباب المباشرة التى دفعت الانسان لهذه النقلة . ولكن يغلب أن تجاربه الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم الاسفل مع البيئة الطبيعية والحيوانية والنباتية ومع سلاحه الأول وهو الفأس اليدوى قد وجهته الى ضرورة تطوير هذه الادوات الحجرية التى يستخدمها في تحقيق أغراضه المختلفة . أما عن الزمن الذى توصل فيه الانسان الى هذه المرحلة الجديدة فتختلف من مكان الى آخر تبعا لمدى تأثره المباشر أو غير المباشر بهذه التجارب الطويلة في حياته، وكذلك تبعا لطبيعة المنطقة التى يقطن فيها .

ويتجه الاستاذ ماك Mc Burney الى الاعتقاد بأنه يمكن التعرف على التقاليد الحضارية الاقليمية في هذه المرحلة بدرجة محدودة . فقد اتجه انسان هذه المرحلة الى تركيز جهوده الحضارية المادية والفكرية في بعض أماكن معينة اتخذت كمراكز انتشرت منها التقاليد الحضارية في الاماكن المجاورة والبعيدة . وعلى سبيل المثال موقع بئر العاتر في تونس والذى تنسب اليه الحضارة العاترية Aterian وهناك اتجاه الى مواقع أخرى مثل برج Sbaiha في نواحى جبل درميره وموقع وادى جبانة Djebbana في منطقة نهشة جنوب شرق قسطنينة .

والصناعة المميزة لحضارة العصر الحجرى القديم الاوسط في المغرب هي صناعة الشظايا ويغلب أن هذه الصناعة قد نتجت أثناء عمليات تشذيب الحجر والتخلص من بعض الشظايا مما كان له فاعليته في تنبيه الصانع الى امكانية صناعة شظايا دقيقة تكون أكثر صلاحية في تحقيق احتياجاته المختلفة . ولكن هذا التفسير غير نهائي .

ولا شك أن صناعة الشظايا قد تطلبت تدريبا تجريبيا طويلا يظهر في عمليات ضرب الحجر في زوايا معينة مما ينتج عنه هذه الشظايا المتميزة بعدتها والمميزة لهذه المرحلة الحضارية وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار هذه المرحلة . وذلك من ليبيا حتى المحيط الاطلسى .

وبالنسبة للمواقع الليبية هناك موقع وادى درنة ، وقد عثر في هذا الموقع على بقايا عظام حيوانية كثيرة وبصفة خاصة الاغنام ، بالاضافة الى الادوات الحجرية الصوانية والتى تتميز بصناعة الشظايا .

ويلاحظ تشابه هذه الصناعة مع صناعة الحضارة اللفلوازية — الموستيرية الفلسطينية . ولا يقتصر وجه الشبه على الانتاج الصناعى بل أيضا انتماء كلتا الحضارتين لفترة زمنية واحدة . وقد طبقت طريقة الكربون المشع على بعض البقايا المتفحمة التى عثر عليها في المواقد في طبقات كهف هوافتيح Haua Fteah في محيط منطقة وادى درنة وأدى هذا التطبيق الى تقدير عمر هذه البقايا بحوالى ٤٣٠٠٠ ق.م. ويلاحظ أيضا وجود وجه شبه بين البقايا العظمية الانسانية المنتمية لهذه المرحلة وبين الانسان النيدرتالى الفلسطينى وكل ذلك يؤكد وجود صلات حضارية وبشرية بين جنوب غربى آسيا وبصفة خاصة منطقة فلسطين وبين المغرب وبصفة خاصة منطقة شمال شرقى ليبيا أى برقة في ذلك الوقت . وهذه الحقيقة من الأهمية بمكان في التدليل على وجود جانب شرقى بالاضافة الى العناصر المحلية في حضارة العصر الحجرى القديم الاوسط في المغرب .

هذا بجانب وجود آثار الصناعة العتيرية في بعض المواقع الليبية مثل هوا فتيح . وهذه الحقيقة تؤكد من ناحية أخرى وجود جانب مغربي في حضارة منطقة برقة أى اتصال حضارى مع المغرب الصميم . ولكن يلاحظ أن التأثيرات الحضارية المغربية تتجلى بصورة أوضح في منطقة طرابلس أكثر منها في منطقة برقة — وذلك على اعتبار أن منطقة هضاب جبل نفوسه بحذاء الساحل في طرابلس تعتبر امتدادا شرقيا لهضاب جبال الأطلس. وهذا الامتداد لا يقتصر على الجانب الجغرافي الطبيعي بل يتضمن الجانب الحضارى بصفة خاصة ابتداء من مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط. ومن أمثلة الحضارة العتيرية في ليبيا صناعة الازاميل والمكاشط الجانبية .

أما عن آثار هذه المرحلة الحضارية في المغرب الصميم أى في منطقة جبال الأطلس فقد تمثلت في الحضارة العتيرية نسبة الى موقع بئر العتير .

وتعتبر تلك الحضارة في صناعتها نموذجا لصناعة الشظايا والمكاشط الجانبية ورؤوس السهام ذات الألسنة والازاميل المميزة لمرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط وقد عثر على هذه الصناعات في عدة مواقع مغربية ومن أهمها موقع كهف الخزيرة — الطبقة أ ، وكهف مغارة العليا بجوار طنجة وكهف دار السلطان بجوار الرباط في الطريق بين الرباط والدار البيضاء . هذا بالاضافة الى مواقع تلك الحضارة في تونس وشرقي الجزائر ،

وهناك اتجاه الى الاعتقاد بأن الحضارة العتيرية نتجت أثر اتصال بين الحضارة الآشولية المتأخرة وحضارة لفلوازية — ليبية . وهذا الاتجاه يكمل في الواقع حقيقة ازدياد الصلات الحضارية في تلك المرحلة .

وقد عثر الاثريون على مظهر آخر في غاية الاهمية ينتمى الى هذه المرحلة الحضارية وهو مظهر معنوى . فقد عثر على كوم متناسق من الكرات الحجرية الكبيرة الجيدة التشذيب في موقع El Guettar جنوب تونس .

وقد توسط هذا الكوم الحجرى الموقع الأثرى . ومما يسترعى الانتباه أن هذا التقليد الحضارى وهو تنظيم أكوام حجرية تتوسط المواقع موجود لحد ما حتى الوقت الحاضر بين المجتمعات البربرية في المنطقة . ويصعب البت في حقيقة تفسير هذا الكوم الحجرى من حيث الغرض من وجوده ، ولكن يمكن الاستدلال ببعض الظواهر الأثرية التالية من الناحية الزمنية بمحاولة عمل نوع من الترابط بينها وبين الأكوام السالفة ، فيلاحظ أن المعابد أو الأماكن المقدسة كانت تتوسط المواقع الأثرية بوجه عام حيث يجتمع عندها الانسان معتقدا بوجود قوة مقدسة تتخذ من هذا المكان منزلا لها فيحاول التقرب الى هذه القوة المقدسة لاسترضائها وللاطمئنان الى معاونتها له في مختلف مجالات حياته . ولا شك أن الانسان في هذه المرحلة من تطوره الحضارى قد أدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم في الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، وأراد تجسيم هذه القوى في أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره . وفي المجتمع السومرى يلاحظ توسط المعبد للمدينة السومرية وكذلك في المدن اليونانية والرومانية ، ومن الجائز وجود تفسيرات أخرى .

وقد تطورت الحياة الانسانية في مجتمعات العصر الحجرى القديم الأوسط بشقيها المادى والفكرى مما دفعها نحو الانتقال الى المرحلة الحضارية التالية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى .

مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى

تعتبر هذه المرحلة الأخيرة من مراحل العصر الحجرى القديم أهم مرحلة في مجال التطور الحضارى في هذا العصر لأنها تمثل خلاصة التجارب المختلفة التى واجهت الانسان خلال هذه المرحلة الطويلة من حياته ، مما جعلها تمهد الى مرحلة حاسمة أخرى في الحياة الانسانية وهى مرحلة "ثورة" ، انتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث. وقد ظهر هذا التطور في حياة الانسان في هذه المرحلة في توصله الى صنع أسلحة حجرية دقيقة تعرف باسم الادوات الميكروليثية microlithic فقد شعر الانسان بحاجته الماسة الى أسلحة دقيقة تؤدى اغراضه المختلفة بسرعة وتكون في متناول يده بسهولة بدلا من الاسلحة الكبيرة والثقيلة التى كان مضطرا الى استخدامها وحملها في تنقلاته المختلفة. وهذا الانتاج الدقيق من الاسلحة يدل على خبرة دقيقة بالصناعة الحجرية . وتعتبر هذه الاسلحة النصلية بمثابة الاداة المميزة لهذه المرحلة الحضارية الجديدة . وقد تمثلت هذه الحضارة في عدد من المواقع الاثرية المنتشرة من منطقة الجبل الأخضر في ليبيا حتى ساحل المحيط الاطلسى . وقد عثر أيضا على عدد من المواقع الاثرية التى تمثل مرحلة الانتقال الحضارى من العصر الحجرى القديم الاوسط الى العصر الحجرى القديم الأعلى لأن هذه النقلة كانت كغيرها من مراحل الانتقال تدريجية .

وتعتبر مواقع منطقة الجبل الأخضر بليبيا ممثلة لمرحلة الانتقال الحضارى السالف الذكر ويمكن تلمس ذلك في ثلاثة مواقع أثرية مواقع أثرية رئيسية . أولها موقع كهف حجفة الطير Hagfet et Terâ وهى على بعد ١٥ ميل من بنى غازى عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى . حيث عثر على مرحلة الانتقال في أرضية الكهف . هذا بالاضافة الى الصناعات النصلية وبصفة خاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة .

وثانى هذه المواقع هو كهف حجفة الضبع Hagfet ed Dabba وقد عثر في هذا الموقع على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام الكبيرة والمتوسطة

والصغيرة مما يؤكد اعتبارها تمثل مرحلة انتقال حضارى لأنه ليس معنى التوصل الى صناعة حجرية جديدة الانقطاع بصورة فورية عن التقاليد الحضارية السالفة ، بل ان كلا التقليدين الحضاريين يسيران جنبا الى جنب الى أن يحل التقليد الجديد محل الحضارة السابقة .

وقد ثبت وجود صلات حضارية بين شرقي البحر الأبيض المتوسط وبصفة خاصة في فلسطين وموقع جريكو (اريحا) بالذات وبين هذه المواقع الليبية في تلك المرحلة . وهذه الصلات تعتبر استكمالا للصلات الحضارية التى سبقت الاشارة اليها في العصر الحجرى القديم الأوسط . وثالث هذه المواقع الحضارية هو كهف هوافتيح ، وتعتبر الطبقات الأثرية في هذا الموقع بمثابة سجل حى لتاريخ الانسان في هذه المرحلة وما تلاها حتى العصر التاريخى فقد عثر على كميات كبيرة من الاسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطير . ومن الممكن القول بوجود نوع من الصلات الحضارية بين هذا الموقع وبين جنوب غربى آسيا في هذه المرحلة مما يؤيد ما سبقت الاشارة اليه بالنسبة للموقع السابق ، ويمكن تاريخ هذه المرحلة بحوالى ٢٨٠٠٠ أو ٢٩٠٠٠ ق٠م٠

أما في المغرب فقد سادت هذه المرحلة الحضارية القفصية Cipsin وتنقسم الى مرحلتين : القفصية السفلى والقفصية العليا . وقد تعددت المواقع الاثرية الممثلة لهذه الحضارة وظهرت بصفة خاصة بعض المواقع المميزة لها والتى أطلق عليها العلماء الفرنسيون اسم escargotiere ; وتسمى بالرماديات أو الحلزونيات وهى التلال التى تجمعت فيها بقايا الطعام وبصفة خاصة القواقع بالاضافة الى الأدوات الحجرية التى كان يستخدمها الانسان .

وتتميز هذه الحضارة القفصية في صناعتها بالاسلحة والادوات الميكروليثية والازاميله وقد انتشرت هذه الحضارة القفصية الصميمة في تونس وشرقى الجزائر

بصفة خاصة ،كما اتجهت أيضا نحو الشمال والشمال الغربى والجنوب . وهذا وتؤرخ هذه الحضارة القفصية الصميمية بواسطة الكربون المشع ١٤ بحوالـــى ٦١٠٠ ق+م٠ .

ولم يقتصر هذا العصر الحضارى على الحضارة القفصية بل ظهـــرت حضارة أخرى ساحلية تعرف بالحضارة الوهرانية Oranian نسبة الـى موقع وهران كما أطلق عليها أيضا الحضارة الايبيرو ــ موريه Ibero - Maurusian أى الممتدة من شبه جزيرة ابيريا حتى المغرب .

وتتميز هذه الحضارة الوهرانية بصناعتها الحجرية الخاصة حيـــث يلاحظ أن النواة الحجرية التى استخدمها انسان هذه الحضارة كانــت صغيرة ومسطحة أو مستطيلة أو بيضاوية وتشبه لحد كبير صناعة موقع جعفـــة الطير السالفة أمثلة أخرى لأزاميل تنتمى الى الحضارة القفصية الصميمة مـــن موقع المكتا المذكر . هذا وقد اختلف العلماء في تحديد مكان هذه الحضـارة الوهرانية في سلم التطور الحضارى في هذا العصر . فهناك اتجاه لاعتبارها متأخرة نسبية من الناحية الزمنية أى أنها تعاصر المرحلة الأخيرة من الحضارة القفصية . وهناك اتجاه ثان الى اعتبار أسبقيتها في الصناعة النصلية علـــى أساس أن بعض المواقع الأثرية في نواحى الدار البيضاء تحوى خليطا مـــن الآثار الوهرانية Oranian ، وعلى ذلك يتجه هذا الرأى الأخير الـى اعتبار أولوية هذه الحضارة الوهرانية في الصناعة النصلية في المغرب. وهناك اتجاه ثالث الى الاعتقاد بوجود صلات حضارية بين حضارة هوافتيح فـــي برقة والحضارة الوهرانية وهناك اتجاه رابع الى الاعتقاد بوجود صـــــلات حضارية بين المواقع الساحلية الاسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية . ويختلف العلماء في هذا الاتجاه الأخير فبعضهم يعتبر الجانب الأوروبى بمثابة مصدر هذه الحضارة وبعضهم الآخر يعتبر الجانب المغربى هو الذى اتجه فـــي انتشاره الحضارى نحو شبه جزيرة ايبيريا . وقد تعرض لفيف من العلماء الـى هذه الاتجاهات المختلفة في تفسير التطورات الحضارية الهامة في هـــذه

الاتجاهات المختلفة في تفسير التطورات الحضارية الهامة في هذه المرحلة الأخيرة في العصر الحجرى القديم . وقد اقترح الاستاذ ماك برنى بعض الآراء الهامة في هذا الصدد تتلخص في أربع نقاط هامة :

أولها : من ٥٠٠٠٠ ق.م. بدأت الحضارة الوهرانية في المغرب نتيجة تأثيرات جرافيتية أو هجرة من جنوب غربى أوروبا ، كما أن حضارة حجفة الضبع تعتبر معاصرة لها وربما كانت نتيجة هجرة من شرقى البحر الأبيض المتوسط .

وثانيها : من ١٢٠٠٠ — ١٠٠٠٠ ق.م. انتشرت حضارة حجفة الضبع في برقة واتجهت غربا الى الجنوب شرقى الجزائر وتونس في منطقة سادتها من قبل الحضارة الوهرانية ، كما امتدت تلك الحضارة الأخيرة الى الساحل المغربى .

وثالثها : ١٠٠٠٠ — ٩٠٠٠ ق.م. انتشرت الحضارة الوهرانية بحذاء الساحل المغربى حتى برقة وحلت محل حضارة حجفة الضبع وربما وصلت الى مصر السفلى .

ورابعها : ٩٠٠٠ — ٥٠٠٠ ق.م. سادت الحضارة القفصية العليا في جنوب شرقى المغرب كما اتجهت شمالا وأثرت في الحضارة الوهرانية ، واتجهت شرقا حتى خليج سرته مما أدى الى ظهور الحضارة السرتية الميكروليثية .

وتعتبر اقتراحات الاستاذ ماك برنى السالفة الذكر في محاولة ايجاد تفسير لمدى ارتباط حضارات هذه المرحلة في غاية الأهمية . ولكن هذه الآراء ليست نهائية لأن الباحثين قد اختلفوا في أصل الحضارة الوهرانية ومدى صلاتها الحضارية بالشرق الأدنى القديم . ولكن هناك حقيقة ينبغى التنويه بها وهى اتساع المجال الحضارى للانسان في هذا العصر الحجرى

القديم الأعلى فازدادت صلاته الحضارية بكل من الشرق الأدنى القديم وشبه جزيرة ايبيريا مما ساعد على تطوره السريع نحو النقلة الحضارية التالية وهى العصر الحجرى الحديث . ولم تقتصر جهود الانسان في هذه المرحلة الحضارية على المجالات المادية بل قد ازدادت قدراته الفكرية بصورة ملحوظة . ويعتبر ذلك استكمالا للنواحى الفكرية التى سبقت الاشارة اليها في العصر الحجرى القديم الأوسط . ومن أهم الأدلة الأثرية التى تثبت هذا الجانب المعنوى النقوش التى رسمها انسان هذه المرحلة معبرا عن أفكاره وكذلك بعض مظاهر النحت في مراحله الأولى كتعبير مادى لبعض أفكاره في ذلك الوقت .

فقد عثر في موقع المكتا El meka جنوب تونس على أمثلة من هذه النقوش وكذلك الحجر الجيرى المشكل في أشكال معينة ربما تمثل أقنعة انسانية أو حيوانية وأحيانا تمثل عضو التذكير ورموز أخرى . وكانت هذه الأشكال تعلق أو تحمل بدليل وجود ثقوب فيها لهذا الغرض . ومن الأهمية بمكان الاشارة الى أن الانسان في هذه المرحلة كان ولا يزال يبحث عن الأمان في حياته ومصيره لأنه كما سبقت الاشارة الى محاولته تخصيص مكان في الموقع الأثرى كمركز له اعتباره في مجال اعتقاداته ، فقد اتجه أيضا اعتقاده الى محاولة زيادة التقرب من هذه القوى الخفية المتحكمة في حياته وحياة البيئة المحيطة به فبدأ يصور بعض مشاعره في أشكال حيوانية أو انسانية تعبر عن بعض مفاهيمه الأولى كمحاولة منه للوصول الى الأمان والأطمئنان ورضاء هذه القوى الخفية عنه ، وأيضا التخلص من النواحى الشريرة وابعادها عن مجالات حياته ، ولذلك شكل مشاعره في صورة أقنعة تحميه من هذه النواحى الشريرة . وهذا اتجاه في الاعتقاد قد استمر في المراحل التالية أثناء العصر التاريخى ، فقد عثر فعلا في بعض المواقع الأثرية القرطاجية على أقنعة تؤدى هذه الوظيفة الاعتقادية في تجنب الانسان النواحى الشريرة التى تهدد حياته . وهذه الأمثلة الأولى من الاعتقاد سرعان ما تتطور وتتجسم بصورة أكثر وضوحا في المراحل الحضارية

التالية وبصفة خاصة في العصر الحجرى الحديث . ولم يقتصر هذا الجانب الفكرى على هذه النواحى بل لقد بدأ انسان هذه المرحلة في التعبير بالرسم عن أفكاره واستخدام بيض النعام كزجاجات ماء زينها برسوم هندسية . كما بدأ من ناحية أخرى النقش على الصخر فقد حفر بعض الرسومات الحيوانية على الصخر .

والواقع أن هذه الرسومات لها وظيفتها التعبيرية ، وتعتبر مرحلة أساسية في تطور التعبير الانسانى في المراحل الحضارية الى أن يصل الى مرحلة التعبير بالكتابة في بداية العصر التاريخى . كل ذلك يبين تقدم الانسان في هذه المرحلة الحضارية في المجالات المادية والفكرية تقدما ملموسا يمهد لنقلته نحو " ثورة " انتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث .

مرحلة العصر الحجري الحديث

تعتبر هذه المرحلة من أخطر المراحل الانسانية لأنها تمثل نقلة هامة وحاسمة في حياته وهى النقلة من الجمع والالتقاط والتجول وعدم الاستقرار الى الانتاج والاستقرار المادى والفكرى لأول مرة في حياته . ولذلك يتجه العلماء الى اعتبار المرحلة السابقة مباشرة لهذا العصر بمثابة " ثورة" أو تغيير حاسم في حياة الانسان . ولا تقل هذه الثورة عن مراحل خطيرة أخرى مثل توصله الى استخدام القوة البخارية في القرن الثامن عشر الميلادى وتوصله الى قوة الطاقة الذرية في القرن العشرين الميلادى . وقد ثبت من البحث والتحرى الدقيق لتراث الانسانية أولوية منطقة الشرق الأدنى القديم وبصفة خاصة في مصر والعراق وفلسطين في التوصل الى مرحلة انتاج الطعام والزراعة والاستقرار لأول مرة في تاريخ الانسان وذلك لأسباب كثيرة يعتبر العامل البيئى بظروفه الخاصة من أهمها . وقد عثر فعلا في هذه المنطقة على المواقع الاثرية الدالة على انتاج الطعام مثل مرمدة بنى سلامة وقرى الفيوم أ وحلوان العمرى ودير تاسا في مصر ، ومواقع مولافات وتل جارمو وتل حسونة في شمال العراق وجريكو (اريحا) في فلسطين والعمق في شمال سورية وتل باكون وسيالك وغيرها في الهضبة الايرانية ،حيث تمكن الانسان في كافة هذه الاماكن من التوصل الى الزراعة وتخزين المحصول الزراعى وانشاء المنازل الخاصة بسكناه والطرق الموصلة اليها وكذلك المنازل الخاصة بموتاه أى المقابر وكذلك المنازل الخاصة بالهته أى المعابد لأول مرة في تاريخ الانسانية . فقد تطورت حياة الانسان تطورا حاسما في المجالات المادية والفكرية نتيجة تحكمه في البيئة وفهمه الصادق للمقومات البيئية وربط حياته بمختلف مجالاتها بهذه الظواهر البيئية التى خلقت لديه الوعى والادراك لتفهم الحياة الزراعية والتوصل الى صناعة الزراعة بدلا من اعتماده على الثمار البرية في مرحلة جمع الطعام .

وقد اختلفت ظروف الانسان في المغرب القديم اختلافا كبيرا عن ظروفه في المشرق القديم وذلك لأن البيئة المغربية بطبيعتها الجغرافية الخاصة قد وجهت الانسان المغربى القديم الى طابع آخر في مجال تطوره الحضارى .

فبينما كان الطابع المميز للعصر الحجرى الحديث في الشرق الأدنى القديم هو الزراعة يجد الباحث أن الرعى هو الطابع المميز لهذه المرحلة في المغرب بجانب بعض مظاهر الانتاج الزراعى المحدود وذلك لأن طبيعة الأقاليم المغربية تتفق في ذلك الوقت مع حياة الرعى أكثر من اتفاقها مع حياة الزراعة المستقرة التى تتطلب جهودا شاقة في التحكم في القوى المائية لصالح حياة انتاج الطعام . ولذلك يلاحظ الباحث أن العصر الحجرى الحديث في المغرب قد تأخر من الناحية الزمنية عن نظيره في الشرق الأدنى القديم فبينما يبدأ في المشرق في حوالى منتصف الألف السادس ق.م. فهو يبدأ في المغرب حوالى منتصف الألف الخامس ق.م. وبينما يستمر في المشرق حتى منتصف الألف الرابع ق.م. حيث يبدأ عصر الحجر النحاسى وما يليه من عصور ما قبل وقبيل الاسرات والعصر التاريخى نجد الباحث أن العصر الحجرى الحديث يستمر في المغرب حتى حوالى ١٢٠٠ ق.م. بل يستمر في بعض المناطق الداخلية حتى العصر الرومانى . ويرجع ذلك الى الصعوبات البيئية الأرضية والمائية التى تزيد من مجهود الانسان في محاولة تحكمه فيها وتتطلب وقتا أكثر في هذا الصدد .

وقبل الاحاطة بالتطورات الحضارية في هذه المرحلة في المغرب تنبغى الاشارة الى أن النقلة من مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى الى مرحلة العصر الحجرى الحديث لم تكن فجائية بل تدريجية كما سبقت الاشارة الى مراحل الانتقال في العصر الحجرى القديم باقسامه . ولقد كان للتطورات الحضارية التقدمية في العصر الحجرى القديم الأعلى أثرها في التمهيد نحو هذه النقلة . وتنبغى الاشارة الى أن هذه النقلة في الشرق الأدنى القديم قد ظهرت في الحضارة النطوفية نسبة الى وادى النطوف في فلسطين حيث عثر على المناجل التى يغلب استخدامها لتقطيع النباتات البرية ، ثم تطورت وظيفتها الى استخدامها في قطع النباتات المزروعة . ويلاحظ أنه قد عثر في المغرب أيضا على بعض الأجران التى

كانت تستخدم لطحن المغرة في العصر الحجرى القديم الأعلى ..مما يساعد على التطور نحو الانتقال الى مرحلة الاستقرار والرعي والزراعة . ويلاحظ أيضا في آثار مرحلة الانتقال هذه استمرار استخدام الأدوات الحجرية الخاصة بعصر جمع الطعام لأن عمليات الصيد والالتقاط قد استمرت فترة من الزمن رغم بداية التوصل الى الاستقرار .

وقد قام العلماء بالبحث عن آثار العصر الحجرى الحديث في المغرب وقد ثبت توصل الانسان في هذه المنطقة الى الاستقرار والزراعة ، ففي منطقة الجبل الأخضر في برقة عثر في موقع هوافتيح على آثار هذه المرحلة الحضارية مثل الأواني الفخارية . وتعتبر صناعة الفخار من أهم الأدلة الأثرية التي تثبت توصل الانسان الى الاستقرار والزراعة والانتاج لأن الانسان المستقر قد شعر بحاجة ماسة الى تخزين طعامه وشرابه ونجح في التأقلم مع البيئة واستغلالها الى أبعد مدى فشكل من الطين أواني مختلفة الاحجام لتحقيق وظائف التخزين وحفظ حاجياته المختلفة ولذلك صنع الفخار لأول مرة في حياته في العصر الحجرى الحديث . وقد طبقت طريقة الكربون المشع ١٤ على آثار الطبقة الأخيرة في موقع هوافتيح وأرخت نتيجة لذلك بحوالي النصف الثاني من الألف الخامس ق . م .

ويلاحظ الدارس وجود مؤثرات حضارية مصرية واضحة في هذه الآثار الليبية فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم أ وبين فخار هذا الموقع وكذلك يظهر ذلك في الصناعات الحجرية مثل رؤوس السهام ولم يعثر على جذور سابقة لهذه الصناعات في المواقع الليبية مما يؤكد حقيقة وجود هذه المؤثرات الحضارية المصرية . وتنبغى الاشارة في هذا الصدد الى أن حضارة الفيوم أ تعتبر من أقدم مراحل العصر الحجرى الحديث في مصر فهي ترجع الى منتصف الألف السادس ق . م . وهناك صلات حضارية بينها وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية مما يؤكد وجود خط سير اتصال حضارى بين منطقة شرقي ليبيا وبين وادى النيل الأدنى وبصفة خاصة منطقة الفيوم في ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الانسان .

وهناك اتجاه الى الاعتقاد أن الجذور الأولى لحضارة الانسان في مرحلة العصر الحديث في شمال أفريقيا بوجه عام ترجع في الحقيقة الى وجود الانسان في ذلك الوقت في منطقة الصحراء الكبرى وهى منطقة فسيحة ممتدة من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسى وكانت مسرحا ضخما لتجول الانسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية . وقد عثر الأثريون على عدد كبير من المواقع الأثرية في أجزاء هذه المنطقة الصحراوية الضخمة وقامت في هذا الصدد الاستاذ كاتون تومسون Caton - Thompson بدراسات وأبحاث وجمع للمادة الأثرية المنتمية لهذه المرحلة والتأكد من وجود صلات حضارية في التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الأثرية . وقرب نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى وبداية الانتقال للعصر الحجرى الحديث أى بعد بداية ظهور مراحل الجفاف الأخيرة اضطر الانسان في هذه المنطقة الصحراوية الى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه . واتجهت مجموعات من هذا الانسان نحو الشمال ، نحو برقة وتونس وبعضها اتجهه نحو الشرق نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى . وتمكن الانسان الذى انتقل الى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل الى انتاج الطعام واكتشاف الزراعة والتوصل الى الاستقرار وانشاء القرى . وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية السالفة الذكر بين حضارة الفيوم أ وبين حضارة الانسان في منطقة شرقى ليبيا على أساس امكانية انتماء كلتا . الحضارتين أصلا الى جذور وتقاليد حضارية واحدة في منطقة الصحراء الكبرى .

وفي منطقة المغرب الصميم عثر على عدد من المواقع الأثرية ذات الآثار المنتمية الى مرحلة العصر الحجرى الحديث . ومن أهم آثار هذه المواقع الأوانى الفخارية التى عثر عليها في مجموعة من مواقع الكهوف الساحلية وهى عبارة عن أوانى كروية الشكل وطويلة وبعضها يتميز بكونها ذات قاعدة مدببة

وقد زينت بعض هذه الأواني الفخارية بحزوز بجوار الفوهة وأحيانا بخطوط تعبر عن احتمالية كونها تقلد الأوعية الجلدية أو الأسبتة والسلال. ويلاحظ أن بعض هذه الأواني الفخارية لها ثقوب أو بروز جانبي. ويغلب ارتباط ذلك بطريقة حملها.

وهذه الصناعة الفخارية تعتبر من أهم الأدلة الأثرية المتمة لهذه المرحلة المستقرة. فقد شعر الانسان بحاجته الماسة الى تخزين طعامه، وشرابه واستخدام الاواني الفخارية لكافة أغراض حياته المستقرة، وقد دفعه هذا الاستقرار الناتج من توصله الى الزراعة والرعي الى استغلال البيئة المحلية ووضع الأواني الفخارية كدعامة أساسية لهذه الحياة الجديدة. وقد عثر أيضا على الأجران ومدقاتها وهي أدلة أثرية هامة أخرى تتصل بحياة الاستقرار.

هذا بالاضافة الى استمراره في استخدام الأسلحة الميكروليثية ورؤوس السهام، والأدوات العظمية. وقد بدأ يتجه الى بعض النواحي الكمالية بعد استقراره الجديد فاستخدم بعض أدوات الزينة المصنوعة من القواقع والخرز وغير ذلك.

ويحاول العلماء البحث من أصحاب هذا الاقتصاد الجديد في حياة الانسان في المغرب. هل توصل الانسان المغربي القديم الى حياة الاستقرار كتطور طبيعي ومحلي لحضارة انسان العصر الحجري القديم الأعلى أم أن هذا الاتجاه الجديد قد جاء نتيجة مجيء عناصر بشرية جديدة حاملة اليه هذه الحضارة الجديدة. يصعب على الباحث التوصل الى حل نهائي في هذا الموضوع الهام، ويغلب أن جانبي التطور المحلي والهجرة الجديدة قد تداخلا في كيان التطور الاقتصادي والحضاري في هذه المنطقة أثناء مرحلة العصر الحجري الحديث التي انتشرت في منطقة الجبل الأخضر في الألف الخامس ق.م وفي صميم المغرب حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. واستمرت حتى النصف الثاني من الألف الثاني. وقد سبقت الاشارة الى امكانية وجود جذور أصلية

لحضارة الانسان في هذه المرحلة في منطقة الصحراء الكبرى ، فقد اتجهت بعض عناصر بشرية نتيجة لجفاف هذه المنطقة نحو المغرب ، وسرعان ما تداخلت مع العناصر المحلية مكونة هذا الاتجاه الاقتصادى والحضارى الجديد . وهناك ناحية هامة أخرى وهى أن العنصر البشرى المغربى القديم الذى واجهه الرحالة والكتاب الأول الفينيقيون واليونانيون كان البربر وان العناصر المسماه بالبربرية تمتد في تحركاتها عبر الصحراء الكبرى من الشرق الى المغرب ويغلب عليها الانتماء الى عائلة اللغات الحامية المختلطة أحيانا بعائلة اللغات السامية ، وترجع أصلا الى منطقة عمان واليمن والصومال وشرقى أفريقيا ثم تحركت غربا وشمالا الى السودان الشمالى والنوبة ومنها الى الصحراء الغربية الفسيحة تحمل معها تقاليدها الحضارية ولهجاتها وفنونها المختلفة . ويصعب على الباحث تحديد الفترة الزمنية التى تحركت فيها هذه العناصر البشرية من الشرق الى الغرب ولكن مما لا جدال فيه وجودها في المغرب في مرحلة العصر الحجرى الحديث . ولا شك أن تحركات البربر قد ساعدت أيضا على دعم الصلات الحضارية بين مختلف المواقع الأثرية في هذه المرحلة لحد كبير . وتنبغى الاشارة الى أهمية هذا العنصر في تكوين جانب هام من الجوانب البشرية في الحضارات المصرية القديمة والليبية والمغربية ولا يقتصر ذلك على الجانب الحضارى بل يتضمن الجانب اللغوى ولا تزال بعض القبائل البربرية والتى تعربت تقطن في الصحراء الكبرى وبصفة خاصة في الجزائر والمغرب . ويسمى البربر أنفسهم الأمازيغ أى الاحرار .

وقد اتجه الانسان في مرحلة العصر الحجرى الحديث في المغرب الى زيادة التعبير عن أفكاره بعد أن توفر لديه الوقت والقدرة الفكرية ودقة الملاحظة ، فقام بعمل نقوش كثيرة على بيض النعام ، وعلى صخور الهضاب والجبال تعبر عن بعض مفاهيمه الاقتصادية والدينية . وتعتبر هذه الرسوم خطوة هامة في تطور قدرات الانسان التعبيرية سرعان ما تتطور الى أن تصل الى التعبير بالرموز والكتابة بالرموز والكتابة قبل بداية العصر

التاريخي . وتعتبر هذه النقوش مصدرا رئيسيا في التعرف على تفكير الانسان في هذه المرحلة . ويصعب على الباحث تأريخ هذه النقوش بدقة ولكن العثور على آثار الانسان بجوارها يساعد على تحديد هذا التاريخ . وتنتمي غالبية هذه النقوش الى مرحلة العصر الحجرى الحديث بوجه عام .

أما عن موضوعها فيغلب عليها الرسوم الحيوانية بالاضافة الى رموز يصعب على الباحث تفسيرها . ولكن لا شك أن لها مفاهيمها الخاصة لدى هذا الانسان في المغرب القديم . وهناك أمكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم على أساس تصور الانسان واظهاره تحكمه فيها ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع . فالانسان رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم فهو لا يزال يبحث عن الأمان والاطمئنان والانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله . وهناك بعض الرسوم التى تسترى انتباه الباحث مثل رسوم الكباش التى تحمل فوق روؤسها رموزا بيضاوية الشكل والتى في بعض الأحيان يوجد أمامها رجل يتميز بوجود خصلة شعر جانبية في رأسه كما يرتدى قميصا وحزاما عريضا . وهناك امكانية وجود وجه شبه بين هذه الكباش والكبش المصرى في العصر الفرعوني والذى يحمل على رأسه رمز الشمس ويمثل الاله آمون رع في الدين المصرى القديم ، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب وهران وفي برقه . ومما يلفت النظر أيضا أن موضوع خصلة الشعر الجانبية التى تميز الانسان السالف الذكر قد ذكرتها النصوص المصرية القديمة كعلامة تميز بعض الكهنة المصريين وقد جاء ذلك بصفة خاصة في نصوص التوابيت في الدولة الوسطى . وهناك رسوم أخرى تمثل بعض الشخصيات التى تشبه لحد كبير الآله المصرى بس ، هذا بالاضافة الى رسم رجل آخر قد ترك ذقنه بشكل يذكر الباحث بطريقة رسم الآله أوزير المصرى ، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب طرابلس . وتوءرخ هذه الرسوم بالفترة الممتدة من حوالى منتصف الألف الثالث حتى حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ومن الواضح أن هذه الفترة تقابل فترات هامة في صميم العصر التاريخى في مصر القديمة مما يوءكد أن هذه الرسوم قد تعبر عن أفكار

حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة . ويعتبر ذلك استمرار للصلات المصرية بين المغرب ومصر القديمة . وهناك رأى آخر يميل الى الاعتقاد بأن هذه الرسوم قد جاءت من غربى أوروبا وأسبانيا أو هى تطور من الحضارة القفصية المحلية . ولكن هذا الرأى يصعب الاستناد عليه اذا قورن بالأدلة الأثرية السالفة الذكر .

وبينما يجد الباحث أن مرحلة العصر الحجرى الحديث في الشرق الأدنى القديم قد تبعها عصر الحجر وعصور ما قبل وقبيل الاسرات مما مهد لبداية العصر التاريخى فانه لا يجد ما يناظر ذلك في المغرب القديم فقد استمرت مرحلة العصر الحجرى الحديث وبدأ العصر التاريخى بعدها حوالى ١٢٠٠ ق.م. أنظر الجدول التقويمى المرفق. ولكن هناك بعض الأدلة غير القوية التى من الجائز الاستناد عليها في امكانية القول بتوصل الانسان الى استعمال النحاس في المغرب أثناء العصر الحجرى الحديث وذلك اعتمادا على وجود بعض رسوم لخناجر يغلب كونها نحاسية .كذلك العثور على آثار نحاسية فعلا ولكن في مرحلة زمنية تالية . والواقع أن العامل البيئى كما سبقت الاشارة كان من أهم الدوافع الرئيسية في تشكيل حضارة الانسان في المغرب القديم واطالة فترات صراعه مع الطبيعة الى أن جاءت الى المغرب عناصر بشرية جديدة سامية الأصل عن طريق البحر ورست بسفنها على الشواطىء المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وبدأت عملية نقلة حضارية حاسمة لمجتمع العصر الحجرى الحديث في المغرب الى مجتمع العصر التاريخى وكان ذلك على أيدى الفينيقيين .

جدول تقريبي مقارن لحضارات مصر والمغرب
في العصور الحجري الحديث، والحجر والنحاس
وما قبل الاسرات، وبداية العصر التاريخي

الزمن	العصر	مصر	المغرب
٥٥٠٠ق٠م	الحجر الحديث	الفيوم أ مرمدة بني سلامة حلوان العمري دير تاسا	حضارات برقة حضارات برقة والقفصية
٤٥٠٠ق٠م	الحجر والنحاس	البداري	امكانية استخدام النحاس
٤٠٠٠ق٠م	ما قبل الاسرات	جرزة والعمرة ونقادة أول جرزة والعمرة ونقادة ثاني	
٣٠٠٠ق٠م	العصر التاريخي	العصر الثيني والدولة القديمة وعصر الانتقال الأول والدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني والدولة الحديثة	
١٢٠٠ق٠م		= =	العصر الفينيقي

حضارات برقة وقفصية

الباب الثالث

العصر التاريخي في المغرب القديم

يمثل هذا العصر مرحلة جديدة في تاريخ المغرب القديم تداخلت فيها العناصر المحلية البربرية مع العناصر الفينيقية المهاجرة من الشرق الأدنى القديم والسامية الأصل والعناصر اليونانية والرومانية الهندية الأوروبية الأصل والوندالية والبيزنطية في المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية الحربية والسلمية . ويلاحظ المؤرخ في خلال فترات هذا العصر التاريخي تقارب الجانب البربري مع الجانب السامي في المجالات الحضارية اللغوية والدينية أكثر من العناصر الهندية الأوروبية مما مهد نحو مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب وهي مرحلة العصر العربي الاسلامي . ويشتمل العصر التاريخي القديم على العصر الفينيقي والعصر القرطاجي متضمنا مراحل الممالك البربرية ثم العصر الروماني والوندالي والبيزنطي ويبدأ الدارس بالعصر الفينيقي .

الفصـــــل الأول

العصـــر الفينيقـــي

تعتبر مرحلة الانتقال الى بداية العصر التاريخي خطوة حاسمة في حياة الانسان لأنها تمثل بداية مرحلة جديدة سريعة التطور في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والحضارية .

وتعتبر هذه المرحلة خلاصة الجهود الانسانية الطويلة في المراحـــل السالفة . وقد نجح الانسان في وضع عدد كبير من الأدوات المساعـــدة المادية والفكرية لتحقيق أهداف حياته الجديدة واتفق العلماء علـى أن توصل الانسان في بداية تلك المرحلة الى التعبير بالرموز واختراع الكتابـة يعتبر بمثابة علامة مميزة على بداية العصر التاريخي لأن هذه الأداة التعبيرية الجديدة وهي الكتابة قد ساعدت الانسان على تسجيل حياته وتنظيم كافـة شئونه الاقتصادية والسياسية تنظيما جديدا يعتمد على التدوين والتسجـيل والتوثيق ، ولذلك اعتبر هذا العامل الفكري كخط فاصل بين مجتمعات مـا قبل التاريخ ومجتمعات العصر التاريخي بوجه عام . ولذلك تعرف أحيانـا المراحل السابقة لبداية العصر التاريخي بمراحل ما قبل الكتابة وتعرف مراحل العصر التاريخي بمراحل الكتابة والسجلات والوثائق . وهناك ظواهر أخـرى خاصة تميز بداية العصر التاريخي في مختلف المناطق . فقد سجلت وثيقـــة قائمة الملوك السومرية اعتبار ظاهرة الطوفان المحلي بمثابة علامة مميزة لبداية العصر التاريخي ونهاية عصور ما قبل التاريخ في العراق واطلقت تعبيــــر ما قبل الطوفان للمراحل السابقة لعصور ما قبل التاريخ وما بعد الطوفـان لمراحل العصر التاريخي وذلك على أساس أن ظاهرة الفيضانات الكثيرة كانت كثيرة الحدوث في العراق القديم ، لأن الانسان في ذلك الوقت كان يعمـل جاهدا لمحاولة التحكم في مياه الأنهار والروافد وكانت ظاهرة الفيضانـات تهدد حياته بصورة استدعته لتسجيل احداثها كحادثة يميز بها مرحلة هامـة في حياته . وكانت بمثابة مرحلة الانتقال من عصور ما قبل التاريخ الى العصر التاريخي . فتنبغي الاشارة الى أن الانسان القديم كان يقوم باتخاذ حوادث

معينة تؤرخ بها حوليات حياته ويطلق على كل سنة حادثة تميز تلك السنة ، وأما في مصر القديمة فكان للأحداث السياسية أثر كبير في اتخاذ احدهما كعلامة مميزة بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي ، فقد اعتبر المصريون حادثة اتحاد الشمال والجنوب والتوصل الى الوحدة السياسية في الأسرة الأولى المصرية كبداية للعصر التاريخي في مصر القديمة ، تؤرخ الأحداث على أساسها . وعلى ذلك يتبين أن بداية العصر التاريخي قد اختلفت من مكان لآخر حسب ظروف الانسان من النواحي البيئية والاقتصادية والسياسية .

وفي المغرب القديم كانت بداية العصر التاريخي بداية خاصة فقد كان البربر يعيشون في شكل قبلي مستقر ويعتمدون على الرعي والزراعة في حياتهم المنتمية لمرحلة العصر الحجري الحديث الى أن جاءت السفن الفينيقية من شرقي البحر الأبيض المتوسط ورست على مقربة من الشواطئ المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي وبدأت محاولات من الطرفين البربري والفينيقي للتفاهم والتعامل الاقتصادي لأول مرة ، ويصعب على الدارس التعرف على حقيقة هذا اللقاء الأول ولكن يمكن الاعتماد لحد معين على ما سجله الكتاب اليونان والقدماء يحمل في طياته القصص والاساطير المثيرة المحتملة الحدوث . وتعددت الرحلات والمبادلات الاقتصادية وازدادت الصلات بين الفينيقيين والبربر ويعتبر ذلك بمثابة بداية للعصر التاريخي في المغرب القديم ، لأن تعرف البربر وهم في مرحلة العصر الحجري الحديث على معالم عصر المدنية وهو العصر التاريخي يعتبر بمثابة نقلة حاسمة في حياتهم نحو بدايتهم بدورهم العصر التاريخي في المغرب القديم .

وقد تطلبت عمليات الاستيراد والتصدير والتعامل الاقتصادي بين الفينيقيين والبربر انشاء محطات ساحلية وموانئ ترسو عندها السفن لكي تستطيع تحقيق ذلك وبدأ هؤلاء التجار الفينيقيون في اختيار الأماكن المناسبة لهذا الغرض ويعتبر ذلك بداية العصر الفينيقي في تاريخ المغرب،

القديم . وقبل دراسة هذا العصر وتتبع تركته الاثرية ونتائجه السياسية والحضارية في المغرب القديم ينبغي على الدارس التعرف أولا على الأسباب والدوافع المباشرة وغير المباشرة لخروج هؤلاء الفينيقيين من مدنهم الأصلية واتجاههم نحو غربي البحر الأبيض المتوسط وتأسيسهم مدنا فينيقية جديدة على طول السواحل المغربية والاسبانية . وتتصل تلك الأسباب والمبررات اتصالا وثيقا بتاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد .

المبررات التي أدت الى خروج الفينيقيين الى غربي البحر الابيض المتوسط :

يمكن للباحث عن هذه المبررات ارجاعها الى دوافع اقتصادية وأخرى سياسية وبشرية . أما عن الدوافع الاقتصادية فهي تتصل اتصالا وثيقا بطبيعة العناصر العتيقة وظروفها التاريخية منذ بداية العصر التاريخي في منطقة الشرق القديم . فقد وصلت تلك العناصر الكنعانية الأصل الى هذه المنطقة واستقرت على الساحل الفينيقي قبل بداية العصر التاريخي وتمكنت من تأسيس عدة مدن مثل صور وصيدا وجبيل وبعض المدن الداخلية مثل أريحا وبيسان ومجدو وغيرها . وشعرت تلك العناصر منذ البداية بضرورة التجمع حول مدنها وكذلك تحصين هذه المدن بمختلف الوسائل الدفاعية للاطمئنان على حياتهم في تلك الأماكن لأنه قد تبين لهم أن منطقة الساحل الفينيقي بل والمنطقة السورية والفلسطينية لا تنعم بالهدوء الدائم بحكم موقعها الجغرافي كطريق طبيعي بين منطقة بلاد الرافدين ووادي النيل وأيضا منطقة هضبة الأناضول ، هذا بالاضافة الى مواجهتها لساحل البحر الأبيض المتوسط في جزئه الشرقي . ولذلك كانت هذه المنطقة تقع تحت تأثير كافة العوامل السياسية والبشرية والحضارية في منطقة الشرق الأدنى القديم . ومن ناحية أخرى كانت العناصر السابقة التي سكنت منطقة سورية وفينيقيا وفلسطين أي المجاورة لها لا تتسم بالوحدة رغم انتمائها الى عنصر بشري ولغوي واحد وهو العنصر السامي ، فهناك العناصر الآمورية في منطقة لبنان الداخلية وهناك العناصر الآرامية في سورية وهناك العناصر الكنعانية في فلسطين والساحل الفينيقي .

وقد نتج عدم توصلهم الى الوحدة تنافسهم على السيادة السياسية والاقتصادية . كل ذلك قد أدى الى ضرورة تأمين الفينيقيين لأنفسهم وتحصنهم في قلاعهم ومدنهم ذات الأسوار العالية للدفاع عن أنفسهم في الوقت المناسب . ويلاحظ أيضا أن الفينيقيين أنفسهم لا يميلون بطبعهم للمسائل السياسية بل يركزون نشاطهم في المجالات الاقتصادية فهم يفضلون الأمان والاستقرار السياسى حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح في عملياتهم التجارية . ويلاحظ الدارس خلال تاريخ المدن الفينيقية أنهم يقبلون دفع الجزية أمام ضغط العناصر المهاجمة حتى يتحقق لهم السلام ويتابعون نشاطهم التجارى .

تبين هذه الظواهر العامة طبيعة العناصر الفينيقية ومواجهتها لواقع موقفها وتركيز نشاطها في المجالات الاقتصادية . وعلى ذلك يلاحظ منذ بداية العصر التاريخى اتصال الفينيقيين اتصالا وثيقا مع مصر وقبرص وكريت وأيضا بلاد العراق . وقد برز الفينيقيون في هذه المجالات التجارية بصورة ملحوظة وأصبحت شهرتهم متوقعة لدى الأسواق الأجنبية ، فاتجه اليهم المصريون منذ الاسرة الأولى للانتفاع بثرواتهم الطبيعية وبصفة خاصة خشب الأرز الذى استخدمه المصريون في كافة مشروعاتهم المعمارية والعقائدية . وكذلك نجح الفينيقيون في صناعة البرونز والعاج والعظم والزجاج وقد تطلب تصنيع هذه المواد البحث عن الخامات الاصلية المتوفرة في البيئات الاجنبية . وكان ذلك أيضا من الدوافع المبررة لرحلاتهم الخارجية . وكذلك أظهر الفينيقيون قدرة فائقة في صناعة الاقمشة وبصفة خاصة المصبوغة باللون الارجوانى وقد اعتمدوا في ذلك على استخراج هذه الاصبغة الخاصة من بعض الاصداف البحرية التى عثروا عليها على ساحلهم. ولم يقتصر النشاط الاقتصادى على التصنيع السالف الذكر بل اتجهوا أيضا الى الاهتمام بالزراعة وصيد الاسماك . وقد أتاح لهم هذا النشاط الاقتصادى فرصة الاتصال الاسواق الخارجية والتعرف على الطرق البرية والبحرية مما أكسبهم خبرة فائقة وقدرة في هذا المجال . كل ذلك قد أعطى هذا المبرر

الاقتصادى أهمية خاصة في اتجاههم نحو تسويق تجارتهم والبحث عن امكانيات اقتصادية جديدة تضاعف من انتاجهم وتفتح لهم بالتالى أسواقا جديدة . واتجهوا في هذا الصدد الى منطقة الشرق الادنى القديم أى المناطق المحيطة بهم . وكذلك اتجهوا الى المناطق البحرية على أوسع مدى بحكم موقفهم الجغرافى المواجه لمنطقة حوض البحر الابيض المتوسط . وقد كان للاوضاع السياسية والبشرية أثر كبير في اعطاء الجانب البحرى من نشاطهم أهمية خاصة مما جعلهم يركزون نشاطهم التجارى قرب نهاية الألف الثانى قبل الميلاد في هذا الجانب البحرى مما أدى الى ضرورة انشاء محطات ومراكز مستقرة في المناطق التى تتجه سفنهم اليها لتكون بمثابة مناطق يستطيعون الاستقرار فيها وتحقيق أغراضهم الاقتصادية ، وأدى ذلك الى تتابع هجراتهم بصورة تدريجية وعلى مرات متعددة لتحقيق هذا النشاط الاقتصادى في هذه الأسواق والمناطق الجديدة في غربى البحر الابيض المتوسط .

أما المبرر الثانى لهذا الاتجاه نحو الهجرة الى شمال أفريقيا فهو يتركز في النواحى السياسية والبشرية في منطقة الشرق الادنى القديم في الألف الثانى قبل الميلاد وبداية الألف الأول ق.م. الواقع أنه يمكن اطلاق الصفة الدولية لحد كبير على تاريخ الشرق الادنى القديم خلال الألف الثانى قبل الميلاد وبصفة خاصة انصفه الثانى وذلك من النواحى السياسية والبشرية والحضارية فقد تميز تاريخ هذه المنطقة خلال تلك الفترة لوجود تحركات بشرية هائلة آتية من الشرق ومتجهة نحو الغرب وهى التحركات المعروفة بتحركات الشعوب الهندو أوروبية فقد بدأت هذه الشعوب تتغلغل وتتسلل الى منطقة الشرق الأدنى القديم لأسباب اقتصادية وأخرى سياسية وتدخل المنطقة من عدة جهات اما عن طريق الهضبة الايرانية أو عن طريق الالتفاف حول البحر الاسود ودخولها لمنطقة من منطقة مضيق البسفور والدردنيل ومنها الى آسيا الصغرى وقد نتج عن هذه الهجرات ظهور قوى سياسية جديدة لأول مرة في تاريخ الشرق

الأدنى القديم مثل قوة الشعوب المعروفة في التاريخ المصرى بالهكسوس والتى اختلف العلماء في محاولة التعرف على عنصرها البشرى ولكن يتجه جزء كبير منهم الى الاعتقاد بأصلهم الهندى الأوروبى المختلط ببعض العناصر السامية في منطقة سورية وفلسطين أثناء استقرارهم هناك في أريحتهم بعد ذلك الى مصر في عصر الانتقال الثانى . وأيضا مثل القوى الميتانية التى تتكون من العناصر الحورية والسوبرية وذلك في منطقة شمال وشرقى سورية في النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد . هذا بالاضافة الى قوة الدولة الحيثية القديمة والحديثة في منطقة وسط وشرقى آسيا الصغرى . وقد حاولت هذه القوى الهندية الأوروبية اكتساب السيادة السياسية والحضارية والاقتصادية في منطقة الشرق الأدنى القديم على حساب العناصر السامية التى سبقتها الى الاستقرار في هذه المنطقة . وكانت منطقة سورية وفلسطين والساحل الفينيقى من المناطق الأساسية التى تأثرت بصورة مباشرة بهذه القوى غير السامية . وأدى ذلك الى اعتكاف الفينيقيين في مدنهم المحصنة محاولين الحياة وسط هذه القوى السياسية المحيطة ببلادهم . ولم يقتصر الموقف على هذه القوى فقد كانت هناك قوى أخرى لها دورها الرئيسى في تاريخ الشرق الأدنى القديم وهى القوتين المصرية والعراقية وتتضمن الأخيرة القوى السومرية والاكادية والبابلية والكاشية والاشورية وذلك خلال الألفين الثالث والثانى ق.م. فقد حاولت كافة هذه القوى توسيع دائرة نشاطها السياسى والاقتصادى والحضارى ووصل امتدادها الى منطقة سورية وفلسطين وفينيقيا وقرب نهاية الألف الثانى قبل الميلاد ازداد نشاط الآراميين في سورية وكذلك شعوب البحر وهى عناصر أخرى تنتمى الى عائلة الشعوب الهندية الاوروبية . كما ازداد أيضا الضغط السياسى والبشرى من القوى المختلفة في المنطقة وبصفة خاصة القوى الآشورية مما كان من المبررات الدافعة الى اتجاه الفينيقيين نحو الطريق البحرى والاستقرار في المراسى الجديدة في منطقة شمال افريقيا حتى يتمكنون من تحقيق نشاطهم التجارى السالف الذكر وخاصة أن أوضاعهم السياسية الداخلية لم تؤهلهم الى تكوين دولة فينيقية متحدة بل كانوا متفرقين في مدنهم وعلى رأس كل مدينة ملكها المنتمى غالبا الى الطبقة الثرية .

وتجدر الاشارة الى حدوث بعض اتحادات سياسية بين المدن الفينيقية أثناء بعض الازمات ولكن هذه الاتحادات لم تكن من القوة التى تكفل لها الوقوف كدولة صامدة أمام القوى السياسية الأخرى المحيطة بها .

وقد اتجهت بعض هذه الدويلات الفينيقية الى الاستعانة بمصر الفرعونية ضد بعض القوى السياسية الاخرى مثل القوى الحيثية كمحاولة من ناحيتها للصمود أمام محاولات الحيثيين في التغلغل في المنطقة السورية . وتنبغى الاشارة في هذه الصدد الى أن العلاقات الفينيقية المصرية كانت تتسم بالطابع الاقتصادى والحضارى بصورة خاصة ويمكن ارجاع ذلك من الناحية التقويمية الى مرحلة الدولة القديمة والدولة الوسطى ولا تزال نصوص أونى وسنوهى تشهد بهذه الصلات الحضارية والاقتصادية بين مصر وفينيقيا .

وعلى ذلك فتاريخ الشرق الادنى القديم في الألف الثانى ق . م . مزدحم بهذه الصورة الدولية في المجالات السياسية والحضارية وتأييدا لذلك قد أصبحت اللغة الاكدية وخطها المسمارى بمثابة اللغة الدولية في المنطقة في ذلك الوقت وحتى في مصر الفرعونية قد استخدمت هذه اللغة في عصر تلك المعارنة .

وعلى ذلك يمكن القول أن هذه المبررات الاقتصادية والبشرية وكذلك الطبيعية والبيئية كانت لها فاعليتها العامة في دفع العناصر الفينيقية الى الخروج نحو غربى البحر الأبيض المتوسط وتأسيس مراكز فينيقية على الساحل المغربى . ولكن كانت هناك مبررات أخرى مباشرة في هذا الصدد اتخذت مظهرا قصصيا كما رواها الكتاب اليونان ، وتتصل هذه القصص بعملية تأسيس المراكز ذاتها وبعض الحوادث التى حدثت أثناء هذه المرحلة .

عملية تأسيس المراكز الفينيقية في غربي البحر الابيض المتوسط :

اتجه العلماء الى الاعتقاد بأن مدينة صور Tyre كان لها الدور الأول في عملية تأسيس المراكز الفينيقية في غربي البحر الأبيض وذلك على أساس أن الزعامة السياسة والحضارية قد انتقلت الى تلك المدينة قرب نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق.م. ولكن هذا الرأي ينبغي اعادة النظر فيه لأنه من الصعب التيقن من أن هذه الهجرة الفينيقية قد اقتصرت على مدينة صور، فعلى الرغم من تعرض المدن الفينيقية الى هجمات شعوب البحر وكذلك الضغط الأشوري فان ظروف العناصر الفينيقية في هذه المدن بوجه عام متشابهة رغم تفاوتها في السيادة السياسية . وعلى ذلك يمكن القول بامكانية اشتراك عناصر فينيقية أخرى مع الصوريين في الاتجاه نحو المغرب . وهناك تقليد يتجه الى القول أن تأسيس مدينة صور كان حوالي ١١٩٤ ق.م. وذلك على أثر انتصار ملك عسقلان على مدينة صيدا مما دفع أهل صيدا الى الاتجاه الى تأسيس مدينة صور التى تتميز بجزيرتها المواجهة للشاطيء الفينيقي مما يجعلها في حماية طبيعية لحد ما ازاء التدخلات المباشرة ،ولكن هذا التقليد ينبغى اعادة النظر فيه لأنه من الصعب اعتبار هذه المدينة الفينيقية الأصل ترجع الى هذه التأريخ المتأخر زمنيا في عملية تأسيسها وعلى ذلك يمكن اعتبار تأسيسها يرجع الى مرحلة أكثر قدما من هذا التاريخ السالف الذكر، ومن الجائز كون هذا التاريخ يمثل مرحلة هامة في تاريخ هذه المدينة ومن الأهمية بمكان الاشارة الى ضرورة الاحتياط في تقبل التقويمات الزمنية التى سجلها الكتاب اليونان والرومان بالنسبة الى البلاد الأجنبية لعدة أسباب ، منها وجود اتجاهات اقتصادية وسياسية معينة تدفع هؤلاء الكتاب الى اتجاهات خاصة في كتاباتهم التاريخية . هذه بالاضافة الى أن نشاط الكتاب اليونان الفعلى في الجانب التأريخى يتأخر نسبيا من الناحية الزمنية الى حوالى بداية الألف الأول ق.م.

وعلى ذلك فيغلب اعتبار مدينة صور رائدة رمرحلة الهجرة نحو الغرب قرب نهاية الثاني ق.م. وكان لموقع مدينة صور منذ البداية اتصالا بالنشاط

البحرى بحكم كونها جزيرة تستوجب الحياة فيها مداومة الاتصال البحرى. وكان الصوريون يعتمدون على مختلف أنواع الخشب اللازم لبناء السفن والمجاذيف الخاصة بها كما يتجهون الى الاعتماد على أشرعة السفن من مصر .

أما عن الحادثة الشهيرة التى روتها القصص بالنسبة لهجرة العناصر الفينيقية فتتلخص في شخصية الأميرة اليسا Elissa أخت الملك بيجماليون Pygmalion ملك صور التى اتجهت الى الزواج من خالها Acherbas أشرباس وهو أحد كهنة ملقارت ، وقد أغضب ذلك أخوها الملك بيجماليون وأمر بقتل هذا الكاهن مما دفع اليسا الى الهجرة ، واشترك معها عدد من أهل صور المعارضين لبيجماليون واتجهت في هجرتها الى جزيرة قبرص حيث انضم اليها هناك أحد كهنة الآلهة عشتارت Asterte واشترط أن تكون له ولعائلته أولوية في كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة وأن يكون ذلك وراثيا في أسرته ، كما أنضم اليها أيضا ثمانون عذراء كانوا أصلا للبغاء المقدس، كل ذلك لضمان استخدام المراكز الجديدة . وقد اتجهت هذه الهجرة الفينيقية الى منطقة الساحل الافريقى المغربى . وانتهت هذه القصة بانتحار الأميرة الفينيقية اليسا على أثر طلب رئيس البربر الزواج منها . وكان يطلق أحيانا على اليسا اسم ديدو Dido وهو اسم غير فينيقى . وينبغى على المؤرخ التوقف عند هذه القصة والتردد بصدد الاعتراف بكافة تفاصيلها لأنه قد كتبها الكتاب اليونانيون ، وكما سبقت الاشارة فمن الضرورى اعادة النظر ازاء كتاباتهم الخاصة بالفينيقيين ، ولا يمنع ذلك من امكانية حدوث بعض احداث هذه القصة . ومن الأهمية الاشارة الى مصدر تاريخى ثان وهو ما سجله المؤرخ اليهودى يوسفوس Josephus الذى كتب في القرن الأول الميلادى نقلا عن آخرين أنه في السنة السابعة من حكم بيجماليون أسست أليسا مدينة قرطاج . وعلى ذلك فهناك عنصر تاريخى سليم يتعلق بارتباط هذه الأميرة مع عملية تأسيس قرطاج بعد استبعاد العناصر القصصية التى من المحتمل كونها غير جديرة بالواقع . وموضوع الأساطير والقصص معروف في التراث القديم سواء كان

في المجالات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهو طريف من حيث تقبل الجموع الشعبية واستساغتها له ، ويبقى على الباحث تحرى الدقة في استنباط الحقائق من هذه الأساطير . كما أنه يلاحظ وجود أساطير كثيرة تتصل بالشخصيات البارزة وعمليات تأسيس المدن الهامة وكذلك الأحداث الرئيسية وذلك لأن الكتاب القدامى أرادوا لفت الانتباه الى أهمية هذه المسائل وقاموا بتسجيلها في صورة شعبية تجمع بين الواقع والخيال .

أما عن الزمن الذى حدثت فيه عملية تأسس هذه المراكز الفينيقية فيعتمد الباحث فيه على المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية وكذلك على الأدلة الأثرية . ومن الجدير الاشارة الى وجود تعارض واضح بين كلا المصدرين في هذا الشأن ، فبينما المصادر الكلاسيكية تشير الى أن مدينة قادس أسست سنة ١١١٠ ق٠م٠ وأوتيكا سنة ١١٠١ ق٠م٠ وقرطاج سنة ٨١٤ ق٠م٠ وذلك على أساس اعتبار بعض التواريخ اليونانية أساسا تقاس عليه التقويمات الزمنية للاحداث الأجنبية فقد سبقت الاشارة الى عدم دقة هذه التقويمات الزمنية التى الحقها الكتاب اليونان بالنسبة لتاريخ العناصر الأجنبية . وأما عن التواريخ اليونانية الثابتة فهى تاريخ سلب طروادة سنة ١١٩٤ ق٠م٠ وبداية الاحتفال بالألعاب الأولمبية سنة ٧٧٦ ق٠م٠ وعلى ذلك يعتبر من الضرورى اعادة النظر في الازمنة الخاصة بتأسيس كل من قادس وأوتيكا . أما بالنسبة لمدينة قرطاج فقد اتفق العلماء على قبول تاريخ تأسيسها وهو ٨١٤ ق٠م لتأكيد مختلف الكتاب هذه الحقيقة على اعتبار بأن هذا التأسيس كان قبل بداية الألعاب الأولمبية بمدة ثمانية وثلاثين عاما .

أما عن المصادر الأثرية فقد قام العلماء بالبحث والتنقيب عن أقدم الآثار الفينيقية في مختلف المواقع في الساحلين الأفريقى والأسبانى . وثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الاصل في تلك المناطق قبل حوالى ٧٥٠ ق٠م٠ وعلى

ذلك هناك تعارض واضح بين الجانبين الكلاسيكي والأثري . ولكن من الجائز امكانية العثور على آثار فينيقية تلقي بعض الضوء على هذه المشكلة . ولا تزال عمليات الحفر والتنقيب مستمرة في المواقع الأثرية لاستكمال هذه الثغرات في تاريخ تلك المنطقة في العصور القديمة . وقد اعتمد الأثريون في دراستهم التقويمية لهذا الموضوع على الفخار الفينيقي الذى وجد في المقابر القرطاجية الأولى والتى نجت من عملية الافناء الرومانى لمدينة قرطاج وهى عاصمة الدولة القرطاجية . وقد وجد مع هذا الفخار فخار يونانى وجمارين وتمائم مصرية قديمة . وعلى ذلك أمكن بالدراسات المقارنة التعرف على زمن هذا الموقع الأثرى بالاضافة الى استخدام الطرق التقويمية الأخرى في هذا الصدد . ومن المراكز الهامة التى كانت من أقدم المواقع الأثرية والتى عثر فيها على هذا الفخار الفينيقى الأول هو موقع سالمبو حيث عثر على معبد الالهة تانيت Tanit ووجدت فيه الأوانى الفخارية الفينيقية التى احتوت على بقايا عظام الأطفال المضحى بهم لأجل اكتساب رضاء هذه الآلهة .

وقد اتجه هؤلاء الفينيقيون المهاجرون الأول نحو الساحل الافريقى المغربى يبحثون عن أماكن يستطيعون أن يرسوا عليها سفنهم وينزلون بها بضائعهم حتى يتمكنون من تحقيق أغراضهم الاقتصادية . ويصعب على الباحث في هذه المرحلة الأولى من تأسيس المراكز الفينيقية في غربى البحر الابيض المتوسط التعرف على كيفية حدوث عمليات التأسيس الأولى ، ولكن مما يستوجب الاشارة الى أن هذه العمليات لم تكن من الصعوبة بمكان من ناحية مواجهة الفينيقيين للعناصر البربرية . ولا يعنى ذلك انعدام وجود اشكالات في هذا الصدد . ولكن تحقيق البربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحتة كان من العوامل الرئيسية في تقبلهم لهم . ولكن الاشكالات البيئية كانت من الصعب التغاضى عنها وخاصة أن استخدام الطريق البحرى يستوجب توفر الموانى والارصفة المناسبة لعمليات رسو السفن . ولا شك أن استكشاف الفينيقيين للاماكن المناسبة لتحقيق هذا الغرض قد استغرق بعض الوقت الى أن تبين

لهم أن السهول الواقعة في شمال تونس تعتبر من أنسب الاماكن لتأسيس مراكزهم الأولى أكثر من السواحل الصخرية في المناطق الأخرى، ولذلك احتلت منطقة قرطاج المرتبة الأولى بين المراكز الفينيقية منذ البداية. هذا بالاضافة الى أهمية موقعها الجغرافي القريب نسبيا من الوطن الأصلي بالمقارنة بالمراكز الأخرى البعيدة. كما أن طبيعة موقع قرطاج تسمح بالتوغل لحد ما في الداخل أكثر من المراكز الأخرى حيث تعوق الجبال والهضاب دون تحقيق ذلك بسهولة نسبية.

وقد استمرت عملية التأسيس والهجرة والانتقال بصورة تدريجية ومتتابعة مما أدى الى بداية عصر جديد في تاريخ المغرب القديم وهو العصر الفينيقي.

ويعتبر العصر الفينيقي في المغرب عصرا مكملا للتاريخ الفينيقي في المشرق، فهو كما سبقت الاشارة يمثل مرحلة توسع اقتصادى خارجى في ميادين جديدة على فينيقى المشرق. ويلاحظ الدارس أن تلك المحطات التجارية التى اختار مواقعها الفينيقيون في المغرب محطات ساحلية أو قريبة من الساحل أى أنهم لم يتوغلوا في الداخل كثيرا. وقد ظل هذا الاتجاه واضحا في تاريخهم حتى بعد استقلالهم عن المشرق وتأسيسهم الدولة القرطاجية. فقد كانت تلك المحطات عبارة عن مراسى أو موانى صغيرة لاستقرار السفن الفينيقية لاغراض التموين بالماء والزاد وكذلك نقل المواد الخام وتصدير المصنوعات المشرقية الفينيقية والمصرية وأيضا اليونانية. ولذلك يلاحظ أن مواقع تلك المراسى كانت عبارة عن الجزر متاخمة للساحل مثل موقع قادس الذى يعتبر من أقدم المحطات التجارية الفينيقية في غربى البحر الأبيض المتوسط، أو بروز طبيعى ساحلى يصلح أن يكون بمثابة حاجز للامواج مما يسهل رسو السفن في مأمن من العواصف البحرية، وأحيانا يقوم الفينيقيون بايصال الجزر القريبة بالشاطئ وبذلك تتكون الموانئ والخلجان المناسبة للاغراض التجارية وكذلك يقيمون الأرصفة والمخازن وكانت

احتياجات الموانئ . وهناك اختلاف بين العلماء عن أقدم تلك المواقع الفينيقية الأولى في غربي البحر الأبيض المتوسط ، ولكن من الممكن القول بأن المواقع البعيدة الكائنة في أقصى الغرب قد بدأ الفينيقيون في اقامتها قبل المواقع المتوسطة لحوض البحر الأبيض المتوسط . وذلك لأن الغرب وبصفة خاصة شبه جزيرة ايبيريا كان الهدف الأول لرحلات الفينيقيين وذلك لوجود الموارد الخام وبصفة خاصة القصدير والرصاص بوفرة في أسبانيا وفي منطقة تارتسوس Tartesos في جنوب غربي أسبانيا وهي التي سمتها نصوص العهد القديم تارشيش . وكذلك اتجه الفينيقيون الى جزر البليار وبصفة خاصة ابيزا Ibiza وأيضا غربي جزيرة صقلية ومالطة وسردينيا . وكذلك استقر الفينيقيون في مواقع ساحلية على الساحل الافريقي وداخلية لحد ما ابتداء من لبدة الكبرى وطرابلس حتى المغرب متضمنا ساحل افريقيا الغربي حتى على الأقل جزيرة الصويرة في المغرب ، وعلى رأس تلك المواقع قرطاج وليكسوس وتمودة ، ويعتمد المؤرخ في التعرف على هذه المواقع الأولى من نتائج الحفائر للطبقات الأثرية الاولى التالية لمرحلة العصر الحجرى الحديث المتميزة بالفخار المنتمى لها ، وتعتبر طبقات هذه المواقع بمثابة سجل عينى لعصور التاريخ المغربى القديم .

ويغلب أن تأسيس المراكز الفينيقية في المغرب قد تم حوالى القرن الثامن ق . م . وعلى ذلك يكون العصر الفينيقى قد استمر من ذلك الوقت حتى منتصف القرن ٦ ق . م . حيث بدأت الدولة القرطاجية في الوقوف على قدميها كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق . ولو أن بداية العصر الفينيقى من الناحية التقليدية كما سبقت الاشارة ترجع الى نهاية الألف الثانى ق . م . ولقد كان العصر الفينيقى في المغرب عصر استكشاف اقتصادى أكثر منه مرحلة سياسية وهو من تلك الناحية الأخيرة يعتبر تابعا لحكومات المدن الفينيقية المشرقية وبصفة خاصة مدينة صور ولقد ظل هذا الارتباط والالتزام الضريبى والحضارى كائنا لحد كبير حتى بعد استقلال هذه المراكز الفينيقية عن المشرق وبداية العصر القرطاجى .

ومن الظواهر الهامة التي تميز العصر الفينيقي منافسة اليونانيين الشديدة لهم في المجال الاقتصادي. وهناك اعتقاد بأن اليونانيين قد سبقوا الفينيقيين في انشاء المراكز التجارية في غربي البحر الأبيض المتوسط ولكن يغلب أن عملية الانشاء هذه كانت في وقت متقارب وقد حدث أحيانا أن استقرت العناصر اليونانية في منطقة ثم تمكن الفينيقيون من الاستحواذ على السيادة الاقتصادية فيها بعد ذلك وبذلك انتقلت الى حوزتهم. وعلى الرغم من هذه المنافسة الاقتصادية فقد سادت العلاقات السلمية بين الجانبين لحد كبير باستثناء عمليات القرصنة التي كانت تقوم بها بعض الجماعات من كلا الطرفين بحثا عن الثروة بطريقة غير مشروعة. ولقد شملت التجارة الفينيقية الكثير من الصناعات اليونانية رغم هذه المنافسة. وتنبغي الاشارة في هذا الصدد الى أهمية الدور الفينيقي في الحضارة اليونانية وبصفة خاصة في التعرف على الأبجدية، فقد اعترف اليونانيون بفضل الفينيقيين في هذا الشأن مما كان له أثره البالغ في تيسير تحقيق العمليات التجارية، لأن وجود وسيلة الاتصال السهلة يساعد على تسهيل اجراءات تلك العمليات. ولقد عاون نظام المقايضة على توسيع نطاق المبادلات التجارية لما في هذا النظام من مميزات عينية تساعد على أداء الشراء والبيع في عمليات مباشرة. وفي صميم المغرب تبادل البربر مع الفينيقيين الأول النشاط التجاري في سلام مما ساعد على تدعيم العلاقات البربرية الفينيقية ليس فقط في المجال الاقتصادي ولكن أيضا في المجال الحضاري. لقد بدأ البربر يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية والتجارية الجديدة مما دعم قدراتهم الحضارية وساعد على تطويرهم. وكذلك تأثر الفينيقيون بالبربر وتقاليدهم وعقائدهم، وهذه الظواهر سرعان ما تصل الى قمتها في أثناء العصر القرطاجي، وكذلك سادت العلاقات التجارية السلمية بين قرطاج وأوتيكا من ناحية ومصر من ناحية أخرى عن طريق برقة التي استقرت فيها بعض العناصر اليونانية قرب نهاية القرن السابع ق.م.

وقد بدأت العلاقات الفينيقية اليونانية في التطور من الاطار السلمى الى الاطار الحربى على اثر ازدياد المنافسات التجارية والسياسية . وقد ظهرت بوادر ذلك في جزيرة صقلية التى جمعت بين الجانبين اليونانى والفينيقى . وقد بدأت تلك المشاحنات بين الطرفين في بداية القرن السادس ق.م. ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الضغط الآشورى والبابلى والكلدانى . وهنا بدأت مدينة قرطاج تحتل مكان الزعامة وعملت على تحقيق تلك الحماية . ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت قد بدأت فعلا الدولة القرطاجية في التواجد كقوة سامية جديدة في غربى البحر الابيض المتوسط وذلك منذ حوالى منتصف القرن السادس ق.م. ولم يقتصر هذا التهديد اليونانى على جزيرة صقلية بل لقد ظهر أيضا على الساحل الليبى في طرابلس حيث استقرت بعض العناصر اليونانية وحاولت أيضا منافسة القرطاجيين ، وذلك غير القوة الفارسية الهائلة التى وصلت سيادتها الغربية حتى مصر في عهد الملك الفارسى قمبيز الثانى سنة ٥٢٥ق.م. والتى حاولت التحرش غربا بالمراكز الفينيقية وعلى رأسها قرطاج ولكن البحارة الفينيقيون في الأسطول الفارسى امتنعوا من تحقيق هذا الغرض وبذلك تخلص الفينيقيون من عنصر جديد قوى كان من أشد الأخطار التى تهدد تواجدهم في تلك المنطقة .

أما عن كيفية الانتقال من هذه المرحلة الفينيقية الى المرحلة القرطاجية المستقلة فقد تم ذلك على يد أسرة فينيقية في مدينة قرطاج هى الأسرة الماجوية نسبة الى زعيمها وأسمه ماجو وكان قائدا للجيش . وتنبغى الاشارة في هذا الصدد أن ظاهرة الأسر كانت سائدة في هذا المجتمع بسبب العامل الاقتصادى حيث استحوذت الأسر الثرية على السلطان وأصبحت لها الزعامة في ذلك الوقت . وقد تمكن ماجو من انشاء جيش قرطاجى قوى من الجنود المرتزقة من كافة العناصر الليبية أى البربرية الذين كانوا يعملون كمشاة في الجيش وكذلك العناصر البربرية النوميدية الذين تميزوا بقدراتهم

في مجال الفروسية وأيضا العناصر الغالية وغيرها . ولم يتردد اليونانيون في الانخراط في صفوف الجنود المرتزقة في الجيش القرطاجي . ولكن كان لهذه القوة العسكرية المأجورة خطورتها في كافة الجوانب التنظيمية والتكتيكية والقومية . وكانت هناك اشكالات دفع الأجور واحتمالية قيامهم بتذمرات داخلية بسبب تأخر دفع الأجور . ومن ناحية أخرى اتبعت قرطاج سياسة عقد المحالفات السياسية مع بعض القوى المتاخمة لها مثل الاتروريين في شبه الجزيرة الايطالية . هذا بالاضافة الى قيام تلك المدن الفينيقية بعمليات تحصينية قوية للدفاع عن كيانها مثل بناء الاسوار والحصون والثكنات وكذلك تجهيز الجيش بالمعدات والموءن وأيضا توفير السفن اللازمة للاسطول القرطاجي . وقد عثر في الحفائر في الكثير من هذه المواقع الفينيقية على آثار هذه التحصينات الدفاعية .

وبذلك بدأت مرحلة جديدة أقرب الى الصفة السياسية منها للاقتصادية وهي مرحلة العصر القرطاجي . ازدادت فيها الصلات الفينيقية البربرية وانتقل فيها المغرب من الاطار المحلي البحت الى صميم معترك التطورات السياسية الدولية في حوض البحر الابيض المتوسط .

الفصـــل الثانـــى

العصر القرطاجى فى جانبـه السياســى

المرحلة الأولى

يمتد العصر القرطاجى من الناحية الزمنية من حوالى منتصف القرن السادس ق.م. الى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م. وبالتحديـد سنة ١٤٦ ق.م. ولا يعتبر هذا العصر من أهم مراحل التاريخ المغربـى القديم فحسب، بل من أهم مراحل التاريخ الأفريقى، وتاريخ حوض البحـر الأبيض المتوسط. وقبل دراسة النظام السياسى القرطاجى والتاريــخ السياسى والحضارى فى هذا العصر والذى يتضمن جوانب الصراع السياسى العنيف مع القوتين اليونانية والرومانية وموقف البربر والممالك البربرية مـن هذا الصراع الدولى الكائن فى الأرض المغربية وفى حوض البحر الابيـض المتوسط، ينبغى التعرض الى تلك المدينة العاصمة التى قادت هـذه المرحلة التاريخية الحاسمة وهى مدينة قرطاج. فقد احتلت تلك المدينـة منذ بداية هذا العصر دور الزعامة التاريخية السياسية والحضارية للدولـة القرطاجية، ولذلك فهى تعتبر نموذجا للحياة السياسية والحضارية فى تلك الفترة. وعلى الرغم من قلة الآثار التى تخلفت بعد عملية الافناء الرومانـى للمدينة فقد نجت بعض المقابر والمعابد وغيرها من الآثار التى ساعدت على القاء بعض الضوء عن تاريخ هذه المرحلة.

قرطاج العاصمة :

لقد كان المؤرخ Appian صادقا ومعبرا بدقة فى القرن الثانـى قبل الميلاد عن وصفه لمدينة قرطاج، حيث قال عنها أنها أشبه ما تكـون بالسفينة الراسية لأنها قد بنيت فى شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحيـة وبالبحيرتين من ناحية أخرى مما يجعل وجهتها بحرية أكثر منها بريـــة افريقية. وتعتبر قرطاج نموذجا للمدينة القرطاجية والتى تعبر عن التفكير القرطاجى والحياة القرطاجية والنشاط السياسى والاقتصادى فى العصـر.

وتتضمن هذه المدينة العظيمة كافة الجوانب النشاط الحضرى مثل الجوانب التجارية والحربية كآثار الميناء والاسوار والاستحكامات والسوق وآثار الجوانب السياسية والدينية كالساحة والمبانى الرسمية والمعابد ، وكذلك آثار الجوانب المدنية كالمنازل والجبانات وغيرها . ويمكن اعتبار الموانىء بمثابة أهم المناطق في المدن القرطاجية لاتصالها اتصالا وثيقا بالهدف الاقتصادى البحرى الذى اتجه القرطاجيون الى تحقيقه . ولكن يلاحظ أن الموانىء القرطاجية كانت مأقل مساحة من الموانى اليونانية والرومانية . ولقد فرق المهندس القرطاجى في تخطيطه للمدينة بين ميناء خاص بالاغراض التجارية وآخر خاص بالاغراض الحربية ، فقد كان هناك الميناء التجارى المستطيل الشكل والميناء الحربى المستدير الشكل والذى تتوسطه جزيرة عليها قيادة الاسطول القرطاجى وتقع آثار هذه الموانىء الآن شمال جون الكرم بين سالمبو ودرمش. هذا وقد جهزت هذه الموانىء بالأرصفة اللازمة لرسو السفن كما خصصت أماكن معينة لها . وقد استكملت تلك الموانىء استعداداتها الخاصة بعمليات فتح واغلاق تلك الموانىء بواسطة السلاسل الحديدية ، وكذلك الطرق المؤدية اليها والكبارى الموصلة بين بعض مناطقها .

ومن أهم منشآت تلك المدينة المرتبطة ارتباطا كبيرا بغاياتها الاقتصادية والسياسية المنشآت التحصينية الدفاعية . وعلى رأسها بناء الاسوار والخنادق والأبراج العالية . وتصل تلك الاسوار في طولها الى حوالى أربعة وثلاثين كيلو مترا وفي ارتفاعها الى ثلاثة عشرة مترا وفي سمكها الى تسعة أمتار وترجع من الناحية الزمنية الى حوالى القرن الخامس ق.م. ولم تقتصر تلك الاسوار على مجرد حماية المدينة من مختلف التسللات والأخطار التى تهدد أمنها ولكن يلاحظ أيضا أن هذه الأسوار كانت من الضخامة بدرجة أن جدرانها الداخلية كانت تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية ، كثكنات واسطبلات ذات أدوار سفلية وعلوية . وكان الدور السفلى يسع ثلاثمائة فيل والدور العلوى أربعة آلاف حصان وقد جهزت الأرضيات المنحدرة لتساعد على عملية الصعود ونزول الحيوانات.

و تتسع الثكنات لحوالى عشرين ألف جندى من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . وزيادة في تدعيم التحصين اللازم لتلك المدينة العظيمة حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين مترا مما يجعل وسائل الحماية فى غاية القوة . هذا بالاضافة الى وجود قلعة داخلية يحيط بها سور كبيرا وتحتل مكانها الآن كنيسة لويس التاسع .

وهناك أيضا آثار المبانى ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات أو كما تسمى أيضا الرحبه أو البطحاء عند المواطنين العرب في تونس وهى تماثل الساحة اليونانية Agora واللاتينية Forum ، وتقع في مكان متوسط بين الميناء والقلعة . هذا بالاضافة الى مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء .

وقد استكملت المدينة جوانبها الدينية ببناء المعابد وخاصة للآلهة البربرية الأصل تانيت Tanit والاله أشمون وكذلك هناك المنازل ذات الأدوار العليا وهى العمارة الخاصة بمدينة صور أصلا والتى استمر القرطاجيون بصورة تقليدية في بنائها رغم عدم الحاجة الماسة الى ذلك فى المغرب . وتتضح في تلك المنازل القرطاجية بعض المؤثرات اليونانية وبصفة خاصة الأعمدة الايونية .

وقد مرت تلك المدينة القرطاجية باعتبارها العاصمة السياسية للدولة القرطاجية بعدد من التطورات السياسية والدستورية تتصل اتصالا كبيرا بالطبيعة الأولى لهذه العناصر الفينيقية الأصل وهى الطبيعة الاقتصادية .

التنظيم السياسى القرطاجى :

مر هذا التنظيم بثلاث مراحل رئيسية متداخلة . أولى تلك المراحل هى مرحلة الملكية . وهذه تعتبر في الواقع استمرارا لما كان موجودا في حكومات

المدن الفينيقية في المشرق ولكن هذه الملكية القرطاجية كانت فريدة في نوعها فهي ليست كالملكية المصرية القديمة ذات الطابع الالهي أو الملكية السومرية ، بل لقد كان الملك القرطاجي يختار من طبقة معينة في الدولة وهي الطبقة الثرية وذات الجاه التقليدي بالوراثة وهي الطبقة الارستقراطية . وعلى ذلك فيمكن القول بأن التنظيم السياسي القرطاجي كان متمشيا تماما مع الهدف الفينيقي الأول وهو الاستحواذ على الثروة الاقتصادية . ولم تكن العمليات الحربية والسياسية القرطاجية تهدف الا لتدعيم هذا الجانب . وكذلك لم تتم عمليات الاستكشاف البرى والبحرى القرطاجي والتدخل في أسبانيا وغيرها الا لتثبيت أركان هذا الهدف الاقتصادي الذي احتل مكان الصدارة في التاريخ الفينيقي والقرطاجي . ولذلك كان أصحاب هذه الثروة الاقتصادية في المكانة الأولى في السلطات السياسية . ويشبه ذلك لحد ما تطور التنظيم السياسي في المجتمع اليوناني حيث ظهر التنافس بين الطبقات ، وكان للجانب الاقتصادي فاعلية في هذا الصدد . ويلاحظ الدارس أن هذه الطبقة الارستقراطية قد تجسمت بصفة خاصة في عدد من الأسر التي احتكرت هذه السلطات السياسية في الدولة . وعلى رأس هذه الأسر ، كانت الأسرة المأجونية . ويقتصر المؤرخ في دراسة هذه المرحلة على المصادر الكلاسيكية لعدم توفر المادة القرطاجية . ولم تستمر هذه المرحلة طويلا لتغير الأسس الاقتصادية ، فقد نشأت طبقة جديدة في المجتمع القرطاجي وهي طبقة ملاك الاراضي الزراعية . وبذلك بدأت عوامل التنافس الاقتصادي على الثروة والتنافس السياسي على السلطات السياسية في الدولة . وقد تمكنت هذه الطبقة الجديدة من الاستحواذ على تلك السلطة وانتزاعها من الأسرة الماجونية وذلك في منتصف القرن الخامس ق.م وبدأت مرحلة جديدة هي أقرب الى النظام الجمهوري رغم الاستمرار في استخدام التعبير الملكي .

وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسي من حوالي منتصف القرن الخامس ق.م. الى حوالي بداية القرن الثالث ق.م. ويلاحظ

الدارس في هذه المرحلة تعدد الوظائف السياسية وتأثرها لحد كبير بالتنظيم السياسي اليوناني والروماني ، فقد ظهرت عدة هيئات سياسية جديدة مثل مجلس الشيوخ ومجلس المائة . وكان مجلس الشيوخ يتكون من ثلاثمائة عضو ، أما مجلس المائة فكان مكونا من مائة وأربعة أعضاء . وتركزت السلطة السياسية المباشرة في يد حاكمان أو كما كانا يسميان ملكان أو سبطان ، وهذا النظام يشبه نظام القناصل الروماني . ويستمر هذان الحاكمان في سلطتهما لمدة سنة ولهما رئاسة مجلس الشيوخ ، كما يشترك مجلس المائة في وظيفة الرقابة كضمان لسير الشئون السياسية في طريقها . ويلاحظ الدارس أن هذه المرحلة من تطور التنظيم السياسي القرطاجي أعطت الشعب لحد كبير نوعا من المشاركة في هذا التنظيم ، أما المرحلة الثالثة فهي تجمع لحد ما بين المرحلتين الأولى والثانية .

وقد استمرت المرحلة الثالثة من هذا التنظيم في القرنين الثالث والثاني ق . م . وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة ولكن ليس بنفس الطريقة التي كانت عليها المرحلة الاولى بل لقد جمعت تلك المراحل بين سلطة تلك الاسرة وسلطات مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى الخاصة بالشئون المالية والدينية وكذلك مجلس الثلاثيني ومجلس العشرة . ويلاحظ الدارس أن هذه التجربة السياسية التي واجهتها الدولة القرطاجية كانت مثل ما يعاصرها من القوى الأخرى اليونانية والرومانية ، حيث قد مرت جميعها بمراحل التطور التنظيمي السياسي . ولذلك يلاحظ الدارس جمع التنظيم السياسي القرطاجي بين النواحي الملكية والارستقراطية والشعبية أو الديمقراطية . وعلى الرغم من عدم استقرار هذا التنظيم فقد كان الدستور القرطاجي يوضع في صف الدساتير اليونانية والرومانية ، فهو الدستور الأجنبي الوحيد الذي اتجه أرسطو الى اعتباره في دراساته الدستورية .

ومن الأهمية بمكان الاشارة الى تركيز هذه السلطات في أيدى المواطنين القرطاجيين رغم تواجد العناصر البربرية التى اختلطت لحد كبير مع العناصر الفينيقية الأصل وأصبحت دعامة هامة في مقومات الدولة القرطاجية ، وبصفة خاصة في المرحلة الأولى من العصر القرطاجى حيث ساد السلام والاتصال الحضارى والاقتصادى بين الفينيقيين والبربر . ولكن ركز القرطاجيون سيادتهم السياسية على مواطنيهم الفينيقى الأصل كنوع من الاطمئنان على مستقبل دواتهم السياسى . وتلاحظ أيضا لحد كبير ظاهرة الجمع بين الوظائف المدنية والوظائف العسكرية .

واستكمالا لهذا التنظيم السياسى اتجهت الدولة القرطاجية الى تدعيم كيانها العسكرى بانشاء قوة حربية برية وبحرية تؤدى وظيفة الدفاع عن الدولة . وفيما يتعلق بالقوى البرية فقد تكون الجيش القرطاجى في جملته من الجنود المرتزقة ، ويعتبر ذلك من الجوانب الخطيرة في تنظيمهم العسكرى لأن الجنود المرتزقة لا يشعرون بالاخلاص نحو الدولة التى يعملون بالأجر وبصورة موقتة فيها ، كما أن عدم حملهم لصفة المواطن لا تدفعهم الى التفانى في أداء مهمتهم . وقد حاول القرطاجيون علاج هذه المسألة بوضع هؤلاء الجنود المرتزقة تحت القيادة القرطاجية مع الاستعانة ببعض القادة اليونانيين الذين لهم تجربتهم الحربية ، ومن ناحية أخرى تسليح فيالق الجيش على الطريقة اليونانية وتزويدهم بالخوذات والدروع البرونزية والفضية أحيانا ، وكذلك بمختلف أنواع الأسلحة مثل الرماح والسيوف والمنجنيق الذى يؤدى وظيفة المدفعية بقذف القذائف الثقيلة على العدو . وكذلك تسلح الجيش القرطاجى بالفروسية التى اعتمدوا فيها على المهارة الفائقة التى تميزت بها العناصر البربرية في ركوب الخيل . وهذا بالاضافة الى استخدام الفيلة التى كانت تثير الرعب في نفوس الأعداء مما يكون له أثره في تحقيق الانتصار ، كما استخدم القرطاجيون أيضا المركبات المصفحة التى سبق للاشوريين وكذلك العناصر الهندية الأوروبية استخدامها في الألفين الثانى والأول ق.م. في الشرق الأدنى القديم والتى تأثر بها

الفينيقيون وأدخلوها في قوتهم القرطاجية ويلاحظ الدارس أن ظاهرة استخدام القادة اليونانيين في الجيش القرطاجي في بعض الأحيان كانت ذات خطر بالغ على الأمن القرطاجي لاحتمالية تواجد عنصر الخيانة بسبب رغبة اليونانيين الملحة في السيادة الاقتصادية والسياسية على القرطاجيين بكافة الوسائل . ولقد حدث ذلك فعلا على سبيل المثال في مرحلة خطيرة في تاريخ المغرب في العصر القرطاجي وذلك أثناء مرحلة الصراع الشديد بين القوتين القرطاجية واليونانية في جزيرة صقلية ، وذلك عندما اتجه اجاثوكليس الى تهديد قرطاج في عقر دارها باستغلال أحد الضباط اليونانيين وهو افلاس الذى كان يعمل في الجيش البطلمى في مصر وتشجيعه للعمل معه ضد الدولة القرطاجية مع تمنيته بالملكية على تلك الدولة في حالة الانتصار عليها . وهناك عدة أمثلة أخرى تؤكد احتمالية عدم ولاء المرتزقة للدولة القرطاجية . ومع ذلك فقد كان للجيش القرطاجي قوته الحربية الهامة .

ولم تقتصر القوة القرطاجية على الجيش بل لقد كان الأسطول القرطاجي عنصرا رئيسيا في قوتهم العسكرية . ولا شك أن خبرتهم الطويلة بفنون الملاحة التجارية الحربية البحرية ودرايتهم العملية ببناء السفن وتجهيزها قد اتاحت لهم السيادة البحرية لحد كبير . ويلاحظ أن حجم السفن القرطاجية كان أقل من حجم السفن اليونانية والرومانية مما يميزها بسرعة الحركة والقدرة على التكتيك الحربى السريع أثناء المعارك البحرية . كل ذلك قد دعم التنظيم السياسى القطاجى وساعد على تثبيت هذه الدولة في المغرب وحوض البحر الأبيض المتوسط كقوة سامية تواجه القوى اليونانية والرومانية المعاصرة في تلك المنطقة . وقد دخلت الدولة القرطاجية في صراع مرير مع تلك القوى اليونانية في هذه المرحلة الأولى من العصر القرطاجي . ويستمر هذا الصراع في المرحلة الثانية من العصر القرطاجى مع القوة الرومانية .

الصراع القرطاجي اليوناني الصقلي :

تمثل تلك المرحلة قمة التنافس الاقتصادي والسياسي بين الفينيقيين واليونانيين . فمن أهم مظاهر الحياة السياسية في العصر القرطاجي ذلك الصراع السياسي والحربي بين الجانب القرطاجي من ناحية والجانب اليوناني والصقلي من ناحية أخرى أثناء القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . ويتضمن هذا الصراع عدة ظواهر ، فبالاضافة الى كونه يمثل مرحلة شاقة في طريق الوصول الى السيادة السياسية في وسط وغربي حوض البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت فهو يشتمل على ظواهر النزاع بين الحكومات المدن في جزيرة صقلية والمنافسة الشديدة بين الحكام للاستحواذ على الزعامة السياسية ، كذلك الاحتكاك بين الأنظمة الديمقراطية والاوليجركية . وبذلك يتبين أن تاريخ المغرب القديم في هذه المرحلة من العصر القرطاجي قد خرج من الاطار الأفريقي والفينيقي البحت الى الاطار الدولي المحيط بالمنطقة . وعلى الرغم من شدة جوانب هذا الصراع الذي تجلى في عدد كبير من العمليات الحربية البحرية والبرية فقد انتهى بانتصار القرطاجيين وتأكيد سيادتهم في المنطقة . أما عن مراحل هذا الصراع المرير فيمكن تتبعها فيما يلي :

الحلقة الاولى ، الصراع القرطاجي ضد جلون :—

تبدأ تلك المرحلة كنتيجة مباشرة لظهور بعض الشخصيات الصقلية الطموحة الى فرض سيادتها في المنطقة وعدم السماح للقوى الأخرى بالتدخل في شئونها . ومن أهم هذه الشخصيات في بداية القرن الخامس قبل الميلاد هيبوكراتيس Hippocrates في مدينة جلا أو غيلية Gela وكذا شخصية جلون Gelon . وقد بدأت هذه الشخصيات في تعضيد موقفها بالاستعدادات العسكرية البرية والبحرية من ناحية كذلك التحالف مع بعض المدن الأخرى الصقلية ، ثم القيام بالعمليات الحربية المؤدية الى فرض سيادتها . ولقد لعبت مدينة سيراكيوز أو سرقوسة في شرقي جزيرة صقلية

دورا فعالا في تزعم الجانب اليوناني فيها وأصبحت منذ ذلك الوقت قاعدة للكيان اليوناني . وقد نجح جلون في تقديم المساعدات الحربية لمدينة سيراكيوز مع يدعم موقفها ضد بعض المدن الأخرى في الجزيرة والتى كانت تميل الى الجانب القرطاجى في ذلك الوقت مثل سلينوس Selinus وهميرا أو هيمارا أو حمير Hamira . وبدأت الاحتكاكات بين الجانبين فاصطدمت مدينة اكراجاس مع مدينة هميرا وتمكن حاكم الأولى وهو ثرون من الانتصار على تريلوس حاكم مدينة هميرا ، وقد طلب هذا الأخير معاونة الدولة القرطاجية له في موقفه الشائك بعد هزيمته أمام ثيرون ويلاحظ الدارس تكرر هذه الحوادث المستمرة بين المدن الصقلية ، وطلب كل منها المعونة اما من الدولة القرطاجية أو المدن اليونانية وأدى ذلك الى الصدام المباشر وغير المباشر بين هذه القوى المختلفة . ومما يلفت النظر ويؤكد وجود نوع من الارتباط بين الأوضاع السياسية في شرقى البحر الأبيض المتوسط وغربية أن حقيقة اعتبار اليونانيين كعدو مشترك لكل من الفرس والقرطاجيين ليؤكد لحد كبير امكانية اتصال القرطاجيين بالفرس ، والاستفادة من ذلك في ايقاع الهزيمة باليونانيين في شرق البحر الأبيض المتوسط وغربيه . ولذلك فمعاصرة الأحداث لبعضها ليست مجرد مصادفة ، فقد عاصر انتصار جلون انتصار الأسطول الأثينى على الفرس في سلاميس . والواقع أن الدولة القرطاجية لم تعد منعزلة في الاطار المغربى بل لقد أصبحت لها صفتها كدولة هامة من دول منطقة البحر الابيض المتوسط . ولقد اتسع نفوذ الدولة القرطاجية في ذلك الوقت من خليج سدرة في ليبيا حتى منطقة جزيرة الصويرة على المحيط الأطلسى في غربى المغرب الأقصى . وقد تدخلت الدولة القرطاجية عسكريا في صقلية بعد أن نظمت جيشا كبيرا تقول المصادر اليونانية أنه كان مكونا من حوالى ٣٠٠،٠٠٠ جندى من الجنود المرتزقة ومائتى سفينة بقيادة هملكار أو كما يسمى هملقارت Hamilcar . ويصعب التيقن من صحة المصادر اليونانية المتعلقة بالقوة القرطاجية لما تتضمنه من عنصر المبالغة المتعمدة للأغراض السياسية . أما القوة اليونانية الصقلية بقيادة جلون فقد كانت مكونة من

من ٢٤٠٠٠ جندى ، ٢٠٠٠ من الفرسان . وتقابلت القوتان القرطاجية واليونانية الصقلية قرب هميرا ونجح جلون في استخدام عدد من المناورات الحربية التى أدت الى ايقاع الهزيمة بالقرطاجيين ومن أهم الظواهر في تلك الهزيمة نجاح اليونانيين في احراق سفن الأسطول القرطاجى . وكان لذلك أثر كبير في الحاق ضرر بالغ بالقرطاجيين لما للأسطول من أهمية أساسية في حياتهم وأمنهم ولما يتطلبه بناء أسطول جديد من جهود متواصلة وامكانيات كثيرة . واضطر القرطاجيون الى طلب الهدنة ودفع ثمن بالغ لتلك الهزيمة .

ولم تقتصر آثار تلك الهزيمة على الخسائر الحربية والاقتصادية والنفسية ، بل لقد أدت الى تعديل موءقت في السياسة القرطاجية الخارجية ، فقد اضطرت قرطاج الى الانسحاب موءقتا من ميدان نشاطها في حوض البحر الأبيض المتوسط واتجهت الى تركيز نشاطها في الاطار الافريقى المغربى ، فدعمت علاقاتها مع البربر ، ويظهر ذلك واضحا من الناحية الفكرية في ازدياد ايمان القرطاجيين بالالهة البربرية الأصل تانيت Tanit الهة الخصوبة والانتاج . كما دعم القرطاجيون مراكزهم التجارية على طول الساحل الافريقى المغربى ، وعلى سبيل المثال عثر في ليبيا على الآثار القرطاجية المنتمية لهذه المرحلة في كل من لبدة وصبراته ، وامتدت بعد ذلك في تونس في دار الصافى وسوسه Hadremetum وهكذا بحذاء الساحل المغربى حتى جزيرة الصويرة بصورة موءكدة ، وحتى نهر النيجر من الداخل ومنطقة ساحل الكنغو في أبعد مدى ، وقد قام القرطاجيون في هذه المرحلة بالرحلات الاستكشافية والتجارية البحرية والبرية توسيعا لصلاتهم الافريقية .

ولكن هذه السياسة القرطاجية الجديدة رغم كونها قد أدت الى استعادة القرطاجيين لكيانهم الاقتصادى الذى كان قد بدأ في التدهور على اثر هزيمتهم العنيفة السابقة ، فانه لم يمنع من ناحية أخرى عودة الدولة

القرطاجية الى مجالها في حوض البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى كما يظهر ذلك في المراحل التالية . ولم تكن تلك العودة طواعية بل اضطروا على اثر معاودة التهديد اليوناني الصقلي للقرطاجيين ومراكزهم في صقلية .

الحلقة الثانية ، الصراع القرطاجي ضد ديونيسيوس حاكم سيراكوزوما قبله مباشرة :

سبقت هذه المرحلة بعض الأحداث السياسية والحربية الهامة ، فقد انتقلت حلقات الخلاف الشديد بين كل من أثينا وأسبرطة في بلاد اليونان أثناء الحروب البلوبونيزية الى جزيرة صقلية ، فبينما كانت مدينة سيراكيوز تميل الى السياسة الاسبرطية كانت بعض المدن الأخرى مثل سجستا وليونتينى تميل الى أثينا ، وبذلك انتقلت جبهة الصراع الاثينى ـ الاسبرطى الى صقلية ، ووقفت قرطاج موقف المترقب لهذه الصراع اليونانى الداخلى ، وأيضا موقف المشجع له لما فيه من اضعاف للقوى اليونانية الصقلية بوجه عام . وقد حاولت أثينا اثارة اسبرطة بتقديمها يد المساعدة الحربية الى بعض المدن الصقلية الموالية لها ضد سيراكيوز ، ولم تكتف أثينا بذلك بل لقد حاولت أيضا اجتذاب الدولة القرطاجية الى صفها ولكن ذلك لم يواجه باستجابة مباشرة لأن الصالح القرطاجي كان يقتضى عدم التدخل في ذلك الوقت وترك القوى اليونانية تتصارع فيما بينها .

وقد بدأت هذه الاشكالات عندما اشتد الخلاف على الحدود بين مدينتى سلينوس وسجستا ، وعلى الرغم من حسم النزاع بصفة أولية في مؤتمر جلا بجزيرة صقلية ٤٢٤ ق٠م٠ فقد عاد الخلاف بينهما مرة ثانية ثم مرة ثالثة ، وفي المرة الأخيرة طلبت سجستا المعاونة من قرطاج بل والانضمام الى نطاق السيادة القرطاجية وذلك في سنة ٤١٠ ق٠م٠ وقد تحقق هذا فعلا ومما يؤكد ذلك من الناحية الأثرية انقطاع العملة السجستية منذ ذلك الوقت مما يدعم فقدانها استقلالها الذاتى وانضمامها للقرطاجيين . ومن ناحية

أخرى اتجهت مدينة سلينوس الى طلب المعاونة من مدينة سجستا ومهدت لذلك بارسال بعثتين دبلوماسيتين الى كل من سلينوس وسيراكيوز كمحاولة لانهاء الأزمة بالطرق السلمية وأيضا الحصول على الوقت الكافي للاستعدادات الحربية في حالة الاضطرار اليها . وعندما أتمت الدولة القرطاجية تكوين جيش كبير من الجنود المرتزقة بدأت حملتها الحربية لمساعدة سجستا وأعطت زمام قيادة تلك الحملة الى هانيبال بن جزجو أو حنبعل بن جيسكن Hannibal بن Gisgo حفيد هملكار أو عملقارت الذى سبق أن مات في معركة همرا . ولم يكن اختيار هذا القائد اعتباطا بل كان مقصودا لما في نفسه من رغبة ملحة في أخذ الثأر والانتقام وكذلك تحقيق سيادة القرطاجيين في صقلية . وتمكن هانيبال بن جزجو من تحقيق الانتصار رغم تدخل سيراكيوز وتقديمها المساعدة لمدينة سلينوس وقد أنتقم القرطاجيين لهزيمتهم السابقة أشد انتقام وقاموا بقتل آلاف من جنود العدو وأسر عدد كبير آخر . وتابع هانيبال بن جزجو عملياته الحربية بالتوجه الى همرا هادفا اعادة السيادة القرطاجية وأخذ الثأر لجده . ولم تقتصر معركة همرا الأخيرة على الناحية البرية بل لقد استخدمت فيها القوة البحرية ، ومن ناحية أخرى قدمت مدينة سيراكيوز مساعدتها الحربية لمدينة همرا كمحاولة لايقاف التقدم القرطاجي في صقلية . ولكن تمكن هانيبال بن جزجو من استخدام حيلة حربية ماكرة بأن تظاهر بترك همرا والتوجه مباشرة الى مدينة سيراكيوز مما أثار الفزع في نفوس السيراكيوزيين وأضطرهم الى التراجع فورا للدفاع عن مدينتهم . وأضطر ديوكليس القائد السيراكيوزى العودة لانقاذ مدينته . ولكن هانيبال بن جزجو سرعان ما عاد الى همرا عازما القضاء عليها ونجح في هذا الصدد الى أبعد مدى بل لقد وصل تشفيه الى درجة جمعه عددا كبيرا من الأسرى وتقديمهم كتضحية بشرية لروح جده ، وبعد ذلك رجع هانيبال بن جرجو الى العاصمة القرطاجية معلنا انتصاراته الكبرى . وكان المتبع بعد النجاح في العمليات الحربية القيام بتسريح الجنود المرتزقة تخفيفا للاعباء المالية والاقتصادية وتم ذلك على اثر انتهاء هذه الحملة الأخيرة . ولقد كان في استطاعة

هانيبال بن جزجو متابعة سيره الى مدينة سيراكيوز ولكنه قرر الاكتفاء بما وصل اليه من انتصارات ، وهذا يؤكد من ناحية أخرى أنه لم تكن السياسية القرطاجية تهدف في صميمها الى التحكم الكلى في صقلية بل تحقيق السيادة القرطاجية في جزئها الغربى ضمانا لتأمين تجارتها ومواصلاتها البحرية في غربى البحر الأبيض المتوسط .

ولم يتوقف هذا الصدام القرطاجى اليونانى الصقلى عند هذا الحد بعد ذلك بل لقد عاد بدرجة أشد في الحلقات التالية . وكذلك استمرت ظاهرة الاتصال السياسى بين هذا الصراع في جانب وبين ما يجرى في شرقى البحر الأبيض المتوسط من صراع آخر بين الفرس والأثينيين في جانب آخر ، وكذلك ما بين الأثينيين والاسبرطيين في جانب ثالث. ويلاحظ الدارس أن المدن الصقلية لم تتردد مرة أخرى في الاستعانة بالمدن اليونانية الأم سواء كانت أثينا أو أسبرطة . وقد انتهز أحد الساسة القدامى وهو هرموكراتيس Hermocrates فرصة غضب المواطنيين السيراكيوزيين على أثر هزيمتهم أمام القرطاجيين وبدأ يعمل بكافة الوسائل لتبوء مكان الصدارة في سيراكيوز . واستغل في هذا الصدد حقيقة العداء الفارسى للأثينيين وتمكن من الحصول من الفرس ، على المال اللازم لتجهيز أسطول يدعم به قوة سيراكيوز ، ولقد كان توقيت هرموكراتيس لهذه الحركة السياسية مواتيا ، فقد رحبت سيراكيوز به كزعيم جديد يقوها الى الانتصار ولم يكتف هرموكراتيس بطلب المساعدة من الفرس بل لقد لجأ ايضا الى اسبرطة وغيرها طالبا معاونتها الحربية . وأتبعت الدولة القرطاجية نفس الأسلوب السياسى بأن لجأت الى أثينا طالبة صداقتها ومعاضدتها لها ضد سيراكيوز ، وذلك بالاضافة الى قيامها بالاستعدادات الحربية البرية والبحرية الضخمة للقيام بالعمليات الحربية المنتظرة في صقلية بقيادة هانيبال بن جزجو ومعه هيملكو أو غيملكين Himilco . وقد حدث الصدام الحربى بين القوتين القرطاجية واليونانية الصقلية في مدينة أكراجاس . ورغم انتصار القرطاجيين في هذه المعركة سنة ٤٠٦ ق . م ، الا أن تفشى الحمى بين الجنود

المرتزقة الخاضعين للقيادة القرطاجية قد أدى الى عرقلة هذا الانتصار. والواقع أن ظلوا هر الاخطال وعدم اتباع الوسائل الصحية وانعدام التكامل الطبيعى بين الجنود المرتزقة كان من العوائق الرئيسية التى تحول دون التأكد من نتائج المعارك.

وكان لظهور شخصية شعبية قوية جديدة في المجتمع السيراكيوزى أثر بالغ في تجديد عمليات الصراع العنيف بين القرطاجيين واليونانيين الصقليين، تلك كانت شخصية ديونيسيوس Dionysius الذى تميز بقدرته على الاستحواذ على ثقة الشعب السيراكيوزى والوصول الى مركز الزعامة والقيادة في سيراكيوز. وقد اتبع ديونيسيوس في أول الأمر في سياسته كل ما يكفل تدعيم مركزه الداخلى في سيراكيوز حتى ولو كان ذلك على حساب السيادة السيراكيوزية في صقلية، وعندما اطمأن الى ذلك بدأ في العمل على تحقيق الانتصارات الحربية لسيراكيوز. وتدل على ذلك المعاهدة التى عقدها مع القرطاجيين، والتى أضطر الاخيرون الى عقدها بعد تفشى الخمى بين جنودهم المرتزقة من ناحية وانتهاء الحرب البلوبونيزية وانتصار أسبرطة التى تصادق سيراكيوز من ناحية أخرى، والتى تتميز بالسماح للدولة القرطاجية بفرض سيادتها على غربى صقلية وذلك نظير الاعتراف بديونيسيوس زعيما على سيراكيوز. ولم يكتف ديونيسيوس بهذه النتائج بل سرعان ما بدأ استعداداته الحربية والبرية والبحرية ووصل في هذا الصدد الى أبعد مدى باختراعه آلات حربية جديدة مثل المنجنيق لقذف الاحجار على العدو والذى يؤدى دور المدفعية في الأزمنة الحديثة، وكذلك ضاعف أعداد المجذفين في الأسطول السيراكيوزى تعضيدا للبحرية السيراكيوزية وتقوية لسرعة تحركاتها في المعارك. وأيضا استخدم الحرب النفسية بشن حملة دعاية شديدة ضد القرطاجيين الذين وصفهم بأنهم أعداء اليونانيين والصقليين. وقد التزم الجانبان السيراكيوزى والقرطاجى الحذر في الهجوم على الآخر ولكن سرعان ما أصبح الطرفان وجها لوجه في معركة موتيا Motya سنة ٣٩٨ ق.م. وقد نجح ديونيسيوس في الانتصار في هذه المعركة على

القرطاجيين ولكن الأخيرين لم يتقبلوا تلك الهزيمة بسهولة واتجه القائد القرطاجى هيملكو أو غيملكن الى تغيير جبهة القتال والانتقال الى مسانا messana ، ودعم هذه الخطة الحربية بالتأييد البحرى بقيادة ماجو أو ماقو Mago . ونجح هذا التكتيك القرطاجى وانتصر القرطاجيون في المعركة البحرية وخسر الأسطول السيراكيوزى خسارة بالغة قدرت بحوالى مائة سفينة وعشرين ألف رجل مما اضطر ديونيسيوس الى التراجع فورا الى سيراكيوز . ولكن تكرر انتشار وباء الطاعون بين الجنود المرتزقة التابعين للجيش القرطاجى قد ساعد على انقاذ ديونيسيوس ومدينة سيراكيوز من هزيمة محققة ، محققة ، فلقد أدت هذه الأزمات الصحية فاعليتها بين الجنود المرتزقة الذين أصبحوا غير قادرين على القيام بواجباتهم العسكرية . وانتهز ديونيسيوس هذه الفرصة المواتية وهاجم الجيش قرطاجى المنهار وتمكن من الانتصار . ولم يستطع القائد القرطاجى مواجهة الهزيمة فتخلص من حياته وتولى القائد ماجو انقيادة القرطاجية . وحاول هذا الأخير استرداد سيادة القرطاجيون في سنة ٣٩٢ ق.م . ولكن دون جدوى واضطر الى عقد اتفاقية سلام جديدة مع ديونيسيوس . ولم يسترح ماجو لهذا السلام المؤقت بل كان يلتهف الى تحقيق الانتصار على ديونيسيوس ولذلك اتجه بقوة حربية جديدة الى صقلية سنة ٣٨٢ ق.م . وحتى في هذه المرة تمكن ديونيسيوس من الانتصار على القرطاجيين فقد تدرب طويلا على تلك الحروب وتفهم الخطط الحربية لأعدائه . وبلغت الهزيمة بالقرطاجيين الى أن قائدهم ماجو قد فقد حياته في المعركة . وأرغم القرطاجيون على الاتجاه نحو عقد معاهدة بها اذلال لسيادتهم في صقلية ، تتضمن التنازل عن المواقع القرطاجية في صقلية بل ودفع تكاليف ترميمها. ولكن عندما تغير ميزان القوى وتولى القائد هيملكو بن القائد السابق ماجو زمام القيادة القرطاجية وكان يتميز بالطموح والقدرة والشباب تمكن من ابدال الهزيمة السابقة الى انتصار جديد عند التحامه مع القوة السيراكيوزية بقيادة ديونيسيوس في هميرا مما اضطر هذا الأخير الى التنازل عن بعض مكاسبه السابقة لصالح القرطاجيين . ولم تكن هذه المعركة هى الأخيرة مع السيراكيوزيين في عهد ديونيسيوس بل لقد

عاد الاشتباك مرة أخرى سنة ٣٦٧ق٠م٠ وانتهى في تلك المرحلة باتفاقية هدنة مع ابن ديونيسيوس واسمه أيضا ديونيسيوس .

هذا موجز لتلك الحلقة الثانية من مراحل الصراع القرطاجي اليوناني الصقلي ، وتتابع المراحل بعد ذلك في عهد كل من تيموليون Timoleon وأجاثوكليس Agathocles . ومن الظواهر الهامة في التاريخ المغربي في أثناء هذه المرحلة الثانية بالذات حدوث أزمة خطيرة داخلية في الدولة القرطاجية وهي الأزمة البربرية . فلقد كان البربر حتى ذلك الوقت يتعاونون مع العناصر الفينيقية في كافة المجالات المدنية والعسكرية داخل الاطار القرطاجي . ولكن بدأت تلك العناصر البربرية في التعبير عن تذمرها على اثر استياء الحالة الصحية بين البربر كنتيجة تفشي حمى الطاعون في الحروب الصقلية وتخلى القرطاجيين عنهم في بعض هذه الأزمات الصحية الحرجة ، مما أساء الى مشاعرهم . وقد تطور هذا الشعور بالتذمر الى القيام بثورة بربرية داخل الدولة القرطاجية ، ولكن هذه الثورة لم تؤد الى نتيجتها المرجوة بسبب عدم استطاعة البربر الوقوف أمام الفينيقيين الذين اكتسبوا خبرة طويلة في عمليات الدفاع عن كيانهم في ذلك الوقت . ولكن بعد ذلك عادت العلاقات الفينيقية البربرية الى حالتها السلمية وزالت هذه الأزمة الطارئة . وعندما وصل البربر الى تكوين دولهم المستقلة عن الدولة القرطاجية بعد ذلك تمكنوا من الوقوف على قدم المساواة مع القرطاجيين ، وكانت التجارب الطويلة قد دربتهم على الانتقال بحياتهم من المستوى القبلي الى صميم الحياة التاريخية . ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون تلافي هذه الأزمات الصحية التي لحقت بجنودهم المرتزقة . وكانوا يعتقدون أن سبب هذه الأزمات هو غضب القوى الالهية الصقلية وعليهم مثل الاله دمتر Dometer وابنته الالهة كور Kore ، وحاول استرضاء هذه الآلهة بكافة الوسائل مثل تقديم القرابين والتضحيات البشرية وخاصة الأطفال اليهم ، وكذلك بناء معابد في العاصمة القرطاجية تكريما لهم . ولكن هذه الوسائل لم تكن ذات مفعول

واقصى في حل هذه الازمات الصحية . فلقد كان الجنود المرتزقة يعسكرون دائما في الأودية والسهول المتاخمة للانهار والروافد والتى يتجمع عندها أيضا البعوض نتجه عدم اتباع الوسائل الصحية في حياتهم في هذه المناطق المنخفضة .

وتنبغى الاشارة أيضا الى أنه على الرغم من سوء العلاقات القرطاجية اليونانية من ناحية ، وكذلك العلاقات القرطاجية البربرية من ناحية أخرى في المجال السياسى فقد استمرت الصلات الحضارية بين هذه العناصر باستثناء بعض مراحل الفتور فيها على اثر اشتداد النزاع السياسى . وقد حدث ذلك مثلا عندما تزعزعت الثقة الوطنية في بعض المواطنين القرطاجيين على أساس احتمال اتصالهم بالسيراكيوزيين مما أدى الى اتخاذ الحكومة القرطاجية قرار ايقاف تعلم اليونانية ولكن ذلك لم يكن مجديا لأن التعامل في المجالات الاقتصادية والحضارية ظل مستمرا بين الطرفين .

الحلقة الثالثة ، الصراع القرطاجى ضد تيموليون :

كان من أهم أصداء هذه المعارك المستمرة تفاقم الخلافات الداخلية في كل من الدولة القرطاجية وصقلية ، مثل للدلك الخلاف بين ديونيسيوس الصغير وبين ديون Dion صهر ديونيسيوس الكبير والذى انتهى بانتصار الأخير لفترة معينة . ثم بدأ مرة أخرى التطلع الى انقاذ الموقف من الخارج عندما قامت كورنثا بارسال معونة محدودة بقيادة تيموليون Timoleon وقد واجهت الدولة القرطاجية هذا القائد اليونانى الجديد بأسطولها الذى حاول منعه من دخول صقلية . ولكن تيموليون على الرغم من القوة البحرية القرطاجية فقد تمكن من الأفلات منها وأيضا الانتصار على القوة البرية القرطاجية والصقلية المعارضة له ودخول سيراكيوز .

ولم تقف قرطاج موقف المستسلم لتيموليون بل أرسلت قوة قرطاجية حربية مثالية سنة ٣٤١ ق . م . بقيادة هزدروبال أو كما يسمى صدر بعل أو ستر بعل ،

ومعه هملكار أو كما يسمى عملقارت أو عبد ملقارت . وتدارك تيموليون الموقف واستخدم أسلوب المباغته في التحركات الحربية وتمكن من ايقاع الهزيمة بالقرطاجيين ، وقتل هزدروبال وتلاه في القيادة جزجو بن هانو العظيم الذى عقد اتفاقية سلام مع تيموليون ، وقد اضطر الأخير الى ترك العمل السياسى بعد فقده بصره سنة ٣٣٨ ق.م.

ومرة أخرى يتبدل الموقف وترتبط المسائل السياسية في غربى البحر الأبيض المتوسط بشرقيه بسبب ظهور شخصية عالمية هى شخصية الاسكندر المقدونى الذى نجح في تكوين امبراطوريته الهائلة . ونتج عن ظهور هذه القوة الجديدة تغيير كلى في ميزان القوى السياسية والحضارية . وكان من الصعب الوقوف أمام الاسكندر الأكبر بمبادئه العالمية ، ولكن الدولة القرطاجية كانت تأمل في مساعدة مدينة صور في محاولة الصمود ضد الاسكندر ولكن من ناحية أخرى كان من المحتمل امتداد سير الاسكندر غربى واحة سيوه الى قرطاج ولكن ذلك لم يتحقق لاتجاهه نحو الشرقين الأدنى والأقصى .

وخلف تيموليون في حكم مدينة سيراكيوز رجلا قويا عمل على اعادة السيادة السيراكيوزية وهو أجاثوكليس Agathocles وواجهت قرطاج هذا الخطر الجديد سنة ٣١١ وسنة ٣١٠ ق.م مما اضطرها الى ارسال حملة كبيرة بقيادة هملكار بن جزجو الذى تمكن من احراز النصر على السيراكيوزيين . ولم يكن أجاثوكليس من الشخصيات التى تستسلم للهزيمة بسهولة بل سرعان ما ابتدع خطة حربية خطيرة ، وهى تغيير مكان المعركة بفتح جبهة حربية جديدة في صميم الأراضى المغربية وكان ذلك في صيف سنة ٣١٠ ق.م. ومما يؤكد تصميم أجاثوكليس على تحقيق خطته تلك ، تعمده احراق السفن السيراكيوزية بعد انزال جنوده على الشاطئ المغربى في منطقة سيدى داود غربى رأس عنابه . ولقد كان لهذه الخطوة الحربية الجريئة أثر كبير في العاصمة القرطاجية . فقد ساءت نفسية القرطاجيين الى أبعد درجة ووصل

بهم الذعر الى الالتجاء الى آلهتهم والتقرب اليها بالقرابين والتضحيات البشرية من أبناء النبلاء . ومن ناحية أخرى ضاعف القرطاجيون استعدادهم العسكرى لحماية الدولة من هذا الضغط المباشر ، فتألف جيش قرطاجى من ٤٠٠٠٠ من الجنود المشاة رعدد كبير من الفرسان والمركبات الحربية بقيادة هانو وبولملكار . وحدثت أولى المعارك المنتظرة وتمكن فيها أجاثوكليس من الانتصار على الرغم من بعده عن مراكزه الأصلية في صقلية ، وتحرج موقفه بحكم عدم توفر أسطول تحت تصرف قواته . واضطر بوملكار الى التراجع ، وكذلك هملكار في صقلية لم يتمكن من ضرب اليونانين والصقليين ضربة قاضية في سراكيوز ، بل لقد وصل الكيد بالسيراكيوزيين الى ارسال رأس هملكار الى أجاثوكليس بالمغرب كتأكيد عينى لانتصارهم.وقد اتبع أجاثوكليس خطة السرعة في تحركاته الحربية كسبا للوقت وتنفيذا لخطته ، وكان يهدف الى حصار مدينة قرطاج العاصمة من جميع الجهات ما عدا الجانب البحرى ، ولذلك تقدم بقواته الى سوسه ثم الى أوتيكا وبنزرت.وكذلك حاول تدعيم قواته بقوى أخرى خارجية فاتفق مع افللاس وهو الذى كان أصلا يعمل كأحد حراس الاسكندر المقدونى ،وتحقق ذلك فعلا واتجه افلاس بقوته من برقة الى حيث كانت قوات أجاثوكليس حول قرطاج . ولكن افللاس الذى كان يعتز بيونانيته لم يستطع التعاون مع أجاثوكليس اليونانى الصقلى ولذلك دبر هذا الأخير خطة للتخلص منه وتم ذلك فعلا ،وضم قواته اليه .

ولم تكن هذه العمليات الحربية في قرطاج هى الوحيدة أمام أجاثوكليس بل كان من الضرورى عليه المحافظة على كيان سيراكيوز ولذلك عزم على السفر اليها تاركا ابنة أركاجثوس Archagethus كمسئول عن جبهة المغرب . وانتهزت الدولة القرطاجية هذه الفرصة المواتية وقامت بتجهيز ثلاثة جيوش للعمل في محيطها لتأمين الدولة من الحصار المضروب عليها ، وكذلك طمأنة العناصر البربرية تلافيا لاحتمالية تورد ها . وقد نجحت هذه

الجيوش القرطاجية في تحقيق أغراضها واضطر أجاثوكليس الى العودة مباشرة الى المغرب لمواجهة هذه التطورات الجديدة ولكن ذلك لم يؤد الى أية نتيجة لأن القرطاجيين كانوا قد اتموا التخلص من الحصار وأنقذوا دولتهم من ذلك الخطر الداهم . وانتهى هذا الاشكال بعقد اتفاقية هدنة وسلام مع أجاثوكليس ، ولم تنتهز الدولة القرطاجية تحرج موقف أجاثوكليس ، وتابعته في جزيرة صقلية وفي سيراكيوز بالذات بل اكتفت بهذا القدر من الانتصار .

ولكن عمليات الصراع الشديدة السالفة الذكر سرعان ما تعاود كرتها مرة أخرى مع قوة جديدة هامة في ميدان البحر الأبيض المتوسط كانت تترقب الأحداث الجارية حولها عن كثب وهى القوة الرومانية . وقبل دراسة مراحل الصراع القرطاجى الرومانى تنبغى الاحاطة بالكيان المجتمعى المغربى في العصر القرطاجى والتعرف على الحياة الفكرية والمجتمعية القرطاجية والبربرية وكذا النشاط الاستكشافى في تلك الفترة .

الفصل الثالث

المجتمع المغربي في العصر القرطاجي

ان أول ظاهرة يلمسها الدارس لتاريخ المجتمع المغربي القديم في العصر القرطاجي هي الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية في ذلك المجتمع فهناك العنصر القرطاجي الفينيقي الاصل والعنصر البربري المحلي والعنصر اليوناني المتداخل في بعض مجالات القرطاجي وذلك بالاضافة الى العناصر الحضارية المصرية والاترورية والقبرصية والكريتية والافريقية الزنجية . وكان لكل عنصر من هذه العناصر مقوماته الحضارية المادية والفكرية في المجالات الدينية والاقتصادية والادبية والفنية . وعلى ذلك فالمجتمع المغربي في تلك الفترة كان مختلطا تبلورت فيه أنماط جديدة نتيجة هذا الاختلاط ، مما ساعد على حسم انتقاله من المجتمع المنعزل نسبيا في مرحلة العصر الحجري الحديث والقائم على النظام القبلي المحلي المحدود في نشاطه الفكري والمادي الى مجتمع متطور له فاعليته في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط والقارة الافريقية ويمكن للباحث تتبع حياة هذا المجتمع في عدة مجالات ويعتبر المجال الديني ذو أهمية خاصة في حياته نظرا لارتباط القرطاجيين بأصلهم الفينيقي ارتباطا وثيقا حيث كان للدين فاعليه خاصة في الحضارة الفينيقية .

ويلاحظ الدارس أن الانسان في هذه المرحلة كان لا يزال يبحث عن الحقيقة ولذلك لم يقتصر مجهوده على تطوير فكره الديني في نطاق معين بل حاول الاعتماد على كافة ما يتراءى له من الافكار الدينية الاجنبية محاولا الاقتباس منها بما يكمل تفكيره الخاص . ويلمس الدارس هذا الخلط الواضح في الفكر الديني في هذا المجتمع بصورة ظاهرة ، ولكن ذلك لا يمنع من تواجد الأصول الفينيقية الأولى كأساس للديانة القرطاجية . ولقد كانت معرفة المؤرخين عن الديانة الفينيقية محدودة ولكن بعد اكتشاف النصوص الكثيرة التى عثر عليها في مقابر بيبلوس أى جبيل ورأس الشمرا أى أوجاريت والتى ألقت أضواء جديدة

على بعض جوانب هذا الدين تبين أنه في أساسه أسيوى سامى الأصل يعتمد كغيره من الديانات السامية على الاعتقاد في ظاهرة الخصوبة والانتاج كما أنه يوءمن ببعض القوى الطبيعية الموجودة في محيط بيئة الانسان في تلك المرحلة . والاله الأول عند الفينيقيين هو الاله ايل وهو اله القوى الكامنة في مياه الأنهار والآبار . وهناك أيضا الالهة عاشرة Asherat والاله بعل Baal والاله عليان aliyan ويلاحظ الدارس أن بعض هذه الالهة يرادف قوى الهية أخرى تناظر في العقائد المختلفة فمثلا الاله الفينيقى بعل يرادف العقائد العراقية القديمة الاله أداد Adad والاله ملقارت اله مدينة صور يرادف الاله اليونانى هيراقليس Heracles ، والاله داجون الفينيقى يقترب من الاله البابلى الكلدانى أوأوناس Oannés والاله أشمون اله الصحة والطب يرادف الاله اسكليبيوس Asklepios اليونانى وهكذا وهذه المترادفات تشير الى وجود اتصال فكرى دينى بين الفينيقيين من ناحية وبين جيرانهم من ناحية أخرى . ومثال ذلك الاتصال الفكرى الذى يرجع الى بداية العصور التاريخية بين مدينة بيبلوس الفينيقية وبين مصر القديمة ،والذى يتضح تأثيرها خاصة في العقائد الدينية الفينيقية كما يدل على ذلك تقليد الملك أحيرام على تابوته الحجرى للمناظر الجنزية المصرية المعروفة بطابعها الخاص .

وقد عبر الفينيقيون عن فكرهم الدينى في شكل أدب أسطورى ملحمى يتضمن كافة القصص الدينية المتأثرة بالديانات السامية المجاورة والمعبرة عن صلة الالهة بعضهم ببعض وبصفة خاصة في مظاهر الخصوبة المتصلة بالحياة الزراعية والانتاج . ١

أما الالهة القرطاجية فقد تضمنت الالهة الفينيقية السالفة الذكر ، بالاضافة الى قوى الهية جديدة ، على رأسها الالهة تانيت Tanit . وقد اختلف الموءرخون في أصل هذه الالهة ولكن عدم الاشارة اليها في نصوص

رأس الشمرا وصور وغيرها يؤكد أنها غير فينيقية الأصل. كما أن عبادة البربر من الاعتقاد في كونها بربرية الأصل. وهي الهة الانتاج والخصوبة عند القرطاجيين ويرمز اليها بسيدة ترضع طفلها ، وأيضا بمثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس ، ومن الجائز صعوبة تفسير اهتمام البربر بالهة أنثى بدلا من اله ذكر ولكن من الممكن الرجوع في هذا الصدد الى بعض المجتمعات القبلية التى كانت تعطى أولوية خاصة للمرأة في كيانها المجتمعى مما يجعلها تصل الى اتخاذها رمز للقوى الكامنة في ظاهرة الاخصاب. ومن الآلهة القرطاجية أيضا الاله بعل حمون Baal Hammon ويسمى أحيانا بعل عمون ، وقد اتجه المؤرخون الى اعتباره ذو صلة بالاله المصرى آمون ، ومن الممكن الاتجاه الى تأييد هذا الرأى على أساس أن الاله آمون قد انتشرت عبادته لحد ما في شمال أفريقيا . وقد سبقت الاشارة الى العثور على رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس في كل من الجزائر وليبيا ، ويمكن اعتبارها ترادف الكبش المصرى المقدس الذى يرمز للاله آمون في مدينة طيبة ، مع الاختلاف في نوع الكبش ذاته حيث يلاحظ أن الكبش الجبلى المغربى له شكله الخاص المميز ، فمن الممكن تأثر قرطاج بهذا المعتقد المصرى القديم وظهوره مع الآلهة الأخرى الفينيقية والليبية . وربما يرجع هذا الاندماج الى العصر الفينيقى نفسه باتحاد أحد الآلهة الفينيقية الأصل وهو الاله بعل مع الاله آمون المصرى مما أدى الى ظهور الاله بعل حمون الذى يحمل الصفتين الفينيقية والمصرية القديمة . وقد صور هذا الاله القرطاجى في عدة أشكال منها تصويره على شكل انسان وهو جالس على عرشه وبجواره تمثال لأبى الهول المجنح ، وأحيانا يحمل قرنى كبش كما أن قرص الشمس المجنح المصرى الأصل كان من الرموز المتصلة بهذا الاله .

ومما يسترعى الانتباه أن هذه الظواهر المصرية القديمة في الحضارة القرطاجية قد اتضحت أيضا في نواح أخرى مثل الجعارين ، فقد عثر على أمثلة منها في عدد من المواقع الاثرية القرطاجية منها ليكسوس Lixus

المطلة على المحيط الاطلسي المغربي ، وأحيانا تحمل أسماء بعض الفراعنة المصريين مثل تحتمس الثالث . ويمكن تفسير تواجدها بأنه نتيجة الصلات التجارية وتعامل القرطاجيين تجاريا في نماذج مختلفة من انتاج مناطق متعددة في حوض البحر الأبيض المتوسط سواء أكانت مصرية أو يونانية . وقد مارس القرطاجيون طقوس دياناتهم في عدد من المعابد التي بنيت على طرز معمارية مختلفة تأثرت كثيرا بالطابع اليوناني الأصل كما كانت هناك طبقة الكهنة المفتفرغين الذين يتوارثون وظيفة الكهانة في عائلاتهم .

وفيما يتعلق باعتقاد القرطاجيين في العالم الآخر فقد آمنوا به لحد معين وخصصوا مقابر لدفن موتاهم وزودوها ببعض الاحتياجات الرئيسية التي تلزم المتوفى ، وبتماثيل الآلهة وأقنعة لابعاد القوى الشريره . ويلاحظ أن بعض هذه المقابر قد اتخذت الشكل الهرمي المصري القديم .

ومن الظواهر الدينية المميزة للديانة القرطاجية ظاهرة التضحية البشرية . ولقد كان استخدامها على نطاق واسع في المجتمع القرطاجي مما يؤكد سيادة العامل الديني في حياتهم ومستقبلهم ومحاولة التقرب بهذه الوسيلة الخاصة الى القوى الالهية المختلفة رغبة في استرضائها والحصول على الانتصار في الحروب ، والرفاهية في المجتمع الدنيوي من ناحية ، وتزلفا للقوى الخفية ودفعا لشرها من ناحية أخرى . ويرجع هذا التقليد الديني في أصله الى الكنعانيين والفينيقيين في فلسطين وفينيقيا . وتنبغي الاشارة أيضا الى أن هذه العادة كانت موجودة في المجتمع السومري أثناء العصر التاريخي وفي المجتمع المصري قبل بداية العصر التاريخي ، ولكنها استمرت عند القرطاجيين حتى العصر الروماني . وقد عثر فعلا على بقايا رماد الأطفال الذين كانوا يضحى بهم في معابد الآلهة مما يؤكد صحة ما ذكره المؤرخون اليونان والرومان في هذا الشأن .

ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون التغلب على القوى الشريرة التي تهدد أمنهم باستخدام طريقة جديدة ترجع في أصولها الى افريقيا الزنجية

وهى صنع أقنعة ومسوخ طينية تحمل أشكالا شيطانية يرتديها الانسان ، أو يضعها في منزلة أو مقبرته كنوع من اخافة هذه القوى الشريرة وبالتالى ابعادها عنه ، ويغلب على الظن أن توصل القرطاجيين الى هذا التقليد الجديد كان نتيجة اتصالهم التجارى والحضارى البرى والبحرى مع أفريقيا الزنجية . وقد ثبت قيامهم برحلات برية عبر الصحراء الى منطقة نهر النيجر والسنغال ، وبالطريق البحرى على طول ساحل المحيط الأطلسى حتى منطقة الكونجو . وقد اتاحت لهم هذه الرحلات الاطلاع على النماذج الحضارية الزنجية الطابع والتأثر بها تمشيا مع طريقتهم الخاصة في استزادة من الحضارات الأجنبية لاستكمال كيانهم الحضارى .

ويسطر التاريخ السياسى للقرطاجيين حقيقة أهمية الدافع الدينى فيلاحظ تقديمهم القرابين البشرية للآلهة في مواقف كثيرة ، كما أن أسماء الحكام القرطاجيين لها المفهوم الدينى ، وعلى سبيل المثال اسم الملك القرطاجى الخالد هانيبال الذى يعنى " حن عليه بعل " . ولكى يلم الباحث بمختلف جوانب حياة المجتمع المغربى في العصر القرطاجى تنبغى الاشارة الى العنصر البربرى ودوره في ذلك المجتمع .

كان البربر يكونون العنصر الغالب في المنطقة وكان نظامهم الاجتماعي يقوم على النظام القبلى البحت . ويرجع البربر على في أصولهم البشرية الى عنصر البحر الأبيض المتوسط وفي أصولهم اللغوية الى عائلة اللغات الحامية التى تعود بهم الى شبه الجزيرة العربية وبصفة خاصة منطقة عمان وحضرموت واليمن . ويطلق البربر على أنفسهم تعبير الامازيغ أى الأحرار . وقد كان انتقالهم الى المغرب عن طريق الهجرات الحامية الكبرى الى القارة الافريقية عبر بوغاز باب المندب . وقد اتخذت هذه الهجرات الطرق الصحراوية في شرق وشمال السودان والنوبة المصرية ومنها الى مناطق الواحات ثم الى المغرب . وقد اختلط البربر بالعناصر السامية والهندية الاوروبية والزنجية ، وتختلط نسبة هذا الاختلاط من مكان لآخر ويمكن للمؤرخ تتبع الأصول الحامية في المناطق

التى استقروا فيها في شرق أفريقيا والسودان والنوبة ومصر والمغرب . ومن أهم الأمثلة على ذلك أصولهم في مصر فقد ثبت انتماء اللغة المصرية القديمة الى عائلة اللغات الحامية مع وجود مؤثرات سامية بها كما أنه رغم تمكن المصريين من صنع حضارة مصرية راقية في وادى النيل الأدنى فقد استمرت صلاتهم الأولى بأصولهم الحامية الى حد معين .

وقد تعددت القبائل البربرية في المغرب كما اختلفت في تقاليدها ولهجاتها الخاصة وقد أشار المؤرخ ابن خلدون في مقدمته الى قبائلهم ولهجاتهم المختلفة مثل اللهجات الزناتية والمصمودية والصنهاجية وغيرها . ولم تصل هذه القبائل البربرية الى الوحدة السياسية الا أثناء العصر القرطاجى ، وذلك لأن الطبيعة القبلية وعدم استقرار البربر في مكان معين وكذلك ظاهرة الرعى والزراعة المحدودة التى تمثل الجانب الأول في اقتصادهم ، كل ذلك أدى الى استقلالهم القبلى لفترة طويلة .

وعندما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لا يزالون في مرحلة العصر الحجرى الحديث بدأت العلاقات الفينيقية البربرية في التطور في المجالات الاقتصادية والحضارية مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية البحتة الى مراحل أكثر تقدما نحو تكوين دولة بربرية أثناء العصر القرطاجى وقد كان للنظام القبلى البربرى أثره على العصبية البربرية التى تعتمد على أساس صلات المصاهرة بين أفراد القبائل . وكان لتلك العصبية أثرها البالغ في تاريخ البربر وفي تأخرهم نسبيا في التوصل الى الوحدة السياسية . فقد انفردت كل قبيلة بعصبيتها الخاصة التى عزلتها داخل نطاق محدود يتميز بوجود قلعة محصنة في مركز منطقة انتشار القبيلة . ويلاحظ الدارس أن ظاهرة التحصين هذه كانت لأغراض دفاعية ويمكن تتبعها في المجتمعات الحامية الأصل وأيضا السامية في بداية العصر التاريخى . ويلاحظ أن مجتمعات جريكو بفلسطين المنتمية لمرحلة العصر الحجرى الحديث تتميز بظاهرة التحصين ، وكذلك المجتمعات المصرية قرب نهاية عصور ما قبل الاسرات

وبداية العصر التاريخي قد تميزت كذلك بهذه الظاهرة التي لا تزال آثارها موجودة في منطقة ابيدوس والكاب . وكان الغرض من هذا التحصين هو حماية المجتمع الأول من احتمالية التهديدات المختلفة الانسانية أو الحيوانية التي تغير على هذه المجتمعات المستقرة الجديدة .

وكانت العلاقة بين القرطاجيين والبربر في أول الأمر يسود هـا السلام والصلات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية العادية بعد أن نجح الفينيقيون الأول في خلق جو من الثقة المتبادلة وبينهم وبين تلك العناصر المحلية ، ولكن هذا السلام لم يكن تاما أثناء مرحلة الصراع القرطاجي اليوناني السالف الذكر وخاصة بعد أن ساءت معاملة القرطاجيين للبربر الذين كانوا يعملون ضمن صفوف الجنود المرتزقة في الجيش القرطاجي وأدى ذلك الى تذمر البربر ومحاولتهم القيام بالثورات تعبيرا عن غضبهم . ولكن هذه الثورات لم تؤد الى استحواذهم على السيادة السياسية في ذلك الوقت لأنهم كانوا يفتقرون الى قيادة موحدة تتولى توجيههم في هذه التجارب السياسية الأولى في مواجهتهم للقرطاجيين . وقد استفاد البربر من تلك المرحلة وبدءوا يتجمعون في شكل مجموعة منها في شكل اتحاد قبلي اقليمي يرأسه أحد قادة هذه القبائل ويطلق عليه لقب "اغليد "Aguellid أى ملك أو رئيس مجموعة من القبائل المتحدة . وكان رؤساء القبائل الداخلة في الاتحاد يعاونون الاغليد في حل المشكلات التي تواجه الاتحاد وخاصة فيما يتصل منها بمسائل العصبية القبلية التي لم تتقبل هذا الاتحاد بسهولة . ويمكن أن تسمى الاتحادات القبلية الاقليمية التي نشأت حوالي النصف الثاني من العصر القرطاجي دولا أو ممالك مثل مملكة ماسوله Massylie ومكانها منطقة نوميديا الشرقية ومملكة مازيسوله Massosylie في منطقة نوميديا الغربية ثم مملكة موريطانيا في المغرب الأقصى . وقد نشأت هذه الممالك بعد نمو الوعي السياسي لدى البربر وشعورهم بالكيان الذاتي في ذلك الوقت ومحاولتهم الاستقلال بالمغرب . وقد شجعهم في هذا الصدد الرومان كمحاولة منهم لاضعاف الجانب القرطاجي بايقاع الفرقة بين العنصرين

الفينيقى والبربرى ، ويلاحظ أنه في هذه المرحلة أيضا برزت عدة ثورات بربرية وبصفة خاصة في القرن الثالث قبل الميلاد .

ولم يقتصر نشاط البربر على المغرب فحسب بل سبق أن اتصلوا بمنطقة شمال شرقى افريقيا أى بمصر القديمة ويمكن ارجاع تلك الصلات في مظهرها السياسى والحضارى الى بداية العصر التاريخى واثنائه . ولكن بوادر هذه الاتصالات ترجع في الواقع الى ما قبل بداية العصر التاريخى أى الى مرحلة المصرين الحجرى القديم الأعلى والحجرى الحديث وما قبل الأسرات، عندما اضطرت العناصر الليبية أى البربرية الى التحرك شمالا وشمالا بشرق في محاولة الاستقرار بعضها في وادى النيل الأدنى على حافة الصحراء في مجتمعات الفيوم أو مرمدة بنى سلامة . ولكن الصلات ازدادت في عهد الدولة القديمة وكذلك في عهد الدولتين الوسطى والحديث غير أنها وصلت الى قمتها في بداية العصر المتأخر وأثناء الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين عندما تمكنت أسر ليبية متمصرة من الوصول الى كرسى الحكم وبذلك بدأت مرحلة ليبية في التاريخ المصرى القديم .

لقد كانت تلك العناصر الليبية الأصل منذ بداية التاريخ المصرى القديم وبصورة مطردة دائمة التحرش والتسلل الى مناطق الدلتا والفيوم في مصر مدفوعة باغراء تلك الاقاليم الخرينية التى تتجمع فيها الحياة الزراعية المستقرة . ولكن سرعان ما كان الفراعنة يبادرون الى احباط تلك المحاولات ومن أشهرها ما حدث في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة والتاسعة عشرة والعشرين وبصفة خاصة في عهدى منفتاح ورمسيس الثالث اللذين تمكنا من ايقاف هذه التسللات الليبية في ذلك الوقت بصورة مؤقتة . وتنبغى الاشارة في هذا الصدد الى أن حروب رمسيس الثالث مع الليبيين كانت حاسمة في ايقاف عمليات التسلل المسلح مما دفعهم الى التسرب السلمى والاستيطان في مناطق الفيوم والدلتا والعمل كجنود مرتزقة في الجيش المصرى .

وفي بداية العصر المتأخر كانت مصر قد وصلت الى حالة من الضعف والاضطراب السياسي مكنت كثيرا من العناصر الأجنبية من الاستيطان في البلاد والتطلع للاستحواذ على السلطة السياسية . وقد تمكنت العناصر الليبية البربرية المستقرة في اهناسيا والفيوم والتي تسميهم النصوص المصرى "التحنو" من تقلد وظائف هامة في هذا الاقليم حتى ظهرت شخصية قوية فيها هي شخصية شنق الأول الذى تمكن من الوصول الى عرش مصر وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين وذلك حوالى ٩٥٠ ق.م وكان قبل وصوله للعرش يحمل لقب رئيس المشواش العظيم وهي تسمية ترجع في أصلها الى منطقة شط الجريد جنوب قرطاج . وقد دعم ششنق مركزه في حكم البلاد بتزويج ابنه من ابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين المصرية في تانيس ، وبهذه الطريقة أوجد لأسرته حقا شرعيا في الوصول الى عرش الفراعنة . ولم تكن كل من الأسرتين الليبيتين في تاريخ مصر القديم الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أجنبية بمعنى الكلمة بل لقد تأثرت هذه العناصر البربرية بالحضارة المصرية المتفوقة في ذلك الوقت بالنسبة اليهم ، وتمصرت لحد كبير مع الاحتفاظ ببعض العادات البربرية ويظهر ذلك في اسمائهم وأزيائهم . ولكن سرعان ما تمكن المصريون من استعادة سيادتهم مرة أخرى ، غير أن العناصر النوبية الحامية الأصل والتي ترجع في جذورها الأولى الى التحركات البشرية البربرية المتجهة الى المغرب عبر الصحراء والواحات تمكنت من الاستحواذ على السلطة من المصريين والليبيين وأسست الأسرة الخامسة والعشرين . ثم تمكن الآشوريون من فرض سيادتهم سبع سنوات أثناء القرن السابع ق.م. (من ٦٧٠ — ٦٦٣) . ولكن المصريين نجحوا في الاستقلال وتحرير مصر وأسسوا الأسرة السادسة والعشرين ، وخلصت البلاد بذلك من سيادة العناصر الليبية والآشورية .

ولكن الصلات البربرية القرطاجية في المغرب كانت أوثق منها في المشرق فقد اتصل البربر بالقرطاجيين اتصالا وثيقا في مجالات التعامل الاقتصادى والفكرى وكان من الطبيعى أن يشمل هذا الاتصال الجانب اللغوى المدون . فقد بدأ البربر في تسجيل لهجاتهم في القرن الثانى قبل الميلاد متأثرين

باللغة اليونية الفينيقية الأصل والتى نجح الفينيقيون في التوصل الى اختراع خطها لأول مرة في حياة الانسانية بصورة نهائية .

أما عن النشاط الزراعى والصناعى في المجتمع القرطاجى فقد تشكل حسب طبيعة الأقاليم المغربية التى تعتبر من الناحية الجغرافية من اقاليم البحر الأبيض المتوسط . ولذلك تلاحظ زراعة الزيتون والتين والكروم والموالح والنخيل واللوز والرمان وغيرها من منتجات حوض البحر المتوسط . ولكن العناصر الليبية قد تميزت بمداومتها على تربية الأغنام والدواجن ورعى الماشية .

هذا بالاضافة الى الخيل والجمال السريعة العدو والفيلة في مختلف جوانب نشاطهم سواء كانت للحراسة أو للعمليات الدفاعية . ولم يكن الاقتصاد القرطاجى يعتمد على الزراعة اعتمادا رئيسيا بل كان يركز نشاطه بصفة خاصة على التجارة الخارجية ، وذلك يتضمن مجالات الاستيراد والتصدير ، ولذلك نشطت الصناعات المحلية القرطاجية المعدنية والعاجية وأيضا صناعة النسيج والفخار والزجاج وغيرها . وبينما كان أثرياء القرطاجيين يركزون نشاطهم على اكتساب الثروات والاستحواذ على السلطة السياسية والحربية كانت طبقات الشعب العامة تقوم بالنشاط الصناعى في الدولة . وكان للصناعات المعدنية النحاسية والبرونزية أهمية خاصة لما تؤديه من وظيفة تسليح قوات الجيش والاسطول وكانت تلك الصناعات تعتمد على المعادن المستوردة من شبه جزيرة ايبيريا والتى نجح الفينيقيون الأول في استغلالها منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد . كما أن عمال النجارة كان لهم نشاطهم في صناعة بناء السفن فـ التى كانت الدعامة الأولى في حياة القرطاجيين . هذا بالاضافة الى نشاط الليبيين في صناعة الأنسجة الصوفية والكتانية والجلدية والفخارية والقواريز الزجاجية والخرز وخلافه . وقد عثر في الآثار القرطاجية على الكثير من الحلى مثل الحلقات المعدنية التى كانوا يزينون بها أنوفهم وآذانهم والعقود وغيرها من أدوات الزينة بالاضافة الى المسارج الطينية والحجرية والشمعدانات التى كانت تستخدم في الاضاءة .

ويلاحظ الدارس أن المنازل القرطاجية جمعت بين المنازل البسيط ذات الأسقف السطحية أو المقببة والمطلية باللون الأبيض وبين المنازل العالية ذات الأدوار التى تصل في عددها الى ستة طبقات، مقلدة بذلك النمط الفينيقى الأصل في المدن الفينيقية في المشرق .وكانت المدينة الفينيقية تجمع بين المتطلبات السياسية والمدنية والدفاعية ، فهناك السوق والميناء والقلعة والطرق المستقيمة الموصلة فيما بينها ،وكذلك هناك المقابر القرطاجية التى اعتمدت على الكتل الحجرية أحيانا وعلى الآجر في المراحل التالية في بنائها . ويلاحظ الدارس أن العمارة القرطاجية قد تأثرت كثيرا بالمؤثرات الأجنبية المصرية واليونانية .فهناك الأعمدة الايونية والمسلات المعربية وقرص الشمس المجنح المصرى الأصل والاسقف الهرمية الشكل وغير ذلك . ولم يقتصر التأثير اليونانى على الجانب المعمارى بل كانت هناك المؤثرات اليونانية في الأدب والفكر الدينى وذلك على الرغم من العداوة العنيفة بين العنصرين القرطاجى واليونانى كما يتضح في مراحل الصراع السالفة الذكر .

وعلى الرغم من كثرة العناصر الأجنبية في المجتمع المغربى في العصر القرطاجى الا أن ذلك لم يؤد الى تواجد مشكلة طبقية بصورة قوية في هذا المجتمع وبصفة خاصة قرب نهاية العصر القرطاجى حيث تقاربت طبقات هذا المجتمع لحد كبير .

ويلاحظ أن القرطاجيين في المغرب كانوا يوجهون جل اهتمامهم الى نشاطهم الاقتصادى والاستقرارى ، ولذلك لم يعثر على آثار تبين نشاطهم المسرحى والرياضى البدنى . كما يلاحظ بصورة واضحة في المجتمع اليونانى المعاصر في ذلك الوقت ، وربما يرجع ذلك الى كثرة انشغالهم في البيئة المغربية الجديدة عليهم . ويلمس الدارس من ناحية أخرى مبالغتهم في الاعتقاد في وجود قوى خفية شريرة ومحاولتهم اتقاء شرها بكافة الوسائل مثل

اتخاذ المسوح والتمائم وغيرها من الجوانب التى ترجع الى أصول أفريقية أكثر منها فينيقية .كذلك يلاحظ استخدام القرطاجيين للوشم وهى عادة بربرية الأصل لها صفة دينية لأن أشكال الوشم تعنى رسوما لرموز الهية تؤدى وظيفة الحماية من القوى الشريرة . ولكن ذلك لا يعنى تغلب العادات البربرية عليهم بل كانوا يحتفظون بميراث من التقاليد السامية الفينيقية الأصل مثل تحريم أكل لحم الخنزير وممارسة عادة الختان وغير ذلك من العادات السامية الأصل . وقد وصل التطور بالمجتمع القرطاجى الى سك العملة القرطاجية لتسهيل التبادل التجارى والتعامل بين أفراد المجتمع القرطاجى بدلا من نظام المقايضة الذى استخدم في بداية مراحل الاستقرار الفينيقى في المغرب.

ومن أهم مظاهر النشاط القرطاجى الخالد في تاريخ الانسانية قيامهم بعمليات الاستكشاف الجغرافى لأول مرة لمنطقة الساحل الافريقى الغربى والساحل الاوروبى الغربى وذلك ابتداء من القرن الخامس ق.م. عندما سجل بعض حكامهم وبصفة خاصة هانو Hanno رحلته الشهيرة التى وصل فيها الى منطقة الكونجو . وقد حفظ النص اليونانى تلك الرحلة ،أما النص القرطاجى الأصلى فقد فقد . وتنبغى الاشارة في هذا الصدد الى أن الوثيقة اليونانية تتضمن بعض النواحى التى تستوجب التوقف والتى ألحقت بالنص اما من جانب القرطاجيين أو اليونانيين لأغراض سياسية واقتصادية خاصة وفيما يلي النص:

" تقرير عن رحلة هانو ملك القرطاجيين الى أجزاء من أفريقيا فيما وراء مضيق جبل طارق ، والذى قدمه الى معبد الاله بعل .

١ — قرر القرطاجيون أنه يجب من هانو الابحار بعد مضيق جبل طارق وتأسيس مراكز ليبية — فينيقية . وقد أبحر ومعه خمسة وستون سفينة مجهزة بالمجاديف و ٣٠٠٠٠ ثلاثون ألف رجل وامرأة وكذلك الطعام والضروريات اللازمة .

٢ — وبعد عبور المضيق والابحار لمدة يومين أسسنا المركز الأول ثايمياتريون Thymiaterion والتى يوجد بجوارها سهل كبير .

٣ — وبعد ذلك أبحرنا تجاه الغرب ووصلنا الى مكان يسمى سولوئيس Soloeis وهو رأس مغطى بالأشجار.

٤ — وبعد أن شيدنا معبدا هناك للاله بوسيدون حولنا اتجاهنا وابحرنا شرقا لمدة نصف يوم ووصلنا بعدها الى مستنقع غير بعيد عن البحر مغطى بأعشاب كثيفة وعالية وكانت الفيلة وحيوانات أخرى تأكل هناك .

٥ — ودرنا حول هذا المستنقع لمدة يوم وبعد ذلك تركنا مستعمرين (جدد) عند قلعة كاريار Gariar وجيته Gutta وعكرة Acra وماليطة Malitte وأرامبيس Arambys .

٦ — ومن هنا أبحرنا الى ليكسوس ، وهو نهر كبير ينبع من ليبيا وعلى ضفافه يرعى أهل ليكسوس الرحل مواشيهم ومكثنا بعض الوقت مع هؤلاء الناس وصرنا أصدقاء لهم .

٧ — وفيما وراءهم يسكن الأثيوبيون البدائيون في بلد مليئة بالحيوانات المتوحشة تخترقها سلاسل جبلية يقولون أن نهر ليكسوس ينبع منها . وحول هذه الجبال كان يسكن قوم ذو طبيعة خاصة هم التروجلوديت Troglodytes ، ويدعى أهل ليكسوس أن هؤلاء الناس كانوا يستطيعون الجرى أسرع من الخيل .

٨ — وبعد الحصول على تراجمة من أهل ليكسوس ابحرنا جنوبا بحذاء شاطىء صحراوى لمدة يومين وبعد ذلك اتجهنا شرقا لمدة يوم واحد وهناك وجدنا في خليج جزيرة صغيرة محيطها ثلاثة أرباع الميل وسميناها قرنة Cerne وتركنا بها مستعمرين وبحساب المسافة التى ابحرناها وجدنا أن موقعها يواجه قرطاج وذلك لأن الوقت الذى امضيناه في السفر من قرطاج حتى مضيق جبل طارق يعادل ذلك من مضيق جبل طارق حتى قرنة .

٩ - ٩ - ومن هناك مررنا بنهر كبير هو الكريتيس Chretes ووصلنا الى مستنقع يحوى ثلاثة جزر أكبر من قرنة . وبعد تركهم أبحرنا لمدة يوم ووصلنا الى رأس مستنقع تشرف عليه جبال مرتفعة ويسكنه أناس متوحشون كانوا يلبسون جلود الحيوانات المتوحشة ،وقد منعونا من النزول بقذف الأحجار علينا .

١٠ - ومن هناك دخلنا نهرا آخرا عميقا ومتسعا مليئا بأفراس النهر والتماسيح ، وبعد ذلك عدنا الى قرنة .

١١ - ثم أبحرنا مرة أخرى جنوبا من قرنة لمدة اثنا عشر يوما بحذاء الساحل الذى كان يسكنه الاثيوبيون الذين فروا منا ، وحتى أهل ليكسوس الذين كانوا معنا لم يستطيعوا تفهم لغتهم .

١٢ - وفي اليوم الثانى عشر القينا المرسى سلسلة جبال مكسوة بالأشجار العطرة وذات الأنواع الكثيرة .

١٣ - ومررنا بهذه السلسلة الجبلية في بحر يومين وصلنا الى خليج متسع على جانبيه أراضى منخفضة . ومن هنا شاهدنا أثناء الليل نيرانا تتصاعد من كل جانب في فترات غير منتظمة .

١٤ - أخذنا ماء وسرنا بحذاء الساحل لمدة خمسة أيام حتى وصلنا خليج كبير قال عنه التراجمة انه يسمى القرن الغربى وتوجد فيه جزيرة كبيرة وفيها بحيرة عليها جزيرة أخرى . وعند النزول عليها لم نساهد غير غابة ولكن أثناء الليل شاهدنا عدة نيران وسمعنا أصوات المزامير والطبول والدفوف وصيحات زحام كبير . واستولى علينا الخوف ونصحنا التراجمة بمغادرة الجزيرة وأبحرنا بعيدا بسرعة وبحذاء منطقة بها رائحة عاطرة لخشب محروق ومنها تخرج ألسنة النيران التى تغطس في الماء . ولم نستطع الاقتراب من الأرض بسبب الحرارة .

١٥ — وعلى ذلك ابحرنا بسرعة ونحن نشعر بخوف . وفي مدى أربعة أيام شاهدنا أثناء الليل الأرض مشتعلة وفي وسط المنطقة كان هناك لهيب مرتفع فوق النيران يبدو كأنه يلامس النجوم . وكان هذا أعلى جبل شاهدناه ويسمى مركبة الآلهة .

١٦ — وبعد المرور على أنهار مشتعلة لمدة ثلاثة أيام وصلنا الى خليج يسمى القرن الجنوبي وكانت توجد فيه جزيرة مثل التي سبقت الاشارة اليها بها بحيرة عليها جزيرة أخرى وكانت مليئة بالمتوحشين وغالبيتهم اناث يكسو أجسامهن الشعر وأطلق عليهم التراجمة اسم الغوريلات Gorllas . وتتبعنا الذكور ولكن لم نستطع الامساك بأحد لأنهم كانوا يتسلقون الصخور المنحدرة ويقذفوننا بالاحجار ومع ذلك أسرنا ثلاثة اناث كن يضربن ويخدشن اللذين أمسكوهن وقد قتلناهن وسلخناهن واحضرنا جلودهن الى قرطاج . هذا هو ما استطعنا الابحار اليه نظرا لنقص التموين " .

وقد تعرض هذا التقرير لعدد كبير من وجهات النظر ويرجع ذلك الى صعوبة التأكد من الحقائق المكانية التى وصلت اليها تلك الرحلة على ساحل أفريقيا الغربى . وأول ظاهرة هامة في هذا التقرير هو أن النص القرطاجى مفقود ويصعب على الباحث تقبل الترجمة اليونانية دون تحفظ لما بين الطرفين القرطاجى واليونانى من منافسة شديدة وبصفة خاصة أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حيث وصلت الى درجة الحروب غير المنتهية حول السيادة الاقتصادية والسياسية في وسط وغربى البحر الأبيض المتوسط . وكان فتح هذا المجال الجديد على الساحل الأفريقى الغربى بما يتضمنه من ثروات لا نهاية لها يجتذب التجار اليونانيين والقرطاجيين ولذلك فمن المحتمل تضمن التقرير لبعض الفقرات المقتضبة أو غير الصحيحة من حيث موقعها الجغرافى على سبيل التمويه المتعمد لابعاد الطرف الآخر عن دخوله هذا الميدان الجديد . كما أنه من ناحية أخرى يلاحظ أن هذا

التقرير قد تضمن الكثير من الاشارات التى تثير الخوف والفزع لدى من تسول له نفسة الاقتراب من هذه الأماكن ،مما يزيد أيضا في جانب الابعاد المتعمد حتى يقتصر هذا السوق الجديد على نشاط القرطاجيين وحدهم . ومن الناحية الأثرية حاول بعض الباحثين تتبع الاثار الفينيقية والقرطاجية على الساحل المغربى المطل على المحيط الأطلسى ، وتمتد على أبعد مدى لها حتى الآن في جزيرة الصويرة ،ولكن من المحتمل العثور على آثار أبعد من ذلك لجنوبا . ولا يعنى ذلك انعدام ورود حقائق في هذا النص بل على العكس من ذلك فقد تضمن الكثير من الحقائق التى تشهد بصورة واضحة على نجاح القرطاجيين في رحلتهم الاستكشافية والاقتصادية الهامة على الساحل الافريقى الغربى ووصولهم حتى منطقة الكونجو في افريقيا الاستوائية الغربية . أما عن بعض تفاصيل فقرات هذا التقرير فيلاحظ الدارس بعض الملاحظات التى تجدر الاشارة اليها .

تشير الفقرة الأولى من هذا النص الى حقيقة هامة في التاريخ المغربى وهى أن الغرض من هذه الرحلة كان أصلا تأسيس مراكز ليبية — فينيقية أى بربرية قرطاجية على الساحل الغربى لأفريقيا .وهذه الاشارة تؤكد تداخل العنصرين البربرى والفينيقى في العصر القرطاجى واعتبارهما عنصرا مندمجا لحد كبير حاملا للصفة القرطاجية لأول مرة في تاريخ المغرب. وكما سبقت الاشارة فقد كانت العلاقات البربرية الفينيقية سلمية للغاية في هذه المرحلة . ويلاحظ أيضا في تلك الفترة أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيرا للغاية ويشير النص أنه يصل الى ثلاثين ألف ويصعب تقبل هذا الرقم لما يستوجبه ذلك من تجهيزات ضخمة في ذلك الوقت الذى يمكن تقدير عدد سكان العاصمة القرطاجية فيه بحوالى ٢٠٠ ألف نسمة . وربما كانت هذه المبالغة متعمدة أيضا لأغراض سياسية واقتصادية .

وقد اختلف العلماء في محاولة تحقيق الاماكن التى أشار اليها النص ، مثل ثايمياتريون والتى كان هناك اتجاه الى اعتبارها موقع المهدية

شمال الرباط في المغرب الأقصى ، ولكن ذكر النص لها أنها بمثابة المركز الأول بعد مضيق جبل طارق يجعل الدارس يحدد مكانها قرب طنجة وليس في نواحى الرباط . ومما يدعم ذلك أن النص يشير في الفقرة السادسة الى نهر لوكوس الذى يوجد عنده موقع ليكسوس مما يجعل الرحلة لا تزال في الجزء الشمالى الساحلى من المغرب ولم تصل بعد الى منطقة المهدية . ومن الجوانب التى يلمسها الدارس عملية تشييد القرطاجيين للمعابد في مراكزهم التى تمكنوا من انشائها وهذا يشمل محاولتهم توطيد حضارتهم في هذه المواقع الجديدة مما يجعل تبعيتها الحضارية الى الدولة القرطاجية ويجعل تحقيق الأغراض الاقتصادية أيسر مما لو ظلت على طبيعتها الأولى البربرية . ويؤكد ذلك أيضا الاشارة الى الفقرة السادسة من هذا النص الى توصل القرطاجيين الى علاقة صداقة ومودة مع أهل ليكسوس تدعيما للكيان القرطاجى في هذه المواقع . ويشير النص أيضا الى عناصر بشرية تحمل اسم الاثيوبيين في الفقرتين السابعة عشرة . وينبغى على الدارس التفرقة بين الاثيوبيين الشماليين الذين يعتبرون من البربر وكانوا لا يزالون في ذلك الوقت في مرحلة العصر الحجرى الحديث ، وذلك لأن المغرب الداخلى الصحراوى والجبلى كان لا تزال تسكنه قبائل البربر وظلت لحد ما في مرحلة العصر الحجرى الحديث حتى العصر الرومانى ، بينما الاثيوبيون الجنوبيون قد تغلبت عليهم الصفة الزنجية بحكم تواجدهم في المنطقة المتاخمة مباشرة للاقاليم الاستوائية . ولم يتمكن التراجمة من أهل ليكسوس من التفاهم مع هؤلاء الاثيوبيين الجنوبيين لاختلافهم الكلى عن اخوانهم في الشمال . ومن الطريف أن فقرات النص التى تعبر عن الظواهر الطبيعية الجبلية والغابية والحيوانية في الاقاليم التى مرت بها الرحلة تتمشى أوصافها مع طبيعة الاقاليم الافريقية التى لا تزال حتى الوقت الحاضر تحمل لحد بعيد نفس مظاهر تلك الطبيعة . ويشير النص في الفقرات الثالثة عشر وما بعدها الى ظاهرة النيران المشتعلة في فترات غير منتظمة وأحيانا يصاحبها أصوات المزامير والطبول وصيحات التجمعات البشرية من حولها ، وهذه تعبر بما لا يدعو الى الشك عن الاحتفالات القبلية الزنجية التى

لا تزال صقوسها تمارس بصورة متفاوتة من مكان الى آخر . وكان لتواجد النيران المشتعلة فيها ما يبرره اما للاضاءة أو لابعاد القوى الشريرة أو لأغراض الدفء أو العبادة . ولكن الاشارة في الفقرة السادسة عشرة الى لهيب النيران المرتفع الذى ، حسب تعبير النص يلامس النجوم ، فيرمز ذلك الى بركان الكاميرون وهو لا يزال في منطقة الكونجو . ومما يؤيد الوصول الى المنطقة الاستوائية اشارة الفقرة السابعة عشرة من النص الى الغوريلات التى اعترضت الرحلة وقذفت أفرادها بالأحجار وغيرها من الظواهر التى تتسم الحياة الاستوائية .

هذه الرحلة تعتبر جهدا استكشافيا مبكرا في تاريخ حركات الاستكشاف الانسانى للعالم وتسبق هذه الجهود الاسبانية والبرتغالية وغيرها في محاولة الوصول الى اكتشاف القارة الافريقية والدوران حولها . ولذلك تعد هذه الخطوة القرطاجية احدى مآثرهم الخالدة في تاريخ الانسانية .

ولم يقتصر القرطاجيون على جهودهم الاستكشافية بقيادة هانو فهناك جهودهم على ساحل أوروبا الغربى بقيادة هملكو التى تمكن فيها من التعرف على ساحل اسبانيا الغربى وفرنسا الغربى . هذا بالاضافة الى جهودهم المتواصلة مع كل من الفرس والمصريين في محاولة اكتشاف الساحل الافريقى الشرقى ومحاولة الدوران حول القارة الافريقية من الشرق الى الغرب . ولقد كان لخبرتهم الطويلة بشئون الملاحة البحرية أثرها البالغ في استخدام كل من الفرس والمصريين لهم في العمل في السفن وقيادتها . ومن أشهر محاولات المصريين في هذا المجال تلك التى حدثت في عهد الملك المصرى نخاو الذى استمر في الحكم من ٦١٠ — ٥٩٤ ق.م. وكذلك تكليف الملك الفارسى اكزركسيس لأحد اتباعه وهو ساتاسبس Sataspes

بالدوران حول افريقيا من الغرب الى الشرق كمقابل له مما يؤكد تقدير المخاطر التى تواجه الرحالة في رحلاتهم هناك . وقد عثر أخيرا على بعض النصوص الفينيقية في البرازيل والتى يمكن اعتبارها كشواهد على امكانية وصول الفينيقيين الى ساحل أمريكا الجنوبية .

ولم تقتصر جهود القرطاجيين على عمليات الاستكشاف البحرية بل لقد نجحوا أيضا في عبور الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب . برغم ما اعترضهم من صعاب وأخطار ، فقد ذكرت النصوص نجاح رحالة قرطاجى اسمه ماجو في عبور الصحراء ثلاثة مرات دون الحصول على الماء في طريقه . ولكن هذه الاشارة الأخيرة تتضح فيها المبالغة ولكنها تؤكد حقيقة عبورهم الصحراء من قرطاج الى منطقة النيجر والسنغال .

وتعتبر هذه الرحلات مظهرا آخر من النشاط القرطاجى في الخارج ومحاولتهم استكشاف المناطق الافريقية المحيطة بهم ، ويتفق ذلك مع طبيعتهم البعيدة المدى المتوارثة عن أسلافهم الفينيقيين الذين بدأوا هذا الاتجاه الخارجى في تحركاتهم ونشاطهم التجارى والسياسى . ولكن على الرغم من هذه السيادة القرطاجية في مختلف المجالات في المغرب في ذلك الوقت فقد واجهت الدولة القرطاجية قوة خطيرة حاولت اجلائها عن الأرض المغربية واحلال نفسها مكانها واشعاع الفرقة بين عنصرين رئيسيين في الدولة وهما الفينيقيون والبربر وذلك في صراع رهيب نجح في نهايته الرومان في بداية العصر الرومانى في المغرب .

الفصـــل الرابـــع

العصر القرطاجي في جانبــــه السياســـي

المرحلـة الأخيـرة

لم تكن الدولة القرطاجية تنته من المرحلة الأولى في تاريخها السياسي وهي الخاصة بالصراع القرطاجي اليوناني حتى بدأت في الدخول في مرحلة جديدة في سجل حياتها السياسية وهي مرحلة الصراع القرطاجي الروماني ، تلك المرحلة التي أنهت الدولة القرطاجية كلية في المغرب وبدأت بعد ذلك مرحلة الاحتلال الروماني لشمال أفريقيا . وقبل التعرض الى حلقات الصراع القرطاجي الروماني والذي يعرف أيضا بالحروب البونية الأولى والثانية والثالثة ، خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، تنبغي الاشارة في بداية الأمر الى بعض الحقائق الأولية المتصلة بالتاريخ الروماني والتي تلقي بعض الضوء على البيئات الجغرافية والبشرية المحيطة بالدولة الرومانية الجديدة والتي كانت ذات فاعلية وثيقة خلال الصدام بالقوة القرطاجية .

بعض الحقائق الأساسية في التاريخ الروماني قبيل الصراع مع القرطاجيين :—

لم تكن عملية تكوين الدولة الرومانية بالمهمة السهلة بل قد مرت تلك المرحلة بعدة خطوات وصعاب محلية . وقد بدأت تلك الظواهر منذ نشأة مدينة روما على جزيرة في نهر التيبر حوالي سنة ٧٥٣ق ٠م٠ فقد حتم الموقع الجغرافي الممتاز لتلك المدينة تقلد الزعامة السياسية . وبدأت الاشكالات المحلية تواجه مدينة روما من العناصر المحيطة مثل العناصر الاترورية التي كانت تقطن في الشمال، والعناصر الايطالية مثل الأومبرية والسابلية شرقي نهر التيبر واللاتينية في جنوبه وغيرها من العناصر الأخرى، وبصفة خاصة العناصر اليونانية التي كانت تستحوذ على بعض المستعمرات التجارية الهامة في جنوب شبه الجزيرة الايطالية .

وقد بدأ التاريخ الرومانى بصفة خاصة بتمكن العناصر الاتروية من فرض سيادتها على روما في حوالى القرن السادس ق.م. وذلك بعد أن نجحت العناصر الاترورية في التوغل نحو الجنوب واجتياز نهر التيبر. ولكن من ناحية أخرى حدث ضغط بشرى شمالى آخر وهو ضغط الشعوب الغالية، وأدى ذلك الى اضطرار الاترويون الى التراجع نحو الشمال هذه الهجمات الجديدة عليهم. واستطاع الرومان انتهاز تلك الفرصة قرب نهاية القرن السادس ق.م. والتخلص من الحكم الاتروري وتكوين الجمهورية الارستقراطية سنة ٥٠٩ق.م.

وبدأت مدينة روما توطد علاقاتها مع المدن اللاتينية المحيطة وعقدت معها بعض المعاهدات التى تهدف الى تحقيق الوحدة الاقليمية تحت زعامة روما. ولكن تلك الوحدة اللاتينية قد واجهت اختبارا عنيفا عندما اتجهت العناصر الغالية الى غزو روما سنة ٣٩٠ق.م. ومن الأهمية بمكان الاشارة الى أن الدولة الرومانية الناشئة في ذلك الوقت قد اتجهت الى التحالف مع الدولة القرطاجية سنة ٣٤٨ق.م وتتعهد الدولة القرطاجية بمقتضى هذه الاتفاقية ألا تتدخل في شئون المدن اللاتينية بل أن تساعد روما على التحكم في تلك المدن في حالة عصيانها، والواقع أن العلاقات بين الدولة القرطاجية والدولة الرومانية قبل الحروب البونية كانت علاقات يسودها السلام لحد كبير. هذا وقد العلاقات الرومانية اللاتينية غير مستقرة تماما وذلك في مرحلة النمو الرومانى تجاه الوحدة الايطالية. واتجهت مدينة روما الى توسيع دائرة سيادتها في الأقاليم الايطالية منتهزة فرصة استنجاد بعض تلك الأقاليم بها مثل منطقة كامبانيا الذين كانوا قد هددوا من ناحية اقليم سمنيوم. وكذلك من ناحية أخرى فقد اضطرت مدينة روما الى التدخل بصدد الصعاب التى واجهتها مدينة تارنتوم الرومانية من ناحية السمنيين أيضا والتى أدت الى اتجاه تلك المدينة الى الاستعانة بملك ابيروس. وقد أدت هذه التدخلات الى الصدام بين الرومان والسمنيين في

حروب طويلة استمرت فيها السمنية الأولى من سنة ٣٢٦ الى سنة ٣٠٤ ق.م.
كما استمرت الثانية من ٢٩٨ الى ٢٩٠ ق.م. وقد وصلت الاشـــكالات
المختلفة التى واجهت مدينة روما في عملية صراعها الداخلى في سـبيل
السيادة الرومانية الى موقف جديد عندما تحالفت العناصر السمنية الأترورية
والغالية ضد السيادة الرومانية ، ولكن سرعان ما تمكن الرومان من ايقــاع
الهزيمة بهم في موقعة سنتينوم Sentinum سنة ٢٩٥ ق.م.

وقد اكتسبت روما في عمليات الصراع الداخلى السالفة الذكر عــدة
تجارب مكنتها في المدى البعيد من استخدامها وتحقيق سيادتها فـــي
النهاية . فقد اتجهت روما الى اتباع السياسة التحصينية في عملياتها الدفاعية
بأن أقامت نقاط الحراسة في أماكن متعددة تتصل مباشرة مع القيادة الرئيسية
في مدينة روما ذاتها بواسطة طرق ممهدة تسمح بسرعة الاتصال المباشــر.
وهذا التقليد الرومانى البحت قد استخدمه الرومان في كافة المناطق التــى
تحكموا فيها تدعيما لكيانهم السياسى والحربى . ويلمس الدارس بوضوح هذه
السياسة الرومانية في المغرب في فترة الاحتلال الرومانى والتى سيتعرض لها
الفصل التالى . ومن ناحية أخرى تنبغى الاشارة أيضا الى طبيعة السلوك
الرومانى الذى يميل الى الواقعية البحتة وروح المخاطرة والنزعة الحربيـــة
وكان يعمل على تحقيق هذه الخصال في عملياته السياسية .

وبعد أن فرغت روما من القضاء على أعدائها من الاتروريين والسمنيين
والغاليين اتجهت الى نشر سيادتها في الجزء الجنوبى من شبه الجزيـــرة
الايطالية الذى كان خاضعا للنفوذ اليونانى . وقد حدث أن ظهرت شخصية
يونانية هامة في ذلك الوقت وهى شخصية بيرهوس Pyrrhus على عـــرش
ابيروس وكان يأمل في تدعيم السيادة اليونانية في جنوب شبه الجزيرة الايطالية
وفي جزيرة صقلية ويوقف كل من النفوذ الرومانى والقرطاجى في غربى البحـــر
الأبيض المتوسط . وقد انتهز بيرهوس فرصة تأهب الدولة الرومانية الى تدعيم
سيادتها على الجنوب وحدث أن طلبت مدينة تارينتوم اليونانية النجدة فتقدم

نحو تلبية هذا الطلب أملا في نفس الوقت تحقيق غرضه البعيد المدى .
ولكن هذا التدخل اليوناني الجديد سرعان ما حول الموقف من معركة
محلية الى صراع دام بين القوى الكبيرة في غربي البحر الأبيض المتوسط .
وفي بداية الأمر انتصر بيرهوس في معركة هرقليا سنة ٢٨٠ق ٠م ٠ عندما
استخدم الفيلة في اثارة الرعب والذعر في نفوس الرومان مما أزعج مجلس
الشيوخ الروماني . ولم يستكمل بيرهوس تقدمه بعد ذلك نحو روما ذاتها
بل اتجه نحو لجزيرة صقلية لمساعدة العناصر اليونانية ضد القرطاجيين
هناك . وزاد هذا التدخل الموقف تعقدا في جزيرة صقلية ولكن حسم
الموضوع قد تم على يد الرومان الذين اشتبكوا في معركة نهائية معه في
موقعة سمنيوم سنة ٢٧٥ق ٠م ٠ والتى انتهت بانتصار القوات الرومانية
وتحقيق سيادتها على شبه الجزيرة الايطالية ٠ومهد ذلك نحو تحقيق
الزعامة الرومانية وظهور روما كدولة قوية جديدة وخطيرة في المنطقة ٠وكان
من المنتظر تغير العلاقات السلمية بين تلك الدولة الرومانية والقرطاجيين
لتنازع كل منهما حول السيادة السياسية والحربية ، والاقتصادية في غربي
حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد حدث ذلك فعلا في مراحل الصراع
القرطاجي في أثناء الحروب البونية الأولى والثانية والثالثة .

الحرب البونية الأولى :

كان من المتوقع كما سبقت الاشارة تصادم القوتين الرئيسيتين في
منطقة غربي البحر الأبيض المتوسط وهما القوة الرومانية والقوة القرطاجية
حول السيادة السياسية والاقتصادية في المنطقة . ولم يكن هذا التصادم
مقتصرا على مرحلة واحدة بل لقد تعددت جوانبه في عدة حروب برية
وبحرية في المغرب وفي صقلية وفي أسبانيا وفي ايطاليا، وتعرف تلك الحروب
باسم الحروب البونية Bellum Punicum وذلك أثناء القرنين
الثالث والثاني قبل الميلاد . أما الحرب البونية الأولى فقد استمرت من سنة
٢٦٤ الى ٢٤١ق ٠م ٠وتضمنت عدة معارك في جزيرة صقلية وفي الأرض المغربية .

وقبل التعرض الى الأسباب المباشرة لهذه الحرب وبعض معالمها الرئيسية تنبغى الاشارة مرة أخرى الى أن العلاقات القرطاجية الرومانية لم تكن من السوء بدرجة تحتم هذا التصادم الحربى الهائل، بل كانت تلك العلاقات يسودها السلام قبل هذه الحرب. وقد دعم هذا السلام بالمعاهدات التى تحدد نشاط كل طرف في المنطقة تأكيدا لعدم تواجد دواع للصدام بينهما . هذا بالاضافة الى أن هذه العلاقات السلمية قد وصلت الى درجة تقبل قرطاجة مبدأ مساندة روما في حالة تعرضها لبعض الاشكالات في سبيل سيادتها في شبه الجزيرة الايطالية . وترجع سجلات هذه الاتفاقيات السلمية الى القرن السادس والرابع قبل الميلاد . ولكن هذه العلاقات سرعان ما توترت بسبب عدم استقرار الأوضاع السياسية في جزيرة صقلية وهى نفس الأسباب التى كانت من عوامل التصادم بين القرطاجيين واليونانيين . وكان التقليد الذى تتبعه المدن الصقلية هو طلب الاستعانة تارة بالقوة القرطاجية وتارة أخرى بالقوة الرومانية حسب تقدير مدى القوة الفعلية الحربية والسياسية في وقت طلب المساعدة . ولا ينبغى على المؤرخ في نفس الوقت تجاهل سياسة كلا القوتين القرطاجية والرومانية في الرغبة الملحة في التوسع والسيادة الاقتصادية والسياسية على حساب المدن الصقلية من ناحية والقوى المنافسة من ناحية أخرى . وقد ظهر ذلك عندما حاولت مرة أخرى مدينة سيراكيوز أن تحتل دور الزعامة في جزيرة صقلية ولم يكن ذلك يتفق مع رغبة مدن أخرى صقلية مثل أكراجاس التى استعانت بالدولة القرطاجية . وقد اتصف الموقف السياسى في ذلك الوقت بالنسبة الى تلك الأزمة الطارئة بالصفة الدولية لأنه قد اشتركت فيه عدة قوى مثل القرطاجيين واليونانيين والصقليين والرومان، وكل طرف من هذه الأطراف له مراميه السياسية الخاصة . وبدأت الأزمة في التواجد عندما اتجه الملك بيرهوس Pyrrhus ملك ابيروس Epirus الواقعة في غربى بلاد اليونان والمطلة على الجزء الجنوبى من البحر الادرياتيكى في التدخل في هذه المشكلة سنة ٢٧٨ق.م. وكان يتميز بشخصيته الطموحة الراغبة في التشبه بالاسكندر الأكبر . ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون

الاطمئنان الى موقف الرومان من هذه الأزمة ولكن تدخل بيرهوس قد غير ميزان القوى التقليدى في المنطقة ، بل لقد وصل الأمر الى تطور خطير عندما اتجه بيرهوس الى تهديد الدولة القرطاجية في عقر دارها مقلدا بذلك بعض الساسة اليونانيين الذين حققوا الى حد ما خطتهم هذه واستعد بيرهوس فعلا لهذا الهدف ولكن ولكن اضطراره الى العودة الى جنوب ايطاليا قد حال دون ذلك . وكان الموقف من وجهة النظر الرومانية يحتم ضرورة تحرير الجنوب الايطالى من القوى الدخيلة ونشر السيادة الرومانية على كافة أجزاء شبه الجزيرة ، وتمكن الرومان فعلا من الانتصار على بيرهوس في الجنوب وبذلك وبذلك انحصرت القوى الرئيسية المتنافسة في غربى البحر الأبيض المتوسط على الرومان والقرطاجيين . وأصبحت عوامل التصادم المباشر بين هاتين القوتين قوية لأن الدولة القرطاجية قد اتجهت الى محاولة سيادتها الكلية مرة أخرى على جزيرة صقلية منتهزة فرصة رجوع بيرهوس وتوقف المساعدة اليونانية لمدينة سيراكيوز . وقد دعم هذا الكيان القرطاجى تقبل مدينة مسينا في شمال جزيرة صقلية السيادة القرطاجية . وكانت روما تعتبر ذلك تهديدا لأمنها في حدودها الجنوبية لأن مدينة مسينا تتاخم السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الايطالية . هذا بجانب تحكم القرطاجيين في جزيرة سردينيا مما يمكن اعتباره أيضا من وجهة النظر الرومانية مصدر تهديد غربى للأمن الرومانى ، وقد ازدادت دوافع التدخل الرومانى في الموقف عندما حدث اتفاق تحالف بين هيرو حاكم سيراكيوز وبين الدولة القرطاجية ضد الرومان . وكان قد حدث أن تمكنت مجموعة من الجنود المرتزقة الايطاليين والذين كانوا في خدمة ملك سيراكيوز من دخول مدينة مسينا والاستيلاء عليها ولكن هذا الوضع أعتبره كل من هيرو والقرطاجيين شاذا وينبغى التوجه مباشرة لانهائه ، لأنه يعتبر خطيرا جديدا على السيادة القرطاجية في الجزيرة وكذلك على مدينة سيراكيوز . ولكن هوءلاء المرتزقة الايطاليين تنبهوا الى القوة الرومانية الشابة في المنطقة واتجهوا الى طلب معاونتها وتدخلها لانقاذهم قبل أن يتدخل القرطاجيون ويتحكموا في الموقف . وازاء هذا التطور السريع عدل الملك هيرو سياسته من

التحالف مع القرطاجيين الى التحالف مع الدولة الرومانية التى أبـــدت استعدادها للتدخل الفعلى ومساندة الايطاليين في مسينا وأرسلت قواتها التى تقدمت نحو سيراكيوز ذاتها مما اضطر القرطاجيون الـــى الانسحاب من هذا الموقف الحرج والاستعداد للمعارك القادمة مـــع الرومان ، وبذلك بدأت الحرب البونية الأولى .

كانت هذه الحرب بحرية الطابع بوجه عام وعلى ألرغم من الخبـــرة الأولية المحدودة للرومان في المجال البحرى فقد تفطنوا الى ضرورة تجهيز قوات بحرية مستعدة لمواجهة القوة القرطاجية المتدربة على الملاحة البحرية بصورة ماهرة منذ أجدادهم الفينيقيين . ولذلك انتهز الرومان فرصـــة استيلائهم على احدى السفن الحربية القرطاجية وتمكنوا من تقليدها وعلـــى نطاق واسع مستكملين بذلك أسطولهم المجهز بالأسلحة اللازمة للحـــروب البحرية ،فقد كانت السفن الرومانية مجهزة بالطوابق اللازمة للمجذفين يصل بعضها الى خمسة طوابق والبعض الاخر الى أقل من ذلك ولكن هذاالتسليح الرومانى البحرى لم يكن ليصل الى درجة التسليح القرطاجى حيث كانـــت السفن القرطاجية تتميز بسرعتها وقدرتها على الدوران والتوجه بخفة نحـــو أهدافها ،وتمكن الرومان من تعديل صناعاتهم السفن الحربية على اثـــر اكتسابهم لعدد من التجارب في هذا المجال وحتى تتمشى مع تحقيق الانتصار في العمليات البحرية الحربية . وكذلك اتجه القرطاجيون الى الاستعداد من ناحيتهم بتجهيز قواتهم من الجنود المرتزقة بقيادة هانو ثم هملكار ثـــم هانيبال من بعده وتركزت تلك القوة القرطاجية بمدينة أكراجاس بجزيرة صقلية . ولم يهمل القرطاجيون أيضا قوتهم البحرية المكملة لقواتهم البرية والتى توفر لهم الامدادات والتموين اللازم ، وواجهت القوى الرومانية والقرطاجية بعضهـــا بعضا سنة ٢٦٢ق٠م٠ في ليبارا ثم في ميلاى بجوار مسينا وتمكنت القـــوة الرومانية من الانتصار في هذه المعركة البحرية . وقد استمرت المصادمـــات القرطاجية الرومانية في هذه الحرب تتأرجح بين الانتصار والهزيمة ،فبعد نجاح

الرومان السالف الذكر سرعان ما واجهتهم الهزيمة في موقعة ثرماى سنة ٢٥٩ق٠م٠ ولكن هذه المناوشات والسجال بين الطرفين لم يصل الى نتيجة حاسمة الا عندما أتجه الرومان الى محاولة نقل الجبهة الحربية بصورة موءقتة من المجال البحرى الى المجال البرى على أرض المغرب ذاتها متبعين نفس التقليد اليونانى السابق الاشارة اليه في هذا الصدد ، وذلك سنة ٢٥٦ق٠م٠

واتجهت القوة الرومانية الجديدة بقيادة القنصلين م ٠ فالسو M. Vulso وأ٠ رجولوس A. Regulus في طريقها الى الشاطىء المغربى ٠ وعلى الرغم من محاولة القرطاجيين الوقوف في طريقهم فقد نجح الرومان في تفادى ذلك والانتصار على القرطاجيين والرسو بالقوة الرومانية في أسبس Aspis شرقى عنابه ٠ وقد أحدث هذا الوضع الجديد اضطرابا شديدا في أرجاء الدولة القرطاجية لأن الرومان أصبحوا في موقف يهدد الأمن القرطاجى بصورة مباشرة ٠ ولكن من ناحية أخرى لم يكن من السهل على الرومان في تجربتهم الجديدة تموين قواتهم في الجبهة الغربية لمدة طويلة ، ولذلك لم يتمكن الرومان من الاستمرار في المغرب٠ وقد عجل القرطاجيون بمضاعفة استعداداتهم العسكرية لمواجهة هذا الخطر الحاسم فاستدعو هملكار من صقلية وانتخب قائدان جديدان هما هزدروبال بن هانو وبوسكار للقيام بدور القيادة القرطاجية ،كما استدعى أيضا الأسطول القرطاجى لتدعيم الدفاع عن العاصمة القرطاجية ٠ وتقدم القائد الرومانى رجولوس نحو تونس في طريقه الى قرطاج العاصمة ، وكذلك اتجهت القوة القرطاجية محاولة ايقاف الرومان ولكن هوءلاء الأخيرين نجحوا في الاستيلاء على تونس ٠ ومن التطورات الهامة في هذا الموقف المتحرج انتهاز البربر هذه الفرصة ومحاولتهم الثورة ضد القرطاجيين وكان هذا الشعور من ناحية البربر يتفق مع نزعتهم الجديدة الاستقلالية الهادفة الى التخلص من النفوذ القرطاجى واليونانى والرومانى كذلك فيما بعد ، وكانت العلاقات بين القرطاجيين والبربر مسالمة للغاية منذ استقرار الفينيقيين

واندماجهم معهم في المغرب ،ولكن المعاملة القاسية التي عومل بهـا البربر من الجنود المرتزقة في بعض المواقف،وكذا التأخر في دفع الأجور المستحقة لهم ، قد أثار نفوسهم وحفزهم نحو الاحتجاج ضد القرطاجيين منتهزين فرصة تأزم الموقف تجاههم . ولكن على الرغم من هذه الصعاب الكثيرة فقد تمكن القرطاجيون من انقاذ الموقف وذلك بالاستعانـــة بشخصية يونانية اسبرطية خبيرة بالشئون الحربية وهي شخصية اكسانثيبوس Xanthippus . فقد أبدى هذا القائد اليوناني استعداده لتدريب القرطاجيين وتعديل خططهم الحربية بدرجة متفوقة تمكنهم من الانتصـار في معاركهم القادمة مع الرومان . وكان هذا التخطيط الجديد عامـــلا مباشرا في استعادة القرطاجيين لسيادتهم في المغرب وايقاع الهزيمـــة بالرومان بل وأسر قائدهم رجولوس سنة ٢٥٥ق.م. وبذلك تبدل الموقـف مرة أخرى وأصبحت للدولة القرطاجية مكانتها في المنطقة . وعلى الفور اتجه القرطاجيون الى استكمال قواتهم وتنظيمها من جديد استعدادا للعمليات الحربية المنتظرة مع الرومان . ولم يكن من السهل على الرومان تقبل الهزيمة بهذه الصورة الشديدة فاتجهوا مرة أخرى سنة ٢٥٣ق.م، الى الساحل القرطاجي ،ولكن محاولتهم لم يتحقق لها النجاح ولذلك اقتصروا على المجال الصقلي ولو بصورة مؤقتة . وفي هذه المنطقة الأخيرة تمكنوا من احراز الانتصار على القرطاجيين الذين حاولوا تدعيم نفوذهم في صقلية بمهاجمة أحد المراكز الرومانية في غربي الجزيرة وهي مدينة بانورموس Panormus وذلك بقيادة هزدروبال . وبذلك اختل ميزان القوى السياسية مرة أخرى وتصادمـــت القوتان القرطاجية والرومانية في المجال البحري وتمكن القرطاجيون من أسر عدد من السفن الرومانية . ومع ذلك فقد اتجه القرطاجيون أيضا الى زيـادة تدعيم قواتهم في صقلية ،فأرسلت قوة قرطاجية جديدة بقيادة كارثالـــــو Carthalo وتقدم على اثر ذلك القنصل الروماني أ. بولوس Pullus الى التصدي الى هذه القوة القرطاجية ونجح الرومان في ايقاع كارثالو بقواته بين قوتين بحريتين رومانيتين . ولكن ذلك لم يؤد الى انهاء هذه الحـــروب

البحرية الثاني في المعركة التالية عندما استعد الرومان بعد تجاربهم الطويلة في للمجال البحرى استعدادا كبيرا وواجهوا القرطاجيين بها . وكـــان القائد الرومانى لتلك القوة هو القنصل كاتولوس Catulus كما كان القائد القرطاجى البحرى هو هانو بينما القائد القرطاجى للقوات البرية هو هملكار برقة . وتمكن كاتولوس من ايقاع الهزيمة البحرية بالقرطاجيين واضطر هملكـار برقة الى عقد اتفاقية سلام مع الرومان دفعت فيها الدولة القرطاجية ثمنا بالغا لهزيمتها ، فقد نصت هذه المعاهدة على جلاء القرطاجية عن صقلية والالتزام بعدم مهاجمة سيراكيوز وكذلك التعهد بدفع غرامة كبيرة وذلك سنة (٢٤١ق.م) وبذلك انتهت الحرب البونية الأولى بانتصار الرومان في المجال البحرى على القرطاجيين وفرض سيادتهم على جزيرة صقلية بل لقد انتهز الرومان فرصـــة اندحار الدولة القرطاجية وانشغالها بالاضطرارات الداخلية التى ظهرت على اثر انتهاء الحرب مباشرة ، وهى ثورات العناصر البربرية ضد القرطاجيين والتى اختارت فرصة ضعفها للحصول على حقوقهم والتمهيد لسيادتهم المستقلة واتجهت الدولة الرومانية الى التحكم في جزيرتى سردينيا وكورسيكا مؤمنة جانبها الغربى كما سبق أن أمنت جانبها الجنوبى .

وبذلك تغير الموقف الدولى على اثر هذه الحرب البونية الأولى وأصبحت الدولة القرطاجية محدودة النشاط في نطاقها البحرى الشمالى ولذلك اتجهت نحو جبهة جديدة تتمكن فيها من تحقيق سيادتها الاقتصادية والسياسيـــة بعيده نسبيا عن المنافسة الرومانية وهذه الجبهة هى منطقة أسبانيا . ولكـــن الرومان لم يتركوا القرطاجيين منفردين في هذه الجبهة بل استمروا في تعقبهم لهم فيها .

ويمكن للدارس محاولة تفسير فشل القرطاجيين في الحرب البونية الأولـى أمام الرومان الى عدة عوامل ، أولها يتصل بظاهرة خطيرة في تاريخ المغـــرب في العصر القرطاجى وهى أن العنصر الفينيقى الذى نجح في الاستقرار فـــي

المغرب ونقل حياته الى العصر التاريخى بمختلف مظاهره والتأثير فيه والتأثر به في كافة المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية والاجتماعية لم يكن على درجة الاندماج الكلى مع العنصر البربرى أثناء العصر القرطاجى ولم يكن من التكامل الكلى والجزئي بدرجة تجعل منها شعبا قرطاجيا واحدا في ذلك الوقت . وكانت بعض العناصر البربرية قد اندمجت فعلا داخل اطار الدولة القرطاجية ولكن البربر في جملتهم لم يدخلوا تحت هذا الاطار . وربما يرجع ذلك الى الاستمرار احتفاظ القرطاجيين بطبيعتهم الفينيقية الأولى وهى الطبيعية التجارية مع وجود بعض محاولات للنفوذ داخل القارة الافريقية ، ولكن كانت الطبيعة البحرية هى الغالبة مما قلل من ظاهرة الاندماج الكلى مع البربر . هذا بالاضافة الى استخدام القرطاجيين للبربر كجنود مرتزقة في الجيش والبحرية القرطاجية وبصفة خاصة في سلاح الفرسان لمهارتهم التقليدية في ركوب الخيل والعدو . ولكن حدث كما سبقت الاشارة أثناء مراحل الصراع القرطاجى اليونانى وكذلك الصراع القرطاجى الرومانى بعض مظاهر القسوة في معاملة ، ووضعهم في المقدمة ، وكذلك تأخير أجورهم المستحقة . كل ذلك قد أثار هذا العنصر الرئيسى في العصر القرطاجى ودفعه نحو الثورات المتتالية ضد القرطاجيين ثم محاولة الاستقلال الكلى والتخلص منهما .

ثانى تلك العوامل يمكن ارجاعه الى حقيقة عدم وجود جيش قرطاجى دائم منظم ومدرب لأداء وظيفة الدفاع عن الوطن . فان ظاهرة استخدام الجنود المأجوريين وقت الحاجة تجعل احتمالية الانتصار وتوقفه على الوفاء بأجور هؤلاء الجنود واختيار اللائقين منهم وكذلك عمليات تدريبهم على الأسلحة المختلفة وخاصة لأنه في تلك الفترة بدأت تتطور تلك الأسلحة تطورا كبيرا يمكن اعتباره عاملا حاسما في الانتصارات الحربية والبحرية مثل المجانيق الكبيرة للقذف بالكتل الحجرية على أسوار المدن وكذلك الكلبشات الحديدية القلابة للسفن وكذلك استخدام انعكاسات الأشعة الشمسية على المرايا واستغلال ذلك في اشعال الحرائق في السفن وتجمعات العدو .

وثالث العوامل يرجع الى عدم استقرار الأوضاع الداخلية السياسية داخل الدولة القرطاجية فلا يزال هناك النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة فبينما يتجه البعض الى الثروة المعتمدة على نتاج الأراضى الزراعية يتجه البعض الآخر الى المكاسب الآتية من التجارة المعتمدة على الأسواق التى يلزمها الابحار الدائم والاستيراد والتصدير وما يتصل بها من عمليات بيع وشراء . وكذلك هناك رجال الجيش وطبقات الشعب الأخرى . وتنافست بعض هذه الطبقات بل وتنافس بعض القادة حول السيادة السياسية ، مما أدى الى عدم وجود وحدة الرأى السياسى القرطاجى . وقد أثرت هذه المنازعات السياسية الداخلية على العمليات الحربية فكانت من أسباب تعطيل الانتصارات لعدم الموافقة على ارسال الامدادات في الوقت المناسب بسبب هذه المعارضة . وكان لكل جانب حزبه من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى مما يؤدى الى انقسام المجلس وعدم الوصول الى رأى نهائى موحد بصدد احدى السياسات المعروضة على المجلس . وقد نتج عن هذه العوامل الثلاثة عدم نجاح القرطاجيين في احراز الانتصار على الرومان ليس فقط في الحرب البونية الأولى بل في الثانية والثالثة .

وقد كانت الفترة الواقعة بين الحربين البونيتين الأولى والثانية من الفترات التى تجلت فيها هذه العوامل السالفة الذكر . ففيما يتعلق بخطورة عدم التجانس بين البربر والقرطاجيين والتأخر في دفع الأجور بالنسبة الى الجنود المرتزقة فقد تجلى ذلك عندما اتجه أحد الجنود المرتزقة وهو ماتو Matho ومعه أحد العبيد الفارين واسمه سبنديوس Spendius الى دفع نفوس البربر نحو الاحتجاج والثورة ضد القرطاجيين داخل نطاق الدولة القرطاجية ، وأيضا في المجال القبلى حتى تكون ثورة البربر لها الصفة الجماعية الشاملة مما يساعد على النجاح . ووصلت هذه الثورة الى درجة التمكن من مهاجمة القرطاجيين واجبارهم على الانعزال داخل أسوار مدنهم . وتسلم هملكار برقة زمام القيادة القرطاجية وتمكن أخيرا من الانتصار وايقاف

هذه الحركة البربرية الانفصالية . ومن أهم الظواهر التى تجدر الاشارة اليها هى أن بعض البربر كانوا لايزالون يحملون جانب التعاون والتجانس مع القرطاجيين وكان على رأسهم نافاراس Navaras وكان ذلك من الأسباب المباشرة في التعجيل بانتصار هملكار برقة .

وكذلك مثال آخر لظاهرة النزاع السياسى الداخلى القرطاجى في تلك الفترة ذلك التنافس بين كل من هانو وهملكار حول الزعامة السياسية في ذلك الوقت ، والذى انتهى بتمكن هملكار برقة الاستحواذ على الزعامة القرطاجية . وقد انتهز البربر مرة أخرى هذه الأزمة السياسية الداخلية وحاولوا القيام بحركة حربية ضد القرطاجية ،ونجحوا الى حد كبير في تهديد الكيان القرطاجى ووصلت حالة القرطاجيين الى درجة شديدة من السوء وتمت محاصرة البربر لمدينتهم حتى أن الحاجة الملحة الى الطعام بين الجنود المرتزقة في الجيش القرطاجى قد دفعتهم النحو العودة الى بعض العادات القبلية الأفريقية في عصور ما قبل التاريخ وهى أكل لحوم البشر Cannibalism . ولم ينقذ الموقف غير براعة هملكار برقة ، في استخدامه وسائل التحايل على البربر حتى سنحت له الفرصة المناسبة والتحكم الكلى في الموقف الحربى وانهاء هذه المحاولة البربرية واعادة السادة القرطاجية . ومع ذلك فقد استمر القرطاجيون في صراعهم المرير ضد الرومان محاولين تعويض خسائرهم في الحرب البونية الأولى وذلك بالاتجاه جزيرة أيبيريا كمحاولة لاتخاذها كقاعدة جديدة ضد الرومان والانتقال منها بالطريق البرى الى شبه جزيرة ايطاليا .

وكانت المبررات الأولية لاتجاه القرطاجيين الى شبه جزيرة أيبيريا تنحصر في الأغراض الاقتصادية واستغلال الخامات النحاسية والفضية الكائنة هناك . ولكن الواقع أن هملكار عندما اتجه الى أسبانيا كان يهدف أيضا الى تحقيق هذه القاعدة العسكرية الجديدة ، فقد عمل على تكوين قوة حربية من العناصر المرتزقة الأيبيرية واستخدام الثروات الناجمة عن استغلال

المعادن في اجتذاب المتاوسين بالانخراط في قواته العسكرية . وكان يبرر هذه التصرفات للرومان على اعتبار كونها تهدف الى استكمال القدرات المالية القرطاجية للتمكن من دفع التعويضات المستحقة للرومان بعد الحرب البونية الأولى .

وبعد وفاة هملكار سنة ٢٢٨ ق . م . أثناء احدى العمليات الحربية في أسبانيا تسلم زمام القيادة عزروبال أو كما يسمى صدر بعل . وكان يختلف كلية في شخصيته عن سلفه لأنه كان يفضل الوسائل السلمية بدلا من الحربية في تعامله مع العناصر الأيبيرية . وقد دعم اتجاهه هذا بأن تزوج بابنة أحد الرؤساء الأيبيريين . وكان لهذه الخطوة أثرها البالغ في تقبل الأيبيريين للسيادة القرطاجية . ومن أهم أعماله أيضا تدعيما للسيادة القرطاجية في أسبانيا تأسيسه مدينة قرطاجنة أو قرطاجة الجديدة Carthage Nova أو Carthagena .

وقد نتج عن ذلك تذمر الرومان على اثر ازدياد ميل الأيبيريين للجانب القرطاجي . ومع ذلك فلم يتفرغ الرومان لمعاودة صراعهم ضد القرطاجيين في أسبانيا بسبب انشغالهم المباشر في صراع آخر في شمال شبه الجزيرة الايطالية مع العناصر الغالية . وحسما لاحتمالية تحالف القرطاجيين مع الغاليين ضد الرومان ، فقد اتجه الأخيرون الى عقد معاهدة مع القرطاجيين سنة ٢٢٦ ق . م . فحواها السماح للقرطاجيين بالتوسع في شبه جزيرة ايبيريا على ألا يتخطوا نهر أير وشمالا بأية حال من الأحوال . ورغم هذا الاتجاه السلمي للقائد عزروبال فقد قتل على أيدي أحد الأيبيريين .

وتولى زمام القيادة القرطاجية بعده هانيبال العظيم أو كما يسمى أيضا حنبعل Hannibal . وسرعان ما بدأ طورا جديدا في العلاقات القرطاجية الرومانية بمجيء هذه الشخصية الشابة القوية الطموحة باصرار لتحقيق سيادة

القرطاجيين والانتقام من الرومان . وقد عمل هانيبال على تنفيذ قسمة الذى ربطه به والده هملكار برقة وهو أن يعمل على تحقيق الانتصار وأن يبغض الرومان وينتقم لبلاده منهم مدى الحياة مما أدى الى نشوب الحرب البونية الثانية .

الحرب البونية الثانية :

تعتبر هذه الحرب حلقة أخرى من حلقات المنافسة الشديدة بين القوتين القرطاجية والرومانية حول السيادة السياسية والاقتصادية في حوض البحر الأبيض المتوسط ولذلك فأسباب هذه الحرب البونية الثانية التى امتدت من سنة ٢١٨ق٠م٠ الى سنة ٢٠١ق٠م٠ ترجع في صورتها العامة الى نفس الدوافع المؤدية الى الحربين البونيتين الأولى والثالثة ، ولكن كانت هناك بعض الأسباب المباشرة في هذا الصدد . وكان ذلك عندما اتجه هانيبال الى الاستمرار في متابعة تأكيد السيادة القرطاجية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية استكمالا للعمليات التي سبق أن بدأها والده. ولم يقابل ذلك بعين الرضا من وجهة النظر الرومانية لأنه يعتبر بمثابة تأكيد للقاعدة القرطاجية الجديدة في غربى البحر الأبيض المتوسط ، مما يؤثر على الكيان الرومانى الذى خرج من الاطار الايطالى البحت واتجه نحو السيادة الرومانية في المنطقة . وقد بدأ الرومان بمحاولة استخدام الوسائل السلمية الدبلوماسية في هذا الصدد فأرسلوا سنة ٢٢٠ق٠م٠ بعثة الى هانيبال تهدف الى التفاوض معه كمحاولة للحد من استمرار توسعه في أسبانيا ،ولو أنها في صورتها المباشرة كانت ترمى الى مساندة مدينة ساجنتوم Saguntum شمال تراجنة ، والتى أبدت ميلها نحو الرومان ، ضد النفوذ القرطاجى الهادف الى التحكم في كافة أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية . ولم يكن من السهل على القائد هانيبال تقبل وجهة نظر البعثة الرومانية على التو ولذلك رفضها واتجه سنة ٢١٩ق٠م٠ الى اقامة الحصار حول هذه المدينة تمهيدا للتحكم فيها . ومن الأهمية بمكان الاشارة في هذا الصدد الى مثال آخر من أمثلة

اختلاف وجهات النظر بين الساسة القرطاجيين حتى في الأوقات الحرجة ، فقد اتجه هانيبال الى التعرف على وجهة نظر العاصمة القرطاجية في مسألة البعثة الرومانية قبل الاقدام على عمليات حربية ، ولكن الحزب الكامن في قرطاج بقيادة هانو أبدى معارضته على وجهة نظر هانيبال ،وعلى الرغم من ذلك فقد اتجه هانيبال الى تحقيق رأيه معتمدا على قوته العسكرية وزعامته وشخصيته الفذة وتحكمه في الموقف في هذه القاعدة القرطاجية الجديدة . وكان هانيبال يدرك النتائج المباشرة لتصميمه الأخير، فاتجه بقواته الى شمال اسبانيا وعبر نهر ابدو مخالفا بذلك الاتفاقية مع الرومان ، مما أدى الى نشوب الحرب البونية الثانية . والواقع أن القوة القرطاجية البحرية قد ضعفت كثيرا بعد الحرب البونية الأولى ،ولم يكن أمام الدولة القرطاجية غير اتباع الخطة المبنية على أساس مهاجمة روما بواسطة الطريق البرى بدلا من الطريق البحرى ،ولذلك كانت عملية تأسيس المراكز القرطاجية العسكرية في أسبانيا ذات فائدتين احداهما اقتصادية والأخرى حربية .

ويمكن للدارس أن يقسم الحرب البونية الثانية بين القرطاجين والرومان الى جبهتين رئيسيتين هما الجبهة الأوروبية والجبهة الأفريقية أو بالأحرى المغربية وفيما يتعلق بالجبهة الأوروبية فقد التحم القرطاجيون في عدد من المعارك الشديدة مع الرومان منذ الخطوة الأولى البادئة بخروج هانيبال وجيشه سنة ٢١٨ ق٠م٠ في طريقة الى شبه جزيرة ايطاليا . ولقد سبق لكل من اليونانين والرومان تهديد الدولة القرطاجية في عقر دارها ،وثبتت خطورة هذه الخطة الحربية وتهديدها المباشر للكيان القرطاجى ولذلك اتجه هانيبال الى تحقيق نفس الخطة في مهاجمته للدولة الرومانية . وكان عامل السرعة من أهم العوامل المؤثرة في الموقف لأن التأخر الزمنى في تحقيقها يعنى احتمال قيام الرومان بنفس الخطة تجاه القرطاجيين في المغرب،

وبذلك يفشل هانيبال في عمليته الحربية . وقد أدى ذلك الى تعجيل هانيبال بتنفيذ خطته رغم ما يكتنفه الطريق نحو روما من صعاب شديدة وبصفة خاصة جبال الألب والقبائل التى لا تزال على طبيعتها البرية في تلك المنطقة ، هذا بالاضافة الى مقاومة الرومان . ونجح هانيبال في تحقيق خطته ولم يتوان الرومان من محاولة ايقاف هانيبال وجيشه الزاحف فبعثوا بالقنصل الرومانى سكيبيو P.Cornelius Scipio لكى يقوم بمقاومة هانيبال من ناحية وأيضا لكى ينتهز فرصة طول خطوط مواصلات وتموين العدو ويحاول استغلال ذلك في حرمانه من عمليات الامدادات والتموين مما يؤدى الى فشله . ولم يكن هانيبال من ذوى الخبرة المحدودة بل كانت لديه تجاربه وقدراته التى سمحت له بالنجاح في تجنب محاولة سكيبيو السالفة الذكر والافلات منها ببراعة . ولا يعنى ذلك عدم تكبد هانيبال لأية خسائر مادية أو بشرية فقد كانت صعوبة الطريق وطول المسافة والحالة الجوية من الأسباب التى انهكت قواته من الجنود المرتزقة وبصفة خاصة من العناصر الغالية . أما عن موقف سكيبيو بعد فشله في ملاقاة هانيبال فقد اضطر الى العودة الى ايطاليا لمقابلته هناك . وفعلا تقابلت القوتان في معركة شديدة عند نهر تربيا Teebbia وقد تمكن القرطاجيون فيها من احراز الانتصار ، وكان لهذا الفوز الأول أثره البالغ في هذه المرحلة من الصراع القرطاجى الرومانى . وذلك لأن أعداء الرومان لم يقتصروا في ذلك الوقت على العناصر القرطاجية بل لقد كانت هناك العناصر الغالية التى كانت تنتهز الوقت المناسب للزحف على روما وانهاء السيادة الرومانية ، وكذلك كانت هناك بعض العناصر الايطالية الأخرى مثل العناصر السمنية في الجنوب والتى كانت تريد التخلص من الزعامة الرومانية على الوحدة الايطالية . ولذلك فقد كان انتصار هانيبال على الرومان في شمال ايطاليا حافزا على تشجيع هذه العناصر المعارضة لروما في الاستمرار على اتجاهاتها السياسية بل وتأييد هانيبال في عملياته الحربية .

والواقع أن هذه الظاهرة السياسية من الأهمية بمكان لأنها توضح ايجابية سياسة هانيبال في عملياته الحربية ضد الرومان لأنه حسب وجهة نظره

كان يرمى الى تحقيق الفرقة والانقسام داخل الوحدة الايطالية تحت الزعامة الرومانية وبذلك يتمكن من قهر روما بعد تفتيتها داخليا . وكان يعتمد في هذا الصدد على أمل استجابة هذه العناصر الايطالية الخطته الانفصالية النزعة هذه ولذلك فحتى هذه المرحلة من هذا الصراع الشديد في الجبهة الأوروبية من الحرب البونية الثانية يمكن للدارس اعتبار هانيبال منتصرا في خطاته الحربية والسياسية في صراعه مع الرومان . وقد أكد هانيبال خطته هذه بعقدة اتفاقات تحالف مع العناصر الغالية ضد الرومان تدعيما لسياسته هذه ومثال آخر يؤيد سياسته هو اطلاقه سراح الأسرى الايطالى الأصل بعد انتصاراته ضد الرومان محاولا بذلك تشجيع هذه العناصر الايطالية على الانفصال عن سادتهم الرومان ولكن رغم نجاح هذه الخطة فان مآلها في المدى البعيد لم يكن مجديا الى درجة حدوث الانفصال الشامل بين شعوب وولايات الوحدة الايطالية ضد روما ، ولذلك فخطة هانيبال قد نجحت في بوادرها ولكنها قد فشلت في نهايتها .

وكان هانيبال يستخدم في عملياته الحربية في الجبهة الأوروبية تكتيك الكائن والتمويه مما يؤدى اسقاط أعدائه فيها وبذلك يتمكن من الانتصار وقد حدث ذلك في عدة معارك مثل معركتى تراسيمنوس Trasimenus في اقليم اتروريا وموقعة كنائى Cannae قرب ساحل البحر الادرياتيكى جنوبى شرقى ايطاليا . وفي المعركة الأولى نجح هانيبال في الايقاع بقوة القنصل الرومانى فلامينيوس Flaminius في كمين شمال شاطئ بحيرة تراسيمينوس بينما كان هانيبال مختفيا مع جيشه في الغابات المحيطة ، وانقض على الجيش الرومانى غير المتنبه لهذا الخطر الكامن وأحرز الانتصار على الرومان بعد مفاجئتهم والهجوم عليهم . ومثال آخر لتحايل هانيبال في عملياته الحربية حدث في منطقة كمبانيا Campania عندما اتجه هانيبال الى تسيير قطيع من الثيران رابطا في قرونها حطبا مشتعلا أثناء الليل وموجها اياها نحو المعسكر الرومانى مما أدى الى احداث الاضطراب في معسكرات العدو، وانتهز هانيبال تلك الفرصة وأفلت من مواجهة الرومان .

وقد ترددت السياسة الرومانية بشأن خطتها تجاه هانيبال فبينما اتجه بعض القناصل الرومان الى استخدام القوة العسكرية والالتحام مع القرطاجيين فقد اتجه ، البعض الآخر الى التزام الحكمة وتفضيل ارهاق العدو وعدم مجابهته مباشرة الا بعد أن يكون قد انهكته العمليات الحربية ولم يصل الى نتيجة حاسمة ، وفي ذلك الوقت يمكن القضاء عليه . وكان صاحب هذه السياسة الأخيرة هو الدكتاتور ماكسيموس Q. Fabius Maximus . ولكن ذلك لم يحل في النهاية دون حدوث الاصطدام المتوقع بين الرومان والقرطاجيين وذلك في عهد القنصلين فارو C.T.Varro وباولوس A. Paullus حيث تقابلت القوتان في معركة كناى وتمكن القرطاجيون أيضا من احراز الانتصار على الرومان في هذه الموقعة الهامة .

ويواجه المؤرخ في هذه المرحلة الحاسمة من الحرب البونية الثانية موقفا في غاية الدقة فمن وجهة النظر القرطاجية كان هانيبال منتصرا حتى ذلك الوقت على الرومان وكان في امكانه استكمال هذا الانتصار والتحرك تجاه العاصمة الرومانية وانهاء سيادة أعدائه ، ولكن ذلك لم يحدث فعلى الرغم من انتصارات هانيبال فقد فضل الاتجاه نحو الجنوب بدلا من الاتجاه نحو العاصمة الرومانية . ويغلب أن خطة هانيبال هذه تتفق مع سياسته السابقة المعتمدة على بث الفرقة داخل الوطن الايطالى تمهيدا لاحراز النصر النهائي على الرومان . ومن ناحية أخرى لم تكن عملية الاستيلاء على العاصمة الرومانية من السهولة بمكان لأن وسائل التحصين الرومانى كانت متوفرة كما أن القوة القرطاجية بعد عملياتها الحربية المتعددة وبعد خطوط تموينها ومواصلاتها عن الوطن القرطاجى أو القاعدة القرطاجية الاسبانية قد جعل امكانية الانتصار على مدينة روما المحصنة غير مضمون النجاح ، ولذلك فضل هانيبال عدم الاقدام على مهاجمة العاصمة الرومانية .

وقد حدثت بعض الاضطرابات النفسية الشديدة في المجتمع الرومانى على اثر هذه الهزائم المتكررة ، ولكن على الرغم من ذلك فلم يفقد الرومان

شجاعتهم وقدرتهم على التحمل فأثبتوا بذلك حقيقة خصالهم المبنية على أساس الجلد والقوة والاحتمال ، ولذلك اتجهت روما الى اعادة تجهيز قواتها العسكرية وتحصين العاصمة الرومانية واستكمال المؤسسات الدفاعية بصورة عاجلة ازاء هذا الموقف المتأزم .

ومما يؤكد عدم اطمئنان هانيبال على اكتمال قواته العسكرية في تلك المرحلة من الحرب ، على الرغم من انتصاراته السابقة ، أنه كان في أشد الحاجة الماسة الى المؤن والذخيرة اللازمة لجيشه . ويمكن الاستدلال على ذلك من ثلاثة أحداث هامة أولها طلبة النجدة العسكرية من حكومته القرطجية وارساله ماجو شقيقه الأصغر الى قرطاج كمحاولة لتدعيم مطالبته هذه المعونة ولكن سبقت الاشارة أنه كان للنزاع الداخلى بين الأحزاب القرطاجية أثره في عدم تحقيق طلب هانيبال بصورة كاملة ، ولكن بدرجة رمزية للغاية . فقد كان هانو الزعيم القرطاجى المعارض لا يؤيد وجهة نظر هانيبال ولذلك لم يحقق له طلبه . ومن ناحية أخرى لم تتحقق أيضا هذه الرغبة في مساندة قواته من الجبهة الأسبانية لانشغال القوات القرطاجية في محاولة تدعيم مركزها هناك ، وخاصة لأن الرومان قد شددوا من مقاومتهم للسيادة القرطاجية في أسبانيا مستخدمين في هذا السبيل القوات البرية والبحرية ومعتمدين أيضا على حلفائهم من المدن الاسبانية وأيضا في مسيليا Massilia قرب مصب نهر الرون ، بل لقد كانت القوة القرطاجية بقيادة هزدروبال في أسبانيا في حاجة هى الأخرى الى المعونة العسكرية . ولكن على الرغم من ذلك فقد حاول هزدروبال التوجه الى مساعدة شقيقه هانيبال ولكن تفطن الرومان الى هذه الحركة الحربية ونجح القنصل الرومانى نيرون C. Nero في انتظاره في الوقت المناسب عند نهر ميتاوروس Metaurus في اقليم أومبريا وتمكن من الانتصار على هزدروبال بل والتنكيل به بدرجة فظيعة وذلك بارسال رأسه الى هانيبال نكاية فيه .

أما الحادث الثانى فيمكن ملاحظته في ظاهرة تتعلق بالعقيدة القرطاجية حيث يلمس المؤرخ خلال التاريخ القرطاجى أثناء فترات تأزم المواقف الحربية

وبصفة خاصة بين الجنود المرتزقة في الجيش ،اتجاههم الى استخدام ظاهرة التضحية البشرية تقربا للقوى الالهية وأملا في مساندتها للجيش القرطاجي . وقد حدثت هذه العملية في تلك المرحلة الدقيقة من الحرب البونية الثانية مما يؤكد سوء أخرى ذبذبة النفوس وعدم استقرارها الكامل داخل نطاق الجيش . ويلاحظ الدارس أن هذه التضحية البشرية كانت بعناصر غالية ويونانية ربما على أساس كونها ليست من صميم عناصر الجيش القرطاجي . ومن ناحية أخرى يمكن القول أنه في هذا الوقت الحاسم لم تتقدم القبائل الغالية بتحقيق المساندات الحربية الفعالة للقرطاجيين مما أدى الى اضطرار هانيبال الى البحث عن هذه المساندة من طرف آخر غير دولته القرطاجية أو القاعدة القرطاجية في أسبانيا أو حلفائه من العناصر الغالية بل من قوة جديدة لمعت في المحيط الدولي في تلك الفترة وأظهرت عداءها الشديد للدولة الرومانية وهي القوة المقدونية وعلى رأسها الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا . ويمكن اعتبار ذلك يمثل الحادث الثالث المؤكد لموقف هانيبال وعدم اقدامه للهجوم المباشر على روما . وينبغي على الدارس اعتبار هذه الرغبة المقدونية في التدخل في الشئون الايطالية والصقلية حلقة جديدة من حلقات الصلات اليونانية في غربي البحر الأبيض المتوسط والتي كانت لها فاعليتها السابقة في هذه المنطقة .

ويمكن القول بأن ظاهرة التحالف بين المقدونيين والقرطاجيين لم تكن صادقة بمعنى الكلمة ،لأن كلا من العنصرين له مطامعه الخاصة رغم اتفاقهما في عدائهما للرومان . وقد سبقت الاشارة الى مراحل الصراع اليوناني القرطاجي ،وليست مقدونيا سوى احدى الدول اليونانية الأصل ،وليس من السهل تقبل التحالف الكامل معها . ولم تقف الدولة الرومانية مكتوفة الأيدي ازاء هذه المحالفات السياسية بل سرعان ما عملت على تكوين أحلاف يونانية أخرى مثل الحلف الآخي والحلف الأيتولي في بلاد اليونان ضد الملك فيليب الخامس . وتستمر الدولة الرومانية في العمل على محاربة مقدونيا حتى تتمكن في النهاية من ايقاع الهزيمة بها في معركة كينوسكفلاي Cynoscephalae في.

الحرب المقدونية الثانية سنة ق٠م٠ ، وفي الحرب المقدونية الثالثة في معركة بيدنا Pydna سنة ١٦٨ ق٠م٠ وانتهت الدولة المقدونية على اثر هزيمتها الأخيرة في الحرب المقدونية الرابعة سنة ١٣٨ق٠م٠

وعلى ذلك لم يصل موقف هانيبال المتحرج في جنوب شبه الجزيرة الايطالية الى خطوة متقدمة نحو الانتصار النهائى بل أدت بوادر الفشل في عملياته السياسية والحربية تظهر على اثر عدم فاعلية المحالفات مع كل من الغاليين والمقدونيين ٠ وكذلك واجهت جزيرة صقلية في هذه المرحلة من الصراع الرومانى القرطاجى حلقة من حلقات هذا النزاع ، وذلك عندما تنازعت الأحزاب السياسية داخل مدينة سيراكيوز بين الاتجاه القرطاجى أو الرومانى وذلك على اثر وفاة حاكم سيراكيوز وهو الملك هيرو Hero . وقد حاول كل من القرطاجيين والرومان تأييد مؤيديه في صقلية ، وتطور الموقف الى حرب شديدة بحرية وبرية بين الطرفين تمكن فيها الرومان من احراز الانتصار ودخول مدينة سيراكيوز سنة ٢١١ق٠م٠

وتعقد الموقف بالنسبة الى هانيبال على اثر هذه التطورات الخطيرة وأصبح مركزه حرجا في شبه الجزيرة الايطالية فهو في مسيس الحاجة الى المؤن والامدادات، ولكن طريق هذه المساعدات مشوب بالصعاب ، ولذلك يمكن اعتبار مصير الحرب البونية الثانية في جبهتها الأوروبية قد بدأ يتحول من جانب الانتصار القرطاجى الى بداية التراجع أمام الرومان في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد ذلك الى أن ينحصر أخيرا في الجبهة المغربية .

ولم تكن الدولة القرطاجية تركز طاقتها على الجبهة الايطالية بل لقد كانت الجبهة الاسبانية تحتل مكانة رئيسية أيضا في نضال القرطاجيين مع الرومان . ورغم تردد الدولة القرطاجية في ارسال الامدادات الحربية اللازمة فقد كانت تضطر الى التسهيل بها عندما يتأزم الموقف الى درجة شديدة ، وقد حدث ذلك في أسبانيا فأرسلت الدولة القرطاجية قوة حربية بقيادة أخوى هانيبال وهما

ماجو وهزدروبال . وقد نجحت هذه النجدة في اعادة السيادة القرطاجية في الجبهة الاسبانية ولو بصورة مؤقته ، لأنه سرعان ما تغير ميزان القوى مرة أخرى على اثر بزوغ شخصية رومانية قوية كانت لها فاعليتها الحاسمة في اعادة السيادة الرومانية الى الجبهة الأسبانية واجلاء القرطاجيين عنها ، صاحب هذه الشخصية هو كورنيليوس سكيبيو أو كما يسمى أيضا شبيرن P. Cornelius Scipio وقد أطلق عليه أيضا الافريقي Africanus لأنه كان صاحب الخطة الرومانية الرامية الى غزو المغرب وانهاء السيادة القرطاجية فيه . فقد تفطن سكيبيو الى أوضاع القوات القرطاجية في الجبهة الأسبانية واستخدم اسلوب المباغتة في الحرب ونجح في هذا السبيل . ولم يتمكن القائد القرطاجي هزدروبال برقة ولا القائد القرطاجي الآخر هزدروبال بن جزجو من الصمود أمام سكيبيو مما أدى الى انسحاب القرطاجيين من الجبهة الاسبانية وفقدانهم قواعدهم الاسبانية وعلى رأسها مدينة قرطاجنة التي خلدت سيادتهم في هذه المنطقة . وقد ازداد موقف هانيبال حرجا على اثر هذه الهزيمة وأصبح محصورا في شبه الجزيرة الايطالية بعد أن انقطعت خطوط مواصلاته البرية واشتدت عليه عمليات الحصار البحري . ولم يقتصر الموقف عند هذا الحد بل لقد اتجه سكيبيو الى خطة جريئة خطيرة وهي نقل مكان المعركة من الأرض الايطالية الى الأرض المغربية وبذلك يرغم هانيبال وقواته الى الجلاء عن شبه الجزيرة الايطالية في أسرع وقت ممكن للقيام بالدفاع عن وطنهم . وهكذا تطورت الحوادث الحربية والسياسية تطورا يختلف عن بدايتها وأصبح الموقف أكثر وضوحا نحو انتصار الرومان في هذه الحرب البونية الثانية .

وبذلك بدأت الجبهة الأفريقية أو بالأحرى المغربية في هذه الحرب ولم تكن الموافقة على فتح هذه الجبهة باجماع السادة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لأنه قد ظهرت بعض الاعتراضات داخل اجتماعات هذا المجلس على أساس ابداء الرغبة في التخلص من هانيبال وجيشه أولا قبل المبادرة بفتح ميدان جديد للحرب، وذلك لاحتمال انتهاز هانيبال ارسال القوات الرومانية الى

الجبهة المغربية والقيام بعملية انقضاض على العاصمة الرومانية . ولكن هذا الرأى لم يقابل بالتأييد لأن هانيبال كان في موقف في غاية الحرج لا يسمح له باتخاذ هذه الخطوة . ومما يؤيد ذلك أنه بمجرد فتح الجبهة المغربية سرعان ما استدعته الدولة القرطاجية للقيام بدور الدفاع عن الوطن . وكان انتخاب سكيبيو قنصلا خطوة فعالة نحو تحقيق وجهة نظره السالفة الذكر . وقد قابلت الدولة القرطاجية هذا القرار الروماني بانزعاج شديد ولم يكن من السهل على قرطاج استجداء الصلح والسلام في هذا الموقف الدقيق ولذلك قررت الدولة القرطاجية ارسال حملة حربية الى الأرض الرومانية بقيادة ماجو ، ولكن هذه الخطوة لم تؤد فاعليتها في اضعاف عزيمة الرومان نحو تحقيق خطتهم الجديدة وهى فتح الجبهة المغربية في صراعهم مع القرطاجيين .

وقبل الاحاطة بهذا الصدام الجديد بين الطرفين على أرض المغرب تنبغى الاشارة مرة أخرى الى أهمية القوة البربرية في المغرب . لقد وصلت تلك القوة الى درجة هامة في اقرار الاوضاع السياسية والاقتصادية في تاريخ المغرب القديم في تلك الفترة . فقد تمكنت هذه العناصر البربرية من تكوين ممالك مستقلة لحد كبير تحاول الدخول في معترك النزاع السياسي بالمغرب والخروج منه محرزة استقلالها الكامل ، ولو كان ذلك على حساب أحد الطرفين القرطاجيين أو الرومان . ولذلك كان من الطبيعى تدخل هذه القوة البربرية في صميم هذا الصراع . وقد حاول كل من القرطاجيين والرومان استمالة البربر نحوهم كسبا لتأييدهم المادى والمعنوى من ناحية وابعادا لمقاومتهم من ناحية أخرى . وقد بادر القرطاجيون اتخاذ هذه الخطوة بالتحالف مع سيفاكس Syphax رئيس مملكة مازيسيلة Massaesyli وذلك على الرغم من أن البربر بوجه عام كانوا متفطنين الى غايات كل من القرطاجيين والرومان مع ذلك فقد قبلوا هذا التحالف على أساس امكانية اكتساب بعض الفوائد من ورائه . وقد دعم القرطاجيون هذا التحالف مع البربر بالزواج السياسي وذلك عندما قبل سيفاكس الزواج من سوفونسبه Sophonisbe أو صفان بعل بنت

هزم روبال بن جزجو . وعندما فشلت محاولات الرومان للتحالف مع سيفاكس أو على الأقل ابقاء تحالفه مع القرطاجيين فقد اتجهوا الى أحد الرؤساء البربر الآخرين وهو الاغليد أى الرئيس أو الملك ماسينسا رئيس دولـــة ماسيله Massyli ، ويعتبر ماسينسا من أهم الشخصيات البربرية التى نجحت في تحقيق الكيان البربرى المستقل في المغرب ، بل لقد تمكن من توسيع أرجاء مملكته فشملت المنطقة الداخلية الممتدة من ليبيا حتـــى المحيط الأطلسى في أوج سيادتها متضمنة نوميديا الشرقية والغربية أو كما أطلق عليها ماسيلة ومازيسله . وكذلك دعم هذه السيادة بحضارة بربريـــة متأثرة ببعض المؤثرات القرطاجية مثل اللغة البونية والخلط البونى الجديد وكذلك ببعض المؤثرات الدينية القرطاجية اليونانية الأصل وذلك بالاضافة الى نشر المدنية المستقرة بين أرجاء القبائل البربرية التى أنهت بصـــورة حاسمة في تلك الفترة حياتها القبلية البحتة واتجهت الى الحياة الحضريـة وبذلك انقسم البربر الى فريقين أولهما برئاسة سيفاكس في الجانـــــب القرطاجيين والآخر وهو ماسينسا في جانب الرومان . وحقيقة انقسام البربر هذه كانت من أهم أسباب تأخر وحدتهم السياسية وتكوين دولة مستقلة .

وتمكن القنصل الرومانى سكيبيو في تنفيذ خطته العسكرية في الجبهة الافريقية في ربيع سنة ٢٠٤ ق.م. عندما نجح في انزال قواته في منطقة أوتيكا وبذلك فتح الرومان هذا الميدان الحربى الجديد مما اضطر القرطاجيـــين الى المبادرة بتخصيص قواتهم العسكرية للدفاع عن قرطاج وأصبح من المستحيل اسداء المعاونة والامدادات الى هانيبال في شبه الجزيرة الايطالية ، كمـــا أصبح من المحتم استدعاء هانيبال الى قرطاج لمواجهة الموقف .

وقد حدثت في تلك الأثناء حادثة هامة لها مغزاها ، فعلى الرغم مـــن تحالف سيفاكس مع القرطاجيين بل وارتباطه معهم بصلة النسب فقد عـــرض التدخل بين القرطاجيين والرومان في مفاوضات تهدف الى محاولة انهاء هذه

الحرب قبل تطوره الى مراحل أكثر خطرا . وهذا الموقف يؤكد مسرة أخرى عدم تمسك البربر قلبا وقالبا بتحالفهم مع القرطاجيين أو الرومان بل كانوا في حقيقة الأمر يرغبون في التخلص منهما . ومن ناحية أخرى لم يكن من السهل على القائد الرومانى سكيبيو بعد وصوله فعلا الى أرض المغرب وتحالفه مع ماسينسا الدخول في عملية تصالح مع القرطاجيين في ذلك الوقت لأنه من وجهة النظر الرومانية كان الموقف في جانبهم والانتصار على وشك الوقوع ، ولكن مع ذلك فلم يمانع كلا الطرفين بالتظاهر بالتفاوض كسبا للوقت الذى يمكن استغلاله في تدعيم الاستعدادات العسكرية وأيضا كشفا لقوات الطرف الآخر الى أن يحين الوقت المناسب للالتحام الفعلى بينهما . ولذلك تخللت هذه الفترة من الحرب في الجبهة الافريقية بعض الحيل المستغلة كظرف لتمهيد للحرب في سبيل التعرف على استحكامات العدو والتأثير على حالته النفسية مما يكون نتائجه في المفاوضات بين الجانبين . ومثال ذلك تلك اللعبة الخطرة التى اقترفها سكيبيو عندما قام باشعال النيران سرا في قاعدة البربر الموالين للقرطاجيين مما أدى الى الحاق الضرر البالغ بهم والتأثير على نفسيتهم وموالاتهم للقرطاجيين ولكن هذه المفاوضات بين الطرفين لمن تسفر عن اتفاق وبدأ كل من الرومان والقرطاجيين في الاستعداد النهائى نحو المعركة المنتظرة بينهما . ولذلك اتجه سكيبيو الى منطقة تونس ونجح في احراز الانتصار على القرطاجيين وبدأ يهدد العاصمة القرطاجية وقد أفلحت الخطة الرومانية في التأثير على نفسيه البربر الموالين للقرطاجيين ومن ناحية أخرى تشجيع ماسينسا وقواته البربرية على الأقدام نحو القرطاجيين وحلفائهم من بربر سيفاكس . وقد ماسينسا من الايقاع بسيفاكس والانتقام منه ومن زوجته القرطاجية صوفو نيسبه أو عافان بعل ولكن الأخيرة قد ثأرت لنفسها ووطنها وفضلت انهاء حياتها بالانتحار بدلا من الحياة مع أعدائها من بربر ماسينسا والرومان . وكان لهذه الحادثة أثرها البالغ في نفوس القرطاجيين الذين أصبحوا منفردين بأنفسهم دون حلفاء معهم في صراعهم ضد الرومان وحلفائهم من البربر مما زاد من أعبائهم الحربية في هذا الموقف الحرج .

ووصل هانيبال الى قرطاج وهو مكره على ذلك بعد فشله في تحقيق الانتصار الذى كان قاب قوسين أو أدنى على الرومان . وقد ظهرت بعض بوادر احتمالية السلام على أساس التفاوض بين الطرفين لأن الأزمة القرطاجية في حربها الطويلة مع الرومان قد وصلت الى ذروتها مما يحتم الرغبة في المطالبة بانهاء هذه الحرب. ولكن سكيبيو لم يكن ليوافق على ذلك دون اشتراطات قاسية تنهى السيادة القرطاجية في مجال البحر الأبيض المتوسط وأيضا في المجال المغربى بصورة مذلة للسيادة القرطاجية التى كانت في بداية هذه الحرب صاحبة لواء الانتصار، ولذلك فان امكانية عقد اتفاقية سلام بين القرطاجيين والرومان قد أصبحت في نطاق الاستحالة .

وتقابل الجيشان القرطاجى بقيادة هانيبال والرومانى بقيادة سكيبيو في معركة حاسمة هى معركة زاما Zama سنة ٢٠٢ق.م. ويطلق عليها أيضا جامه ويحددها ورمنجتن بأنها قريبة من ناراجرا Naragara وهى ساقية سيدى يوسف ، بينما يحدد مكانها صفر بأنها "قرب الضريح القائم بقصر طوال الزوامل وفي أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماصوج شمالا والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية جنوبا والذى يصل بين سهل سليانه وسهل السرس" . وقد تمكن الرومان في هذه المعركة الهامة من احراز الانتصار على القرطاجيين رغم استخدام الأخيرين لكافة طاقتهم الحربية . واضطر هانيبال الى طلب السلام وعقد معاهدة الصلح مع الرومان . وأجابه الرومان الى طلبه رغم استطاعتهم في ذلك الوقت الاستمرار في الحرب ولكن كانت الجهود الضخمة التى بذلها الطرفان تتطلب ذلك .

ولقد كانت هذه المعاهدة سنة ٢٠١ق.م. خاتمة لهذه الحرب البونية الثانية وحوت نصوصها الكثير من عناصر الاذلال والمهانة للقرطاجيين فقد تعهدوا بتحمل الالتزامات المالية الخاصة بدفع تكاليف القوات الرومانية وكذلك التعويضات المستحقة عن الخسائر ، والمساعدات اللازمة في حالة الحاجة اليها ، هذا بالاضافة الى تحديد سفن القوات القرطاجية البحرية بعشرة سفن لا غير ،

مع عدم السماح لها بالدخول في حرب داخلية أو خارجية بدون موافقة الشادة الرومان . ومن أهم اشتراطات المعاهدة السماح لماسينسا امتلاك الاراضى التى قيل أنها كانت أصلا في حوزته مما أدى الى تحديد قطاع قرطاج بمساحة ترجع بها الى بداية مرحلة استقرار الفينيقيين في المغرب ، وبذلك تغير ميزان القوى في حوض البحر الابيض المتوسط وأصبحت قرطاج دولة محدودة الكيان السياسى والحربى وأصبحت روما القوة الأولى في المنطقة بأسرها . أما عن موقف القائد العظيم هانيبال بعد ذلك الهزيمة فقد أصبح محفوفا بالمخاطر نظرا لنقم بعض الساسة القرطاجيين عليه واعتباره مسئولا عن هذا الفشل رغم جهوده الجبارة واصلاحاته الداخلية في الفترة الوجيزة التالية مباشرة للحرب . ولذلك آثر الخروج من قرطاج والاستمرار في طريق محاربة الرومان ولكن في جبهة مشرقية بعد أن حاربهم في الجبهة المغربية . وقد التحق بقوات الملك السورى انطيوخوس الثالث ثم اتجه بعد ذلك الى بيثنيا وآثر أخيرا انهاء حياته بنفسه بالانتحار وتناول السم سنة ١٨٣ ق . م . وبذلك انتهت حياة هذا القائد المغامر بعد بذل الجهود المضنية في سبيل بلاده ، ومع ذلك فقد ظل الصراع القرطاجى الرومانى كامنا ومكبوتا الى أن حان الوقت، لاستئنافه مرة ثالثة وأخيرا في الحرب البونية الثالثة .

وفي الفترة الواقعة بين الحربين البونيتين الثانية والثالثة حاولت الدولة القرطاجية بكافة الوسائل استعادة مكانتها رغم ثقل الأعباء المالية والاقتصادية والسياسية المسئولة عنها ، وقد استغرق ذلك بعض الوقت ومن ناحية أخرى انتهز الرومان فرصة انهائهم لهذه الحرب الطويلة وبدأوا في القيام ببعض الاصلاحات الداخلية الرومانية وكذلك اتجهوا الى تخليص روما من بقية المعارضات التى ظهرت في المشرق حتى تستكمل سيادتها على كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد قام الرومان بمحاربة الملك السورى أنطيوخوس الثالث ونجحوا في الانتصار عليه في معركة

مجنيسيا Magnesia في آسيا الصغرى سنة ١٩٠ ق.م. وكذلك وطدوا سيادتهم الكاملة على شبه الجزيرة الأسبانية وتمكنوا من انهاء ثورة القبائل المحلية وبذلك تمهد الطريق نحو تأسيس الامبراطورية الرومانية . ومن أهم أحداث الفترة بين الحربين ، نجاح ماسينسا في انتهاز فرصة ضعف القرطاجيين وتحقيق دولته البربرية . ولكنه لم يكتف بهذا القدر من السيادة بل كل يطمع أيضا في التوسع على حساب بقية أملاك الدولة القرطاجية .

ولما كان نص المعاهدة الموقعة بين القرطاجيين والرومان يحرم الأول من القيام بالحرب دون اذن الرومان فلم يكن أمام القرطاجيين غير استجداء الرومان بصدد التدخل لايقاف ماسينسا من استمراره في الاستيلاء على المواقع القرطاجية . وكان ماسينسا يعمل على التظاهر الكامل بالتحالف مع الرومان ، وفي نفس الوقت يوغر صدورهم بالكراهية الشديدة ضد القرطاجيين بل ويصل في هذا الصدد الى المجاهرة باتهامهم باستعادة نشاطهم المعادى للرومان . ولم تكن استجابة الرومان لهذا الموضوع عادلة بل كان يتجسد فيها التحيز الواضح تجاه البربر ويظهر ذلك في بعثتهم التى أرسلوها الى قرطاج برئاسة كاتو M.Porcius Cato لمحاولة حسم النزاع بين البربر والقرطاجيين . وقد أنهت هذه البعثة مهمتها بالحث على ضرورة افناء الدولة القرطاجية حسما لهذا النزاع المستمر معها . وتبين حرفية أقوال كاتو هذا الرأى عندما يقول " في رأى أن قرطاج يجب أن تدمر . ولم يكن الرومان على ثقة تامة بالبربر رغم اتضاح ميلهم نحوهم لأنهم كانوا يتخوفون من ازدياد نفوذ البربر وبذلك تظهر قوة جديدة في المغرب تحل محل القرطاجيين وتهدد الدولة الرومانية ولذلك تعددت الآراء بين الرومان بصدد الاجراء النهائى الذى ينبغى اتخاذه مع البربر والقرطاجيين في منازعاتهم الأخيرة .

وقد عاود البربر مهاجمتهم للأراضى الخاضعة للنفوذ القرطاجى وذلك على اثر حادثة معينة تتلخص في أن ماسينسا قد أرسل كلا من ماسيبسا وغولوسة ابنيه في بعثة الى قرطاج ، ولكن كانت المعاداة القرطاجية للبربر قد وصلت الى

أبعد مدى على اثر تحرشاتهم واستفزازاتهم على حساب القرطاجيين ، ولذلك قرر كرثالو Carthalo منعهم من دخول مدينة قرطاج بل لقد اعتدى على بعض أتباعهم . وكانت هذه الحادثة عاملا مباشرا في استئناف الحروب بين كل من القرطاجيين والبربر . وعلى الرغم من كبر سن الاغليد ماسينسا حيث كان قد بلغ حوالى الثامنة والثمانين من عمره فقد حمل لواء قيادة الجيش البربري في هذه الحرب. أما رئاسة الجيش القرطاجي فقد كانت للقائد هزدروبال . وقد تمكن القرطاجيون من الانتصار في بداية الحرب ولكن العوامل التقليدية في الجيش القرطاجي مثل عدم اتباع وسائل النظافة اللازمة قد أدت الى عدم تمكن القرطاجيين من متابعة هذه الحرب بنفس القوة كبدايتها . ولم يكن موقف الرومان موقف المستطلع للأحداث بل لقد كان عزمهم على افناء الدولة القرطاجية لأمراء فيه ، ولكن كانت عمليات الاستعداد سائرة في سبيل الاستكمال والانتظار للوقت المناسب . وقد شعرت الدولة القرطاجية بخطورة هذا الموقف وحاولت تجنب تدخل الرومان في هذه الأزمات المستمرة بين القرطاجيين والبربر ولكن دون جدوى ، فقد كان تصميم الرومان في هذا الصدد نهائيا . وقد وصلت حالة القرطاجيين النفسية الى درجة غير عادية من السوء ، ويتضح ذلك عندما طلب منهم الرومان احضار ثلاثمائة رهينة ، وكذلك تسليم كافة الأسلحة القرطاجية البرية والبحرية نظير ايقاف التهديد بالتدخل العسكري في شئون حسم النزاع بين القرطاجيين والبربر . وقد نصت اشتراطات الرومان في هذا الشأن أن تكون تلك الرهائن من الأطفال من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي . ومع كل تلك المبالغة في معاملة الرومان للقرطاجيين فقد اضطر القرطاجيون الى تحقيق هذه المطالب رغم شدتها . ولكن الرومان من ناحية أخرى عندما تبينوا حقيقة تحرج القرطاجيين استمروا في مبالغاتهم في مطاليهم بأن أبدوا رغبتهم بأن أبدوا رغبتهم بأن يترك القرطاجيون مدينة قرطاج كلية وينتقلوا الى مكان آخر ولكن هذا التعنت الشديد من الجانب الروماني لم يكن ليطيقه القرطاجيون بأي ثمن كان . ولذلك سرعان ما ثارت نفوس القرطاجيين واشتدت عزيمتهم

وصمموا على مواصلة الحرب مع الرومان ، وبذلك استؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى ، وتعرف بالحرب البونية الثالثة .

الحرب البونية الثالثة :

استمرت هذه الحرب من سنة ١٤٩ ق.م. الى سنة ١٤٦ ق.م. كافح فيها القرطاجيون عن حياتهم ومصيرهم في شكل بطولي منقطع النظير. وتظهر قدراتهم الفائقة عند قيامهم بعملية الاستعداد لهذه الحرب. وعلى الرغم من أنهم كانوا قد سلموا أسلحتهم للرومان ، فانهم لم ييأسوا بل سرعان ما ضاعفوا جهودهم وأعادوا بناء طاقتهم الحربية مرة أخرى وبذلوا جهودا فريدة في هذا الصدد الى درجة أن النساء قد سمحن باستخدام شعورهن كحبال في بعض مستلزمات الأسلحة. وقد تسلم زمام القيادة القرطاجية القائد هزدروبال أما القائد الروماني فكان سكيبيو . ويلاحظ الدارس أن المدن الخاضعة للسيادة القرطاجية لم تكن جميعها في صف القرطاجيين بل انحاز بعضها الى جانب الرومان وعلى رأسها مدينة سوسه كما استمرت مجموعة أخرى الى جانب القرطاجيين وعلى رأسها بنزرت . وبدأت القوتان القرطاجية والرومانية في الاشتباك المسكرى. وقد كان لعمليات التحصين القرطاجي أثرها البالغ في الدفاع عن مدينة قرطاج ، ومثال ذلك الخنادق والحيطان القوية التي كانت تستخدم كحواجز دفاعية ، وعلى الرغم من نجاح الرومان في اقتحام أحد جوانب المدينة فقد نجح القرطاجيون في صدهم ولم يتوانوا عن الانتقام منهم أشد انتقام . ومن الأحداث الهامة التي وقعت أثناء الحرب البونية الثالثة وفاة الاغليد ماسينسا سنة ١٤٨ ق.م. لأنه قد ترتب على ذلك عودة البربر الى مرحلة أخرى من الفرقة السياسية بعد أن نجح ماسينسا الى حد كبير في جمع شملهم . ومما يؤكد توثق صلات الرومان بالبربر ولموالين لماسينسا في ذلك الوقت تدخل القائد الروماني سكيبيو في هذه الشئون البربرية الداخلية وحضور عملية تقسيم سلطات المملكة البربرية بين أبناء ماسينسا الثلاث وهم ميكيبسا ومستمنبعل وغولوسة ولكن سرعان ما انفرد ميكيبسا بهذه المملكة . وتأكيدا لاستمرار تحالف الرومان

مع البربر اصطحب سكيبيو معه غولوسة ليعاونه في عملياته الحربية ضد القرطاجيين ، وأيضا لكى يؤمن البربر على علاقاتهم الطيبة مع الرومان .
ولكن ذلك لم يحل دون محاولة القرطاجيين اجتذاب مجموعات أخرى من البربر الى جانبهم في هذا الصراع الدامى بينهم وبين الرومان وبربر ماسينيسا وكانت هذه المجموعات الجديدة في أقصى المغرب أى القبائل البربرية الموريطانية . ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة حاسمة لأن الرومان قد نجحوا في توطيد صلاتهم بالبربر وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين ، على الأقل في المجال الحربى ، وبذلك نجحوا في نشر الفرقة بينهم . ولا يعنى ذلك استمرار هذه الصلات المتوترة بين القرطاجيين والبربر بل لقد كان للجانب الفكرى اعتبار خاص بين الطرفين . فعلى الرغم من استمرار العمليات الحربية الطويلة بينهما واندحار القرطاجيين كلية في نهاية الحرب البونية الثالثة فقد تقبل البربر تركة القرطاجيين الفكرية المسجلة في بقايا مكتبتهم الحاوية لفكرهم وأدبهم وتراثهم في ذلك الوقت . وكان لذلك أثره في استمرار الصلة الفكرية بينهم . ومن أهم مظاهر ذلك أيضا استمرار اللغة البونية الجديدة وكذلك التأثر بالعقيدة القرطاجية الى حد كبير .

ولم تكن عملية الاستيلاء على قرطاج العاصمة بالمهمة السهلة أمام القوات الرومانية وذلك لعدة أسباب منها شدة التحصينات المحيطة بالعاصمة القرطاجية ، وكذلك وجود منفذ بحرى تستطيع بواسطته مواصلة مقاومتها للغزاة . هذا بالاضافة الى صلابة القرطاجيين واستماتتهم في سبيل المحافظة على مدينتهم الخالدة . ولم يحل ذلك دون نجاح الرومان من اقتحام أحد أبوابها والنفوذ منه الى المدينة ، وبذلك تمكنوا من احداث أولى الثغرات في نطاق التحصينات القرطاجية مما أدى الى تحكمهم بعد ذلك في المدينة . ولكن واجهتهم مشكلة المنفذ البحرى الذى كان يعتبر طريقا لتموين المدينة ، ولذلك اتجه الرومان الى التحكم في هذا المرسى ، ولكن القرطاجيين بعزيمتهم القوية قد عملوا على شق منفذ يؤدى الى البحر لكى يستخدم عوضا عن المرسى الذى تحكم فيه الرومان . وكذلك ظهرت عزيمتهم القوية في استغلال كافة امكانياتهم

المادية والبشرية ذكورا واناثا الاستعادة قواتهم البحرية مستخدميـــن نجاحهم في شق هذا المخزن الجديد لاعادة مواصلاتهم البحرية مـــرة أخرى . ولكن سرعان ما تنبه الرومان الى هذه الخطة القرطاجية الأخيرة وقاموا بمهاجمتها وبذلك سدوا جميع منافذ المدينة المؤدية الى الخارج وكان اقتحام المدينة بعد ذلك . كما أنه كان لطا عة الحصار الشديدة هذه وتغلغل مداخل المدينة أثرها البالغ ليس فقط في الناحية النفســية للقرطاجيين بل أيضا في الجانب الحيوى حيث لم تعد التموينات والأمدادات الداخلية تفي بحاجتهم مما أدى الى اضعاف طاقتهم في عمليات مقاومتهم الشديدة للرومان . وفي سنة ١٤٦ ق.م. تقدم سكيبيو بقواته محاولا اخضاع المدينة القرطاجية كلية . ووصل دفاع القرطاجيين عن أنفسهم الى درجـة تحصنهم في منازلهم وكذلك في قلعة البرصة Byrsa وكانت المعارك تدور بين المنازل والطرقات ، وظهرت فيها جوانب الشدة والقسوة المتناهية مـن الطرفين ، فقد كان كل منهما يدافع عن مصيره كما استخدم سكيبيو أيضـــا الخنادق والحيطان وأبراجها واشعال النيران في عملياته الحربية ضد قرطاج وحدثت بعض الأحداث الخاصة التي تلقى ضوءا على مدى مشاعر القرطاجيين في صميم وقت أزمتهم . مثال ذلك موقف زوجة القائد القرطاجي هزدروبـــال التي لم تقبل تصرف زوجها في اضطراره الى اللجوء الى الاستسلام القائـــد الروماني سكيبيو وفضلت الانتحار مع أولادها في وسط النيران المشتعلة بدلا من الحياة بذلة مع الرومان المنتصرين .ولم يكتف الرومان بانتصارهم النهائـي هذا بل قام الجنود بالسلب والنهب في هذه المدينة الخالدة واشعال النيران فيها وحرثها وذر الملح في أرضها حتى لا تصلح الحياة فيها مرة أخرى.

وقد سجل المؤرخ أن سكيبيو بعد تدميره مدينة قرطاج "ألقى نظـــرة على المدينة التي ازدهرت أكثر من سبعمائة سنة منذ انشائها والتي حكمت مناطق كثيرا جزرا وبحارا وكانت ثرية في السلاح والأساطيل والفيلة والمال مثـــل الامبراطوريات العظمى بل والتي فاقتهم في الاقدام والشجاعة الفائقة ، ورغم أنها

جردت من كافة أسلحتها وسفنها فقد صمدت لحصار شديد ومجاعة لفترة ثلاث سنوات ووصلت الآن الى نهايتها بالتدمير الكلى ، ويقال أن سكيبيو بعد ذلك قد بكى ورثا مآل عدوه . وبعد ذكر الحقيقة أن الأفراد والمدن والأمم والامبراطوريات نهايتها محتوية وكذلك نصيب طروادة العظيمة ونهاية الامبراطوريات الآشورية والميدية والفارسية والتدمير الأخير للامبراطورية المقدونية الكبيرة ، أشار بقصد أو لا شعوريا الى كلمات هكتور من هومر " سيأتى اليوم الذى ستسقط فيه طروادة المقدسة وكذلك الملك بريام وجميع رجاله المسلحين معه " . وعندما سأله انموذج بوليبيوس Polybius والذى كان معه ماذا يقصد التفت اليه قائلا ، " هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس ولكن انا لخوف يتملكنى أن نفس النصيب سيأتى لوطنى في يوم من الأيام " .

وهكذا انتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة قرطاج ، وبذلك توقفت هذه القوة السياسية الهامة في المغرب وحوض البحر الأبيض المتوسط وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة ، ومهد ذلك الى تحقيق الامبراطورية الرومانية ليس في أرجاء المغرب الكبير بل في كافة أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية .

الفصـــل الخامـــس

تقييـم موجـز لتاريخ المغـــرب

في العصرين الفينيقـي والقرطاجي

لكى يقيم المؤرخ المادة التاريخية يلزمه بصورة طبيعية مقارنة هـــذه المادة بما يعادلها في الاقاليم المعاصرة ،على أساس موضوعي بحت، كما أن هذا التقييم يتفاوت حسب المدرسة التاريخية التى يتجه اليها المؤرخ ،وكذلك وجهته في التفسير التاريخي . وتاريخ المغرب فريد من نوعه في هذا الصدد لأنه يمثل تاريخ مجموعة من العناصر المنتمية في أصولها البشرية الى عائلـــة الشعوب واللغات الحامية المختلطة ببعض العناصر الشمالية والافريقيـــــة الزنجية ،وقد استجابت الى العناصر السامية المهاجرة الى المغرب ونجحت في اكتساب الكثير من التجارب الجديدة عليها ودفع عجلة التطور الحضـــارى والسياسى المغربى القديم نحو الانتقال الى بداية العصر التاريخى ، والـــى محاولة ايجاد الكيان السياسى المستقل بالمغرب. ولم تكن هذه العمليـــة التاريخية التى مر بها شعب المغرب القديم بالمهمة السهلة لوجود الفوارق الكثيرة في المجالات الحضارية والبشرية والفكرية ولكن على الرغم من ذلـــك فسرعان ما تأقلم البربر وطوروا حياتهم بصورة تدريجية نحو المدنية . كما كان للصعاب الجغرافية الشديدة التى كانت تعطل من عملية الاتصال بين المراكز الحضارية الوافدة والمحلية أثرها الواضح . فظاهرة التحول الحضارى مـــن المرحلة البدوية الى المرحلة المدنية تستوجب وقتا طويلا تتقبل فيه هـــذه الشعوب المتنقلة من مكان الى آخر والمستقرة نسبيا بصورة غير دائمة في أماكنها ، النماذج المتفوقة عليها بسلام . ولذلك ينبغى على المؤرخ اقرار حقيقة هامة وهى أن الانسان في المغرب القديم قد نجح في اجراء عملية التحول التاريخى من العصر الحجرى القديم الأعلى الى مرحلة الاستقرار والزراعة وانشاء القـرى ونمو المجتمعات الحضرية البربرية الى درجة وصولها الى ولايات وممالك قـرب نهاية العصر القرطاجى . ويسجل المؤرخ أيضا في هذا الصدد عدم تعـرض

الفينيقيين الى حرب مباشرة من طرف البربر في أثناء عملية تحولهم التاريخى هذه مما جعل هذا التحول بمثابة نقلة طبيعية في تاريخ الانسان في هذه المنطقة على أيدى العناصر الفينيقية . فبداية العصر التاريخى اذن في المغرب لم تكن مثل المشرق مما أدى الى طول فترة التطور المؤدى الى ما بعد تلك المرحلة . ويختلف ذلك كل الاختلاف عن التاريخ المصرى القديم أو التاريخ السومرى في جنوب العراق القديم أو تاريخ سوريا أو فلسطين أو ايران حيث يلاحظ الدارس نموا طبيعيا وتدريجيا محليا توصل الانسان في بدايته الى الانتقال الى العصر التاريخى ، فلم تكن تلك البداية على أيدى عناصر مستقرة وافدة على العناصر المحلية ، مما يجعل تاريخ المغرب القديم ، متميزا بهذه الظاهرة الخاصة عن تاريخ المشرق القديم .

ملاحظة أخرى تستوجب الانتباه في تاريخ المغرب القديم هى سرعة انطلاقها من المجال المحلى المغربى البحت الى الاطار الدولى الافريقى وفى حوض البحر الأبيض المتوسط . ويلاحظ الدارس أن البربر رغم تحركاتهم البشرية والحضارية داخل المغرب بصورة مستمرة فان استقرارهم على السواحل كان محدودا ، وعندما جاء الفينيقيون تمكنوا من استكمال هذا الجانب في تاريخ المغرب القديم باستقرارهم على الساحل المغربى واقامتهم المراكز التجارية وازدياد نشاطهم البحرى في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى الساحل الافريقى الغربى بل وساحل أوروبا الغربى أيضا بالاضافة الى نشاطهم الداخلى . ولكن هذه الصفة الدولية النسبية في التاريخ السياسى والحضارى رغم ما اكتنفته من صعاب شديدة في الصراع مع اليونانيين والرومان فقد اكتسب المغرب منها الكثير من الأنماط الحضارية المعاصرة في ذلك الوقت مما ساعد على ازدياد عملية التطوير الحضارى في المغرب وربطها بميزان القوى الموجهة . ولا يترك الدارس في هذا الصدد الاشارة الى الدساتير والنظم اليونانية والرومانية التى استحدثت في المغرب، لدى

القرطاجيين والبربر وكذلك في المجال الديني ، فقد جمع البربر بين المؤثرات العقيدية المحلية والفينيقية واليونانية الأصل وبعض الملامح ذات الطابع المصرى القديم . ويلاحظ أن المكتبة القرطاجية بعد تدمير قرطاج كانت من نصيب البربر استكمالا لأداء هذه الوظيفة الفكرية .

ظاهرة ثالثة يلمسها الدارس في تقييم تاريخ المغرب القديم وهى أنه على الرغم من استمرار التأثر الفعلى بالحضارة القرطاجية واليونانية وفيما بعد الرومانية ، فقد استمر البربر على بعض مقوماتهم الحضارية بل ونجحوا في القيام بعدة ثورات سياسية في ذلك الوقت كمحاولة للتخلص من السيادة القرطاجية والرومانية السياسية . هذا بالاضافة الى ما تحلى به البربر من خصال قوية تحمل في طياتها قيما وصفات حسنة وكذلك قدرات بدنية قوية تجعل منهم أفرادا قادرين على المهام الحربية وتحمل المشاق . وهذه الصفات ترجع في الواقع الى الأصول العامية الأولى حين حملتها الهجرات البشرية أصلا من اليمن وعمان الى شرقى أفريقيا . ويلمس الدارس تقارب القرطاجيين من البربر في الاستجابة الحضارية الفكرية والمادية بصورة أكثر عمقا منها مع الرومان . ويمكن ارجاع ذلك أيضا الى كون الأصول العامية والسامية ترجع بصورة مشتركة الى شبه الجزيرة العربية . وكما يلاحظ على سبيل المثال أن الحضارة المصرية القديمة ،على الأقل في مراحل بدايتها ، قد جمعت بين الصفتين الحامية والسامية ، ويمكن تتبع بعض هذه الجوانب في اللغة المصرية القديمة وكذلك في التراث الأثرى . وحقيقة كون الرومان ينتمون الى عائلة الشعوب الهندية الأوروبية وكذلك سيادتهم العسكرية قد حال دون استطاعتهم ، رغم محاولاتهم الكثيرة ، تحويل البربر الى شعب رومانى النزعة . ونفس هذه الظاهرة تنطبق أيضا على كافة شعوب الشرق الأدنى القديم الذى خضع للسيادة السياسية والعسكرية لعدة عناصر قوية ، ومع ذلك فلم تتمكن هذه العناصر من الاستمرار وتحويل المصريين الى عناصر خاضعة لحضارتهم . كل ذلك صحيح الا مع العناصر السامية العربية التى

تمكنت من التأثير الكلى على المصريين والبربر وتعريبهم لغويا وفكريـا ولا يقتصر ذلك على شمال افريقيا بل على الشرق الأدنى القديم. وبعد اندحار قرطاج تمكن الرومان من التحكم الكامل في المغرب وبدايـة العصر الرومانى بها .

وبداية العصر الرومانى في المغرب تأتى مرحلة جديدة في تاريخه تختلف كل الاختلافات عن المراحل السابقة فبينما يلمس الدارس في المراحل السالفة تداخل العناصر الفينيقية الأصل مع العناصر المغربية القديمة وهى العناصر البربرية تداخلا سلميا لحد كبير يتمكن الفينيقيون من احـداث النقلة الحضارية والاقتصادية الهامة بالمغرب وفى بداية العصر التاريخـى ويتركون تأثيراتهم الحضارية والاقتصادية في مجالات الزراعة والتجارة والفكر الدينى والسياسى في تلك المجتمعات المغربية القديمة ، يلاحظ أن العصر الجديد وهو العصر الرومانى يختلف تمام الاختلاف عن تلك المرحلة التـى سبقت الاشارة اليها . فالمرحلة الجديدة تنتمى الى عنصر يرجع في أصولـه الى عائلة الشعوب واللغات الهندية الأوروبية فهو يختلف عن عائلة الشعوب واللغات السامية والحامية التى ترجع في أصولها الى شبه الجزيرة العربيـة . وعلى الرغم من الفوارق اللغوية والحضارية بين العناصر السامية والحامية فانها يرجعان الى أصول مشتركة تعمل في جذورها بعض المفاهيم الأقرب اتصالا من تلك الخاصة بالعناصر الهندية الأوروبية . وبينما كان استقرار الفينيقيين فـي المغرب سلميا يلاحظ أن استقرار الرومان في هذه المنطقة كان بالقوة العسكرية مما يعطى صفة التحكم لعربى البحث أكثر من صفة الاستيطان والاتصال بالبربر في المجالات التجارية والاجتماعية والفكرية . ولذلك فمرحلة العصر الرومانـى في المغرب تعتبر بمثابة احتلال أجنبى لهذه المنطقة الهامة من شمال أفريقيا .

ويمكن وتقسيم التاريخ المغربى أثناء العصر الرومانى الى ثلاثة مراحـل رئيسيـة :

أولا : تاريخ المغرب أثناء مرحلة عصر الجمهورية الرومانية من
سنة ١٤٦ ق٠م٠ الى سنة ٢٩ ق٠م٠

ثانيا : تاريخ المغرب أثناء المرحلة الأولى من عصر الامبراطورية
الرومانية من عهد أوغسطس الى عهد جورديان الثالث من سنة ٢٩ ق٠م٠
الى سنة ٢٤٤م٠

ثالثا : تاريخ المغرب في المرحلة الأخيرة من عصر الامبراطورية
الرومانية من سنة ٢٤٤ الى ٤٢٩م ويبدأ الدارس بالمرحلة الأولى ٠

الفصـــل السادس

المغرب في العصر الروماني من الناحية السياسية

المرحلة الأولى

قبل الاحاطة بتاريخ المغرب السياسي في المرحلة التالية مباشرة لنهاية الحرب البونية الثالثة تنبغي الاشارة الى بعض الظواهر السياسية والاقتصادية والنفسية الرومانية والتي تحكمت لحد كبير في تشكيل التاريخ المغربي القديم الى حد في هذه المرحلة وكذلك في المراحل التالية أثناء العصر الروماني .

فقد عانت الدولة الرومانية بعد أنتهاء الدولة القرطاجية أثر انتصار الرومان في الحرب البونية الثالثة الكثير من الأزمات وعلى رأسها المشاكل الاقتصادية التي نجمت عن استمرار العمليات الحربية في الجبهات الايطالية والاسبانية والمغربية وقتا طويلا مما أدى الى فقدان الكثير من الشباب الروماني والايطالي الذي كان يعمل أصلا في المجتمع الروماني بكافة مظاهر نشاطه الاقتصادي مما أدى الى عدم تواجد الأفراد العاملين في الحقول الزراعية ونتجت عنه الأزمات الاقتصادية . ومن ناحية أخرى أدت هذه الحروب أيضا الى عدم الاكتراث بالمفاهيم والقيم السلوكية في المجتمع الروماني مما أدى الى تدهور الاخلاق وقد نجم عن ذلك أيضا استغلال أصحاب السلطات السياسية في الدولة لهذا الموقف وتوخيهم النزعة الذاتية بدلا من المصلحة العامة للدولة والشعب الروماني . ويمكن ملاحظة عدم تواجد التجانس بين طبقات المجتمع الروماني في ذلك الوقت ، فعلى سبيل المثال ازدادت نسبة العبيد الذين كانوا أصلا أسرى حروب وتجمعوا في المجتمع الروماني لأداء مختلف الخدمات ولكنهم تفطنوا الى ضرورة الحصول على بعض الحقوق التي تتفق مع خدماتهم من ناحية أخرى ، هذا بالاضافة الى تمرد الرومان في منح العناصر الايطالية نفس الحقوق التي يحملها المواطنون الرومان .

وقد أدت هذه الاشكالات الى تضاعف المسئوليات السياسية المخولة لمجلس الشيوخ الرومانى الذى كان يحمل السلطة السياسية في الدولة .

وقد تطورت هذه السلطات السياسية خلال التاريخ الرومانى في عصور الملكية والجمهورية والأمبراطورية . ويمكن تلمس بعض أوجه الشبه بين الدساتير السياسية اليونانية والقرطاجية والرومانية رغم اختلاف وجهات النظر وطبيعة الاقاليم والمجتمعات الطبقية فيها ولكن كانت السيادة من الناحية النظرية في أصول هذه الدساتير ترجع في الواقع الى العناصر اليونانية .. ومن أهم السلطات أثناء العصر الجمهورى الرومانى كانت تلك المخولة الى القنصل الرومانى Consul وكذلك من يمثله في المناطق الواقعة تحت النفوذ الرومانى وهو البروقنصل Proconsul. ، هذا بالاضافة الى الموظفين المكلفين بكافة الشئون التنظيمية في الدولة سواء المالية أو الادارية . وقد تطورت هذه السلطات في عصر الامبراطورية الرومانية وظهرت وظائف جديدة تطلبتها هذه التوسعات الامبراطورية مثل وظيفة البروكيوراتور . Procurator وهو بمثابة الممثل للامبراطور في الولايات الرومانية وكذلك وظيفة البروبريتور Propraetor. الذى كان يحكم أيضا الولايات الامبراطورية .

وقبل الخوض في تاريخ المغرب القديم في هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى ويلاحظ أن تلك المرحلة قد عاصرت بزوغ شخصيات رومانية هامة في المجتمع الرومانى ومن أهمها شخصية تيبريوس جراكوس Tiberius gracchus وأخيه جايوس جراكوس Caius gracchus وسلا L. Sulla وماريوس C. Marus وبومي وشيشرون ويوليوس قيصر وأوغسطس. وكان لهذه الشخصيات أثرها البالغ في العمل على محاولة تحقيق الاصلاحات المباشرة التى تطلبتها تلك الأزمات الاقتصادية والسياسية السالفة الذكر . ولكن لم تقابل هذه المحاولات بالموافقة التامة من طرف مجلس الشيوخ الرومانى مما أدى الى ظهور صراع داخلى في هذه المرحلة الأخيرة من الجمهورية

الرومانية بين هؤلاء الشخصيات السياسية العظيمة وبين أعضاء مجلس الشيوخ الروماني .

وفي هذه المرحلة الأولى قسم الرومان المغرب الى ثلاثة أقسام رئيسية :

أولا : الولاية الافريقية وكانت تتضمن منطقة العاصمة القرطاجية بصفة خاصة وقد تحكم فيها الرومان بصورة كاملة .

ثانيا : ممالك بربرية تنقسم بدورها الى ثلاث وحدات سياسية :

أ — نوميديا وعاصمتها قرطه وهي قسنطينة .

ب — موريطانيا القيصرية وتقع في المنطقة الغربية من الجزائر وعاصمتها شرشال .

جـ — موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة .

ويتجه تاريخ المغرب القديم في هذه المرحلة الأولى من العصر الروماني وهي المرحلة الأخيرة من الجمهورية الرومانية الى اظهار الشخصية المغربية القديمة بصورة أكثر قوة من الجانب السياسي ، منها في المرحلة السابقة . فقد تمكن البربر من تحقيق سيادتهم السياسية الى حد كبير رغم أنها قد تعرضت بشدة الى تدخل الرومان الذين خشوا من ازدهار القوة البربرية بدرجة يصعب التحكم فيها وتصبح بمثابة خطر جديد يهدد الكيان الروماني ويحل محل القوة القرطاجية السالفة . ولكن على الرغم من ذلك فقد حاول البربر بصورة دائبة التخلص من التدخلات الرومانية والصمود لعمليات الضغط العسكري والسياسي الروماني . ولكن هذه المحاولات لم تصل الى تحقيق غاياتها النهائية ، واتجه الرومان الى تدعيم كيانهم السياسي والحربي في المغرب واحتلاله كلية والقيام بعمليات طبع المنطقة المغربية بالطابع الروماني كغيرها من المناطق التي خضعت للسيادة الرومانية استكمالا لتحقيق تحويل منطقة البحر الأبيض المتوسط بأسرها الى بحيرة رومانية تحت سيادة مدينة

روما العاصمة . ويتضح ذلك في مرحلة تاريخ المغرب القديم في عصر الامبراطورية الرومانية .

ويمكن للمؤرخ تتبع هذه المحاولات البربرية في الفترة التالية مباشرة للحرب البونية الثانية والتي يتضح فيها انقسام البربر على أنفسهم وانحياز ماسينسا الى جانب الرومان . وقد كان الرومان يتبعون سياستهم التقليدية القائمة على التفرقة السياسية بين أفراد العنصر الواحد مما يؤدى الى تحقيق أغراضهم . فبعد وفاة ماسينسا سنة ١٤٩ ق.م. تولاه في حكم المملكة البربرية ابنه مكيبسا Micipsa وبدأت الاشكالات البربرية الداخلية في التواجد بصورة خطيرة على اثر وفاة هذا الاغليد فقد كان يتجه الى تقليد ابنيه وهما أدهربال Adherbal ، أو كما يطلق عليه أيضا آذر بعل ، وهيامبسال زمام الحكم من بعده . ولكن ظهرت شخصية قوية في ذلك الوقت هي شخصية يوجورتا ، الذى يسمى أيضا يوغرطه Tugurtha وهو ابن غير شرعي لمستنبعل أخو مكيبسا وهو كذلك أنجب هكيبسا ابنا شرعيا وهو غوده والذى لم يكن من الكفاءة والقدرة العقلية مثل يوجورتا . وكان مكيبسا يخشى جانب يوجورتا لما لمسه فيه من قوة الشخصية والحيلة ولذلك اتجه في بداية الأمر الى محاولة ابعاده عن المملكة البربرية ببعثه في حملة عسكرية لتأييد الرومان في عملياتهم الحربية في أسبانيا . وقد أظهر يوجورتا في هذه البعثة قدرات حربية فائقة كفلت له النجاح وتقدير الرومان مما دفع مكيبسا الى ضرورة تقبله ومحاولة التوفيق بينه وبين أبنائه بتبنيه له والتوصية بالحكم من بعده لابنيه أولا ثم ليوجورتا بعد ذلك . وقد اكتسب هذا الأخير بهذا الاجراء حقا شرعيا في تولى العرش وأخذ يعمل بوسائله الانتهازية محاولا اخلاء كل من أدهربال وهيامبسال من طريقه والانفراد بالسلطة السياسية في المملكة البربرية .

ولما توفى مكيبسا لم يتفق الورثة الثلاثة على تقسيم سلطات المملكة البربرية وانتهز يوجورتا هذا الموقف وأخذ يحاول تحقيق أهدافه الخاصة

بطرق ملتوية مستخدما وسيلة المؤامرات تارة والرشوة تارة أخرى . وقد تمكن من النجاح في بداية الأمر في قتل هيامبسال ، أما أذهربال فقد التجأ الى الدولة الرومانية مستنجدا أبها ضد يوجورتا . وكان هذا الطلب محل عطف الساسة الرومان لأنه يتفق مع سياستهم التفريقية النزعة ولدعم أقدام حلفائهم في المغرب . ولكن يوجورتا لم يتوان من محاولة اكتساب ود الرومان في هذا الصدد واتبع نفس الأسلوب الملتوى في تحقيق أغراضه مع أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ونجح في هذا المجال . ولذلك قرر الرومان حل هذا الاشكال الداخلى بين البربر بارسال بعثة رومانية ١١٦ ق.م. الى المملكة البربرية كمحاولة لاجراء التوفيق بين يوجورتا وأذهربال بتقسيم المملكة البربرية بينهما . وتحقق هذا الاجراء في بداية الأمر وقسمت المملكة القرطاجية القديمة ، والتى أصبحت الولاية الافريقية الرومانية ، حتى مدينة قرطه ، بينما تمتد المملكة البربرية الغربية غربا حتى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى أى وادى ملوية وذلك تحت يوجورتا . ولكن هذا التقسيم السياسى والادارى للملكة البربرية لم يؤد في حقيقة أمره الى حل لهذا الاشكال البربرى الداخلى لأن يوجورتا لم يكن ليرض بهذا الموقف بل كان يهدف الى الانفراد كلية بالسيادة السياسية بالمملكة البربرية المتحدة . ولذلك سرعان ما اتجه الى تحقيق غرضه بالقوة العسكرية ووجه جيشه نحو مملكة أذهربال وتمكن من دخول العاصمة البربرية الشرقية وهى مدينة قرطه وحقق هدفه وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى للملكة البربرية تحت رئاسته . ولم يكن الرومان ليقبلوا هذا التطور الخطير الذى يعتبر منافيا لسياستهم ومنذرا بتكوين قوة بربرية لها شأنها في المغرب يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية ولذلك انتهزوا حادثة معينة مستهم عن قرب وهى تنكيل يوجورتا بشدة بالسكان الايطاليين بمدينة قرطه والذين كانوا يتجهون الى مساعدة أذهربال مما أثار نفوس الرومان الذين قرروا الدخول في حرب مباشرة مع يوجورتا . وبذلك تعرض المغرب مرة أخرى لتدخل رومانى كبير أدى في نهايته الى احتلال الرومان للمغرب .

الصراع بين يوجورتا والرومـــان

يعتبر يوجورتا من الشخصيات البربرية الهامة التى حاولت تحقيق السيادة البربرية في المغرب رغم مختلف الصعوبات المحيطة بموقفه وأساليبه في هذا الصدد . وان دخوله في صراع شديد مع الرومان ليدل على شجاعته الفائقة في ذلك الوقت . وقد أستمر صراعه مع الرومان من سنة ١١١ ــ سنة ١٠٥ ق.م . ويلمس الدارس في مراحل هذا الصراع أمثلة للمجتمع البربرى السائد في المغرب في تلك الفترة . فرغم محاولات يوجورتا المتواصلة للابقاء على الوحدة السياسية البربرية فقد كان البربر في حقيقة أوضاعهم الاجتماعية يتضمنون العناصر البربرية التى اقتربت فعلا من الاستقرار في المدن والتحضر في حياتها مع المجتمعات المعاصرة سواء أكانت قرطاجية الأصل أو رومانية ، وكذلك العناصر البربرية الأخرى التى كانت لا تزال في طورها القبلى على حافة الصحراء تحاول الدنو من المجتمعات المتحضرة ولكنها لم تألف بعد حياة المدن والخضوع السياسى لدولة بربرية متحدة . ولذلك فقد كانت عملية الوحدة السياسية البربرية في ذلك الوقت من المنهام الصعبة التحقيق لما تتضمنه من عناصر ذات وجهات مختلفة . ويمكن اعتبار ذلك أيضا من الأسباب التى يلمسها الدارس في اشتداد الفرقة السياسية بين الجوانب البربرية في بعض فترات الصراع بين البربر والرومان . وتنبغى الاشارة أيضا الى أن الطبيعة الجغرافية في المغرب تعتبر من العوامل المتصلة بهذا الموضوع ، فليست تلك الطبيعة من السهولة والتجانس بدرجة تكفل تحقيق تلك الوحدة السياسية بسهولة في ذلك الوقت وذلك لكثرة المناطق الجبلية وعدم توفر الطرق الموصلة بينهما . ولذلك يلاحظ أن السياسة الرومانية فيما بعد قد صممت على اعطاء أهمية خاصة الى طرق المواصلات سواء في المغرب أو في غيره من مناطق النفوذ الرومانى الرومانى لكى تحقق التحكم الرومانى في كافة تلك المناطق التى تشملها السيادة الرومانية .

وقد اتبع يوجورتا نفس وسائله الملتوية مع القوات العسكرية التى أرسلها الرومان لمحاربته وعلى سبيل المثال تلك القوة التى كانت بقيادة القنصل

بستيا L. Calpurinus Bestia . ولكن هذه الوسيلة لم تكن
دائمة المفعول مع كافة القادة الرومان . ويظهر ذلك عندما تسلم القنصل
ميتلوس Q. Metllus قيادة جيش رومانى جديد ضد يوجورتا سنة
١٠٩ق.م. اذ دخلت الحرب بين يوجورتا والرومان مرحلة أخرى في عهده
ونجح هذا القائد في احراز الانتصار على يوجورتا الذى اضطر الى
الالتجاء الى الهضاب والمناطق الجبلية الجزائرية والتحصن بها الى أن
يحين الوقت المناسب لكى يعاود مرة أخرى الحرب ضد الرومان . وهذه
الظاهرة يمكن تلمسها في المجتمعات البربرية التى تتسلح ببيئتها البرية
والجبلية عندما تواجهها المخاطر . ولم يقتصر يوجورتا على هذه الطريقة
بل عمد أيضا الى اكتساب جانب القبائل البربرية في الجنوب والمعروفة
باسم قبائل جدالة والتى كانت لا تزال على حالتها القبلية وكذلك حاول
التحالف مع بربر الغرب في موريطانيا والذين كانوا تحت زعامة ملكهم
بوخوس . وقد نجح يوجورتا في هذه الخطة البربرية الوحدوية وتمكن من
توجيهها من نحو العاصمة البربرية قرطه في سبيل استعادتها وطرد
النفوذ الرومانى منها . ولم يتمكن القنصل الرومانى ميتلوس من حسم الموقف
في الحال نظرا لحدوث بعض التطورات في الاطار الرومانى التى استوجبت
منه جهدا خاصا . فقد ظهرت شخصية رومانية قوية في ذلك الوقت وهى
شخصية ماريوس الذى كان أصلا يعمل مع ميتلوس ولكنه كان طموحا ويميل
الى الجانب الشعبى ولذلك كان من الثائرين على الأشراف ورجال مجلس
الشيوخ الرومانى . وقد تحقق طموح ماريوس في التوصل الى درجة القنصلية
عندما تقدم اليها سنة ١٠٧ق.م. وبذلك انتقلت القيادة الرومانية في
وضعها الجديد الى ماريوس الذى أعطى اهتماما خاصا الى القوات المسلحة
وأضاف أعدادا جديدة اليها بعد قراره فتح باب التطوع في الجيش الرومانى
ودخل هذا الجيش في بعض عمليات حربية تمهيدا في شرقى المغرب تهدف
الى اعادة توطيد السيادة الرومانية في المنطقة قبل مواجهة يورجورتا بصفة
مباشرة . وكان من أهم معاونى ماريوس شخصية رومانية قوية أخرى هى
شخصية سلا Sulla الذى اتخذ وسيلة خاصة في الصراع مع يورجورتا تظهر

فيها الخديعة والالتواء . فقد عمل سلا على تحقيق خطة التفرقة بين البربر الغربيين وبربر يوجورتا وذلك باغراء الملك بوخوس على التخلي عن تحالفه مع يوجورتا نظير مكاسب معينة وانهاء هذا الصراع الروماني البربري .
ونجح سلا في هذا السبيل، وتدخل بوخوس فعلا محاولا اقناع يوجورتا بهذا الموضوع الذي يؤدي الى السلام بين الطرفين البربري والروماني وطلب منه الحضور بنفسه للتفاوض في هذا الشأن . وكان سلا على اتفاق سابق مع بوخوس في تدبير هذه المؤامرة للايقاع بيوجورتا والقبض عليه وبالتالي التخلص منه . وقد تحقق هذه العملية الغادرة وقبض على يوجورتا ثم قتل بعد ذلك سنة ١٠٤ ق.م. وبوفاة يوجورتا بدأت صفحة أخرى في تاريخ المغرب القديم اقتربت فيها السيادة الرومانية من نشر نفوذها على أرجاء المنطقة بصورة أقوى من قبل ،لأن تخلص الرومان من هذا الزعيم البربري القوي قد أتاح لهم تحقيق أغراضهم الى حد كبير . وتنبغي الاشارة في هذا الصدد الى أن التفرقة والانقسام بين العناصر البربرية كانت من أهم أسباب تلك الهزيمة أمام الرومان الذين اشتهروا عبر التاريخ بحكمتهم المبنية على ايقاع الفرقة بين العناصر التي ليرغبون في التحكم فيها مما يساعد على تنفيذ أغراضهم .

وكان من المنتظر بعد هذه التطورات في تاريخ المغرب القديم أن يستحوذ الملك بوخوس على ثمن خديعته للملك البربري يوجورتا بضم جزء من المملكة النوميدية الغربية الى مملكة موريطانيا كما كانت المنطقة الشرقية من نوميديا قد ضمت الى الملك غودة . وبذلك توزعت التركة البربرية بعد وفاة يوجورتا وأصبح مصير هذه الممالك البربرية الضعيفة متوقفا على مدى رضا السادة الرومان . ولذلك يلاحظ أن التطورات الداخلية والخارجية في الجمهورية الرومانية في تلك المرحلة قد أثرت كل التأثير على أحداث هذه الممالك البربرية ومستقبلها . وقبل التعرض الى أمثلة لهذه الحقيقة يلزم التعرف على بعض التطورات الداخلية في روما في تلك المرحلة وبصفة خاصة الصراع الداخلي حول السيادة السياسية ووجهات النظر المختلفة بين

طبقات المجتمع الروماني سواء الطبقة الارستقراطية التي كانت لها السيادة السابقة أو الطبقة الشعبية التي كانت تحاول انتزاع الحقوق من طبقة الأشراف . وقد انعكست هذه التصرفات الرومانية البحتة على الاحداث المغربية وما تضمنته من تطورات .

موجز للتطورات السياسية الرومانية الداخلية في أواخر عهد الجمهورية :

على الرغم من انتصارات الرومان وتمكنهم من القضاء على الدولة القرطاجية فقد كانت تواجههم في الواقع عدة اشكالات سياسية داخلية وخارجية . فمن الناحية الداخلية اشتد النزاع حول السيادة السياسية بين طبقات الشعب وكان من المنتظر حدوث هذا الصراع الداخلي لما تضمنته العناصر الخاضعة لنفوذ مدينة روما في شبه الجزيرة الايطالية من مجموعات مختلفة تطلبت بعض الوقت لاندماجها وحصولها على حقوق متساوية وتتفق جميعها في حمل صفة المواطن الروماني . وقد كانت طبقة الأشراف لا تزال تحاول المحافظة على كيانها وتمانع في السماح لطبقات الشعب الأخرى في المساواة معها في الحقوق . كما تجسمت الاشكالات الداخلية حول السيادة السياسية في عدد من الأحزاب الارستقراطية والشعبية . ولما كان مجلس الشيوخ الروماني تغلب عليه الصفة الارستقراطية فقد بدأ صراع شديد بينه وبين القادة الشعبيين . ومن ناحية أخرى كان لبعض الأوضاع الناجمة عن الحروب القرطاجية والأسبانية وكذلك الحروب في منطقة الشرق الأدنى أثرها في ظهور بعض المشاكل مثل مشكلة الجنود المسرحيين بعد انتهاء هذه العمليات الحربية فقد كانوا يمثلون عبئا ثقيلا على المجتمع الروماني وهم في نفس الوقت يحملون مشاعر معينة بعد تحقيقهم للاغراض الحربية . وهذه المشاعر تتطلب المكافأة المناسبة بالمال أو بالأرض . وكذلك أيضا طبقة العبيد التي لم تفتأ عن الثورة من آن الى آخر طالبة الحصول على بعض الحقوق من السادة الرومان . وقد كان مجلس الشيوخ الروماني يحاول حل هذه المشاكل الداخلية على أيدى القناصل المنتخبين ولكن تلك . المهمة لم تكن بالهينة

نظرا لتعدد وجهات النظر بين الطبقتين الأرستقراطية والشعبية فلكل حزب رأيه الخاص في حل هذه المشاكل مما ينجم عنه وجود معارضة شديدة تؤخر حل هذه المشاكل وتؤدى الى تفاقم الأزمات الداخلية . وكانت العناصر المتبربرة في وسط أوروبا والتى جاءت نتيجة الضغط البشرى والاقتصادى تحاول انتهاز وجود هذه المشاكل وتغير بدورها على الدولة الرومانية وتحاول سلب ما يمكن أن تقع يدها عليه بل تحاول التحكم في بعض الأراضى الرومانية مما كان يتطلب حلا سريعا ومنح سلطات استثنائية للقادة الرومان . وقد حدث ذلك سنة ١١٣ ق٠م٠ عندما تسللت هذه العناصر الجرمانية ووصلت الى شبه الجزيرة الايطالية واقتربت من مدينة روما ولكن نجح ماريوس في انقاذ الجمهورية الرومانية وكذلك ظهرت اغارات القراصنة في البحر الأبيض المتوسط ونتج ذلك عن عدم تواجد النشاط البحرى الهائل الذى كان للدولة القرطاجية يد فعالة في تحقيقه والذى توقف بانتهائها ، وقد وصلت جرأة هؤلاء القراصنة ،الذين كانوا ينتمون أصلا الى بعض الجزر في شرقى البحر الأبيض المتوسط وساحل آسيا الصغرى الى مهاجمة الأراضى الايطالية والاستحواذ على ما يمكن لهم سلبه والعودة الى سفنهم . وقد أدت هذه التهديدات الى عدم شعور الرومان بالأمن والاستقرار مما جعل هذه المسألة من أولى المشاكل المباشرة في ذلك الوقت.

ومما يؤكد مدى تفاقم الاشكالات الداخلية السالفة الذكر تلك الحادثة الخطيرة في حياة الجمهورية الرومانية اذ تجرأت بعض العناصر الايطالية في خضم معارضتهم للرومان لأجل الحصول على المساواة في الحقوق على اقامة حكومة أخرى مستقلة داخل الوطن الرومانى تناوىء حكومة مدينة روما ، واتخذت مدينة كورفينيوم Corfinium عاصمة لتلك الدولة الايطالية ، وقد أدت تلك الخلافات الداخلية الى درجة الحرب الملنية .ولم يجد مجلس الشيوخ الرومانى حسما لهذا الخطر المهدد للكيان الرومانى باسره الا الاعتراف بحقوق هؤلاء الايطاليين ومساواتهم بالسادة الرومان وحملهم للجنسية الرومانية . ويمكن اعتبار هذه الحادثة بمثابة خطوة فعالة في طريق الحصول

على الحقوق المساوية للسادة الرومان وهي في الحقيقة انتصار للقوى الشعبية في عملية صراعها مع القوى الارستقراطية في المجتمع الروماني

وتنبغي الاشارة الى أن هذه التجارب الشديدة التى واجهت الرومان قد أعطتهم الجانب التجريبي الكافي في قيادتهم السياسية مما سمح لهم بممارسته في المرحلة التالية لعصر الجمهورية وهو عصر الامبراطورية فرغم هذه الشدائد الداخلية التى لحقت بالرومان فقد أدت الى اكتسابهم الحنكة السياسية اللازمة من وجهة نظرهم في تحقيق أهدافهم .

ولم تقتصر هذه الاشكالات الداخلية والخارجية على النطاق الأوروبي أو الافريقي بل لقد وصلت مشاكلهم الى الجانب الأسيوى أيضا ، في منطقة الشرق الأدنى القديم . ولقد كانت تلك المنطقة صاحبة السيادة الحضارية والسياسية قبل الرومان بعشرات القرون ، وكانت تحمل في طياتها تركة حضارية هائلة توقفت تحت الضغط الخارجي منذ سيادة الاسكندر الأكبر وخلفائه عليها ولكن ذلك لم يمنع من محاولتها من آن لآخر آداء دورها السياسي والحضارى مرة أخرى . ولذلك لم تكن تلك المنطقة لتقبل بسهولة سيادة الرومان عليها بقوة السلاح وهكذا وجد الرومان صعوبات شتى في عملياتهم الحربية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وبصفة خاصة في منطقة أرمينيا وبنطوس وبارثيا وسوريا وفلسطين ومصر . وذلك لأن هذه المناطق التى كانت لا تزال مراكز للفكر والحضارة رغم ضعفها في المجال السياسي . تختلف اختلافا كبيرا عن المناطق الأوروبية والغربية في ذلك الوقت . وعلى سبيل المثال لا تزال الآثار المصرية وغيرها حتى الوقت الحاضر تشهد على محاولة الرومان التقرب من الآلهة المصرية والشعب المصرى القديم باقامة المعابد ارضاء له وتخفيفا لمقاومته لهم ، بل لقد سجل الرومان أسمائهم باللغة المصرية القديم والخط الهيروغليفي أثناء فترات حكمهم لمصر كمحاولة منهم في سبيل التقرب من هذا الشعب القديم العريق .

ومثال واضح لحركة المقاومة الشديدة للنفوذ الروماني في الشرق الأدنى القديم يظهر بوضوح في شخصية ميثرادتيس السادس ملك بنطوس قرب نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد . وكان الملك قد توغل في آسيا الصغرى مما اعتبره الرومان خطرا شرقيا يهدد كيانهم السياسي في الشرق . وقد جندت الجمهورية الرومانية شخصية فذة هي شخصية سلا الذي كان ينتمي الى الجانب الارستقراطي في مجلس الشيوخ الروماني . وسافر سلا الى الشرق وبذل جهودا كبيرة في حروبه مع ميثرادتيس ولكنه كان يتطلع في نفس الوقت الى ضرورة العودة الى العاصمة الرومانية لمواجهة اشكالات الصراع الداخلي مع الحزب المعادي له وهو الحزب الشعبي برئاسة ماريوس . وقد زاد في رغبته الملحة في ضرورة العودة الى روما انتهاز الحزب الشعبي فرصة تغيب سلا والانتقام من الحزب الارستقراطي . ولذلك لم يترك سلا فرصة عقد صلح مع ميثرادتيس سنة ٨٥ ق.م. واتجه الى روما لأخذ الثأر من الحزب الشعبي . وعندما وصل الى روما بدأ يستحوذ على السلطة الكاملة لشخصه ولحزبه الارستقراطي ، وبطبيعة الحال لمجلس الشيوخ الروماني التي كانت غالبية أعضائه من هذا الحزب . ولم يترك سلا أية فرصة لتحقيق أغراضه ، فاستغل تواجد بعض المؤيدين لوجهة نظره من طبقة الفرسان واقترح زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني حتى يتمكن من ادخال أولئك المؤيدين الى المجلس تدعيما له ولحزبه واضعافا للحزب الشعبي . ومن أهم الخطوات التي مارسها سلا في سبيل تحقيق السيادة الرومانية اقتراحه تنظيم وظائف ثابتة في الولايات الخاضعة للنفوذ الروماني مثل وظيفة نائب القنصل وذلك لادارة تلك الولايات في المجالات المدني والحربي مع التحكم في أوضاع هذه الولايات بجعل مجلس الشيوخ الروماني صاحب السلطة الأولى في تسيير شئونها الهامة . وتعتبر هذه الخطوة مرحلة هامة في التطور نحو الامبراطورية الرومانية لأنها ثبتت أقدام الرومان بصورة منظمة ومخططة في هذه الولايات الرومانية مما استلزم بناء المدن وتجهيز الطرق الخاصة بها واتخاذ عاصمة بها قصر الحاكم الروماني كمركز رئيسي

لادارتها . وقد استكملت هذه الخطوات واجراءاتها التنفيذية بصورة فعلية وعلى نطاق واسع في عصر الامبراطورية الرومانية .

ولكن هذه الخطوات الهامة التى نجح سلا في اقامتها لم تكن نهاية المطاف في طريق التطور السياسى في هذه المرحلة الحاسمة من التاريخ الرومانى بل لقد كان لعمليات التوسع الرومانى الخارجى أثرها في ازدياد عدد من الاشكالات الداخلية السالفة الذكر لأن هذه التوسعات قد تطلبت زيادة القوات العسكرية البرية والبحرية وبالتالى ترتبت على انتهاء عملياتها الحربية ضرورة تسريح هذه القوات وضمان أماكن معينة لاقامتها . ومن ناحية أخرى لم يكن القادة المنتصرون في هذه الحروب ليقبلون الامتثال لما يصادفهم من اشكالات داخلية في روما بعد عودتهم الى وطنهم بل كانت انتصاراتهم الحربية في الجبهات الخارجية تدفعهم الى الرغبة في استكمال انتصاراتهم في الجبهة الرومانية الداخلية . وقد تجسم ذلك في بعض الشخصيات الرومانية الفذة التى بدأت تتطلع الى تحقيق مطالبها في المجتمع الرومانى وعلى رأسها شخصيتى بومبى ويوليوس قيصر . ولم يكن مجلس الشيوخ الرومانى ليستطيع الوقوف أمام هؤلاء القواد العظام الذين انقذوا الجمهورية الرومانية من عدد من الاشكالات الخارجية سواء كانت في منطقة الشرق الأدنى أو في القطاع الأوروبى وبصفة خاصة في منطقة غالة .

ومن أمثلة انتصارات هؤلاء القادة العظام ما كفل لهم تسلم زمام الأمور السياسية في الجمهورية الرومانية تلك العمليات الحربية الهائلة التى قام بها بومبى في غالة وأسبانيا وبنطوس . فعلى الرغم من وعورة تلك العمليات الحربية وشدة المقاومة المحلية فقد نجح بومبى في احراز الانتصار ضد القائد الايبيرى سيرتوريوس Q. Sertorius سنة ٧٢ ق.م. ومن الأهمية الاشارة الى أن أعداء الرومان كانت لديهم الفطنة الكافية في عملياتهم الحربية ولم تقتصر جهودهم على الانفراد بها بل عقدوا المحالفات فيما بينهم

ضد الرومان . ومن أمثلة تلك المحالفات الغير المنتظرة تحالف سيرتوريوس في أسبانيا مع ميثراداتيس في بنطوس على ساحل البحر الأسود .

ولذلك فقد كانت خطوة بومبى التالية بعد انتصاره على سيرتوريوس التوجه الى منطقة الشرق الأدنى لمحاولة ايقاف ميثراداتيس عن تهديد الكيان الرومانى في القطاع الشرقى . وكان هذا التهديد قد وصل الى مداه عند ما تمكن ميثراداتيس من تحقيق الانتصار على القوات الرومانية في بداية الحرب . ولكن عند ما تمكن بومبى من تسلم قيادة القوات الرومانية في تلك المنطقة نجح في احراز الانتصار على ميثراداتيس ملك بنطوس وتيجرانيس Tigranis ملك أرمينيا . ولم يقتصر هذا الانتصار الرومانى على الجانب البرى بل شمل أيضا الجانب البحرى في البحر الأسود .

ولم يكتف بومبى بقدراته الحربية الفائقة في سبيل تأمين سلامة الجمهورية الرومانية على عملياته العسكرية في شبه جزيرة أيبريا والشرق الأدنى بل لقد نجح أيضا في القضاء على عمليات القراصنة التى كانت تهدد الأمن الرومانى ولم يقتصر في هذا الصدد على القضاء عليهم فحسب بل حاول حل اشكالهم الرئيسى وهو الاشكال الاقتصادى بتوفير أماكن لسكناهم تكفل لهم الاستقرار وايقاف عمليات السلب والنهب والتهجم غير المشروع على السكان الامنين فى المدن الاصلية وكذلك في السفن التجارية في حوض البحر الابيض المتوسط . وكان لهذه الخطوة الفعالة أثرها في ارتفاع أسهم التقدير الكامل لشخصية بومبى في المجتمع الرومانى .

ومن أعماله الحاسمة أيضا في الاطار الداخلى في سبيل الأمن الرومانى نجاحه في القضاء على الثورة التى قام بها العبيد بقيادة زعيمهم سبارتاكوس Spartacus . وكانت تلك الثورة قد وصلت الى مداها الخطير في تهديد الأمن الرومانى كلية . وقد تمكن بومبى بفضل جدارته وخبرته الطويلة في انهاء هذه الثورة . ثم بدأ في التفرغ بعد هذه الجهود المتواصلة الى القطاع

الرومانى السياسى الداخلى الصرف . وتقدم الى وظيفة القنصلية سنة ٧٠ ق.م . وكانت وجهته السياسية تميل الى جانب الحزب الشعبى ، ولذلك يعتبر تبوأه السلطة السياسية انتصارا للجانب الديموقراطى على الجانب الارستقراطى الممثل في مجلس الشيوخ الرومانى . وليس معنى ذلك أن جميع المشروعات التى سبق لسلا اجراءها قد عمل بومبى على ازالتها انتقاما منه ومن حزبه الارستقراطى ، فيلاحظ المؤرخ أن بعض تلك المشروعات الخاصة بتنظيم الولايات الرومانية قد عمل بومبى على تدعيم أسسها تأكيدا للسيادة الرومانية في الخارج ، فلم تكن المعاداة بينه وبين سلا لتكون على حساب مصلحة الرومان في الخارج وقد اتجه بومبى الى هذه الجوانب التنظيمية في سياسة الجمهورية الرومانية بعد خبرته الطويلة في الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى والتى كان قد نجح في تنظيم ادارتها مما هيأ للدولة الرومانية مصدرا ثابتا من الثروات المختلفة التى ساعدت على تحقيق الكثير من المشروعات الرومانية . ولكن انتصارات بومبى المتواصلة لم تبقلها بعض منافسيه داخل نطاق الحزب الشعبى وبصفة خاصة كراسوس . ولكن من ناحية أخرى، كان لدى بومبى بعض الشخصيات الهامة المؤيدة لوجهه نظره مثلا لخطيب الرومانى الشهير شيشرون Cicero . وقد حاول كراسوس أن يكسب الى جانبه شخصية رومانية أخرى لامعة في ذلك الوقت بدأت تظهر فى مجال السياسة الرومانية الداخلية وهى شخصية يوليوس قيصر C.Julius Caesar وقد وصلت مظاهر هذا الصراع الداخلى الى أشدها بين هذه الشخصيات السالفة الذكر وحاول شيشرون ايقاف هذا الصراع والتوفيق بين مختلف وجهات النظر . ورغم علم بومبى بهذه الجوانب المختلفة التى تدور بعنف حوله فقد قرر تسريح قواته المسلحة بمجرد عودته أخيرا الى روما سنة ٦٢ ق.م . بعد تثبيت أركان النفوذ الرومانى في الشرق الأدنى في بنطوس وسوريا وفلسطين . وكان في امكانه فرض وجهة نظره بالقوة العسكرية وانهاء هذه المعارضات الموجهة ضده ولكنه آثر التفاهم السلمى وطالب باقرار الاجراءات التنظيمية التى سبق له اتخاذها في شأن

الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى ، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى قد رفض الموافقة عليها ، وبذلك هزم بومبى البطل في الاطار الرومانى الداخلى رغم جهوده الموفقة السالفة الذكر في سبيل الرفعة الرومانية ومنذ ذلك الوقت بدأ نجمه في الأفول وتطلعت شخصية يوليوس قيصر الى الازدهار في المجتمع الرومانى وبصفة خاصة عندما نجح في الحصول على وظيفة القنصلية سنة ٥٩ ق.م.

وقد اتبع يوليوس قيصر سبيل بومبى في الحصول على المجد العسكرى الخارجى لتأمين السيادة الرومانية وزيادة الثروات العائدة الى الجمهورية الرومانية . وكان مجال نشاطه في منطقة غربى أوروبا وبصفة خاصة غالة . وكانت هذه المنطقة تهدد الأمن الرومانى لما اجتاحتها من تحركات بشرية هائلة من الشعوب الجرمانية ولذلك ركز يوليوس قيصر جهوده في ايقاف هذه الهجمات وتأمين الحدود ، وحقق ذلك فعلا ووصل الى أبعد مدى عندما نجح في انزال قواته في الجزيرة البرطانية سنة ٥٤ ق.م. وكما سبق أن واجه بومبى اشكالات النزاع الداخلى الرومانى رغم انتصاراته الخارجية فقد واجه قيصر أيضا هذه الاشكالات مرة أخرى ، فقد كانت المعاداة القديمة بين كل من بومبى وكراسوس لا تزال على اشدها وحاول يوليوس قيصر التلطيف من هذه الاشكالات الداخلية والتوفيق بين كل من بومبى وكراسوس ولكن سرعان ما تطورت الأوضاع الداخلية مرة أخرى حينما انفرد بومبى بوظيفة القنصلية بعد وفاة كراسوس . ولم يكن هذا الموقف ليرض يوليوس قيصر الذى لمس رغبة بومبى في الاستحواذ على السيادة السياسية وخاصة عندما وصل بومبى الى درجة بعيدة في هذا الصدد باقتراحه باخلاء طرف يوليوس قيصر من زمام القيادة العسكرية تمهيدا لابعاده عن النشاط الحربى والسياسى . بل لقد حصل بومبى على موافقة مجلس الشيوخ على اعتبار يوليوس قيصر عدوا للجمهورية الرومانية . ولكن هذا الاجراء لم يكن ليتقبله يوليوس قيصر بسهولة ولذلك تقدم فور علمه بذلك بقواته نحو روما . وهكذا وصل الصراع الرومانى الداخلى الى أشده ومهد الى احداث التطور الكبير في السياسة الرومانية

الداخلية وهو بداية الانتقال نحو لمرحلة الامبراطورية الرومانية . ويغلب أن بومبى كان يدرك تماما مدى قوة قيصر العسكرية ولذلك على الرغم من كفاءته وقدراته السالفة فقد فضل الرحيل عن ايطاليا واتجه الى بلاد الاغريق مصطحبا معه عددا من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى . وكان تصميم قيصر على اللحاق ببومبى والتخلص منه أكيد الدرجة أنه بذل جهدا مضاعفا في اقتفاء أثر بومبى بل ومؤيديه في كافة أنحاء الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى . ولذلك اتجه أولا الى أسبانيا لتحقيق هذا الأمر وتأمين ظهره قبل أن يتجه الى الشرق . وقد نجح قيصر في غرضه وتمكن من الحاق الهزيمة ببومى عند فارسالوس Pharsalus في شمال شرق بلاد اليونان وفر بومبى الى مصر . ولكن لم تستمر حياته طويلا لأنه قتل هناك . وقد تتبعه قيصر الى مدينة الاسكندرية العاصمة المصرية في عصر البطالمة وقد كان الحكم في تلك الفترة قد انتقل الى الملكة كليوباترة ذات الشخصية القوية التى نجحت في اجتذاب عدد من الحكام الرومان الى جانبها وكان يوليوس قيصر أول أولئك الذين تأثروا بها . ولم يكتف يوليوس قيصر بهذا القدر من انتصاراته على خصمه بومبى بل لقد تابع خطته في القضاء على مؤيدى عدوه في كافة أرجاء المناطق الخاضعة للنفوذ الرومانى في ذلك الوقت وعلى رأسها منطقة المغرب . وانفرد بعد ذلك بالسلطة السياسية ولكنه على الرغم من قدراته وعملياته الحربية السالفة الذكر ونشاطه المتواصل في سبيل السيادة الرومانية فقد انتهت حياته على اثر مكيدة قام بها عدد من أعوانه وبصفة خاصة ماركوس يونيوس وبروتوس ودىكيموس وبورتوس وتمكنوا من اغتياله في مجلس الشيوخ الرومانى ، في سنة ٤٤ ق.م.

وانتقل الحكم من بعده الى ماركوس أنطونيوس الذى كان في خدمة يوليوس قيصر . وتكونت لجنة ثلاثية من أنطونيوس وليبيدوس وأوكتافيان للقيام بتوطيد الاستقرار السياسى مرة أخرى في الدولة الرومانية . ولكن تصرفات أنطونيوس الخاصة لم تكن لتحظى بالقبول من طرف أوكتافيان ومثال ذلك اتجاهه الى كليوباترا ملكة مصر وتزوجه منها على الرغم من كونه ملتزما بالزواج

من أوكتافيا بل لقد تطرف الموقف عند ما ازداد تقرب أنطونيوس من كيلوباترا الى درجة أنه قد أثير احتمال أنه قد أوصى بأملاك الرومان الشرقية الى كليوباترا . وبدأ هذا الصراع يتخذ مظهره الحربي بين كل من أوكتافيان وأنطونيوس ومعه كليوباترا . وحدثت الموقعة البحرية بين الطرفين سنة ٣١ ق.م. في أكتيوم Actium وتمكن فيها أوكتافيان احراز الانتصار مما أدى الى التمهيد لانفراده بالسيادة السياسية الرومانية . وقد تم ذلك فعلا عندما أتجه انطونيوس الى الانتحار بعد فراره الى الاسكندرية وسماعه عن اشاعة انتحار كليوباترا . واتجه كذلك أوكتافيان الى الاسكندرية ولم يكن أمامه الا استكمال انتصاراته بضم مصر الى نطاق النفوذ الرومانى . ولم يقبل أوكتافيان محاولات كليوباترا للتأثير عليه كسلفة ولذلك سرعان ما نفذ هدفه السياسى ورجع بعد ذلك الى روما بادئا مرحلة الامبراطورية الرومانية حاملا اسم الامبراطور أوغسطس Augustus

من ذلك يتبين مدى جسامة التجارب السياسية والحربية التى واجهتها الجمهورية الرومانية في مرحلتها الأخيرة داخل نطاق الوطن الرومانى وفي أرجاء الولايات الخاضعة أو في طريقها الى الخضوع للسيادة الرومانية .ولم تكن منطقة المغرب بالخارجة عن هذا النطاق فقد كانت صلة الرومان بها أقدم وأوثق من غيرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط . كما أن تجربة الرومان السياسية الطويلة مع الدولة القرطاجية ليست بالبعيدة ، مما جعل هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى في المغرب بمثابة مرحلة انتقال من نشر النفوذ الرومانى في المغرب تحقيقا لتثبيت أركان السيادة الرومانية ، الى مرحلة التحكم المطلق الحربى والسياسى في المغرب وتحويله كلية بالقوة الى ولاية رومانية داخل نطاق الامبراطورية .

أما عن أهم الظواهر التاريخية المغربية في تلك المرحلة وبصفة خاصة بعد وفاة الملك يوجورتا فيلاحظ انعكاس تلك الأحداث الرومانية ، بما تضمنته

من مظاهر صراع داخلي وخارجي حول السيادة الرومانية ، في الاطـــار المغربي . وقد ظهر ذلك في مكافأة الرومان للملك بوخوس بمنحه نصيبا من نوميديا الغربية نتيجة تعاونه معهم . ولكن ذلك لا يعني استمـــرار هذا النفوذ الروماني في فاعليته في المجتمع المغربي القديم في تلــــك الفترة بل لقد كانت لا تزال هناك بعض الاتجاهات البربرية المحلية التـــي تهدف الى ابعاد النفوذ الروماني وارجاع الاستقلال الذاتي لتلك الممالك البربرية . وقد نجح في هذا الصدد الملك ماسينسا الثاني ابن الملـــك غوده واستعاد السيادة البربرية مرة أخرى . وقد اتضح انعكاس الصـــراع السياسي بين كل من ماريوس وسلا في المغرب عندما ظهرت شخصية بربريـــة قوية وهو حيرباص الذى كان يميل الى حزب ماريوس ، في تحقيق توصله الـــى حكم المملكة البربرية واحلال نفسه مكان كل من ماسينسا الثاني وأخيــــــه هيامبسال ، ولكن لم يكن سلا ليقبل هذا التطور السياسي في حكم المغـــرب ولذلك آثر العمل على الانتصار على حزب ماريوس في هذه المنطقة أيضا فـــي وتمكن بالقوة الحربية من تحقيق غرضه في اعادة الحكم مرة أخرى الى ماسينسا الثاني وهيامبسال . وتدل هذه التقلبات السياسية بوضوح على مدى عـــدم استقرار التاريخ المغربي في تلك الفترة لارتباطه الكلي بالتطورات في الجانب الروماني .

وتظهر حلقة أخرى من انعكاسات هذه الأحداث الرومانية الداخليـة في الاطار المغربي في مرحلة الصراع الشديد بين كل من بومبي ويوليـــوس قيصر . ذلك عندما كان كل من الملك يوبا الأول ملك نوميديا الشرقية ، وهـــو ابن الملك هيامبسال ، ومعه الملك ماسينسا الثاني يميل الى جانب بومبـي . ولكنهما لم يكونا ممثلين لكافة وجهات النظر البربرية في المغرب بل كانـــت هناك وجهة نظر أخرى تؤيد جانب يوليوس قيصر وكان على رأسها كل مـــن بوخوس الصغير وبوغود اللذين كانا يحكمان المملكة الموريطانية في أقصى غربـي المغرب . وكما التجأ سلا الى استخدام السلاح في تحقيق سياسته ، كذلـــك اتجه يوليوس قيصر الى اتباع نفس الوسيلة وتمكن من الانتصار سنة ٤٦ ق.م . في

معركة تايسوس وهو موقع رأس الديماس على الساحل التونسي . وقد أدى هذا الانتصار الهام الى تحول خطير آخر في التاريخ المغربي القديم وهو اقامة ولاية رومانية جديدة بالاضافة الى ولاية أفريقيا التي حلت محل الدولة القرطاجية ، وهذه الولاية الجديدة حملت اسم ولاية أفريقيا الجديدة . ولم يكن هناك مكان للملك يوبا الأول ولذلك أنهى حياته بالانتحار وكوفىء الملك بوخوس على تعاونه مع يوليوس قيصر بتوسيع مملكة موريطانيا الشرقية على حساب مملكة نوميديا الغربية . وبذلك بدأ الرومان يثبتون أقدامهم في المغرب مما مهد في السنوات التالية الى احتلال كامل للمنطقة واعتبارها جزءا من الامبراطورية الرومانية .

ومثال ثالث يبين مرة أخرى انعكاس التاريخ الرومانى على الاحداث المغربية عندما تتطور الأمور السياسية الرومانية تطورا حاسما بعد مقتل يوليوس قيصر فقد حاول البربر انتهاز تلك الفرصة والتخلص من الممالك البربرية التى استحدثت في عهده . وكان على رأس هؤلاء البربر أرابيون ابن ماسينسا الثانى . وعلى الرغم من نجاحه في هذا الشأن ولكنه لم يستمر طويلا لأنه لم يكن من المستساغ من وجهة النظر الرومانية عودة البربر المتحررين الى مكانتهم مرة أخرى ولذلك سرعان ما اتجه الرومان الى اعادة الأمور الى ما كانت عليه بالقوة العسكرية سنة ٣٨ ق.م. وبذلك ازداد النفوذ الرومانى مرة أخرى في المغرب وقد تأكد ذلك أيضا بعد وفاة الملك بوخوس ، واتجاه أوكتافيوس الى ربط هذه الممالك البربرية بالاطار الرومانى وذلك بتعيين حكام رومان على عرش المملكة الموريطانية منتهزا فرصة عدم وجود وريث للعرش بعد الملك بوخوس . وقد استمر الرومان في حكم هذه المملكة حوالى الثمانى سنوات الى أن عين الملك يوبا الثانى ملكا عليها وذلك سنة ٢٥ ق.م. وقد دخل المغرب في حقيقة طور الامبراطورية الرومانية .

ويتضح من دراسة هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى مدى ارتباط تاريخ المغرب القديم وبصفة خاصة الممالك البربرية بمجريات الأمور في العالم

الرومانى ولكن ذلك لا يعنى زوال الصفة المغربية القديمة بل لقد ظلت الصفة في التواجد في ذلك الوقت في المجال الحضارى والسياسى .
وحتى في المرحلة الثانية من العصر الرومانى يلمس الدارس رغم تحقيق الصفة الرومانية جوانب من الصفة المغربية القديمة في شكل عدد من الثورات البربرية في المجال السياسى وفي شكل استمرار لبعض الظواهر الحضارية البربرية والقرطاجية في تلك المرحلة .

الفصل السابع

العصر الروماني في جانبه السياسي

المرحلة الثانية

استكمالا للمرحلة الأولى في تاريخ المغرب أثناء العصر الروماني يمكن اعتبار المرحلة الثانية وهي مرحلة الامبراطورية الرومانية انعكاسا آخر في تاريخ المغرب القديم للتاريخ الروماني بتطوراته المختلفة في المجالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والدينية . ولكن درجة الانعكاس في هذه المرحلة الثانية أقوى منها في المرحلة الأولى نظرا لاختلاف الكيان الروماني في المغرب فيهما . ففي المرحلة الثانية تمكن الرومان من تحقيق سيادتهم السياسية والحربية وبالتالي أصبحت نسبة كبيرة من الاراضي المغربية تابعة للنفوذ الروماني المباشر وخاضعة لكافة الأحداث الداخلية والخارجية في نطاق الامبراطورية الرومانية الشاسعة التي امتدت في جوانبها الأوروبية والأسيوية والافريقية تحت سيادة مدينة روما العاصمة . وقبل الاحاطة بالتاريخ المغربي في هذه المرحلة يحسن التعرض الى موجز عن المرحلة الأولى من عصر الامبراطورية الرومانية .

يلمس الدارس في هذا العصر انتقال الدولة الرومانية من مرحلة الجمهورية الى مرحلة الامبراطورية . وكان من الطبيعي أن يواجه الرومان الكثير من الاشكالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والعنصرية والدينية نتيجة اتصالهم بشعوب كثيرة وتحكمهم السياسي والحربي في اقاليمها . ولكن على الرغم من ذلك فقد عمل الرومان على المحافظة على هذه الامبراطورية واكتساب الكثير من غلاتها الاقتصادية ونشر الحضارة الرومانية والأدب اللاتيني في ربوعها والقيام بعدد من العمليات التحصينية والعمرانية في الكثير من ولاياتها . ولكن ذلك لم يكن ليحوز استجابة مرضية من العناصر المحلية مما أدى الى قيام ثورات كثيرة استنزفت جهودا مضاعفة من الرومان في محاولة اخمادها . ومن أهم الظواهر التاريخية

والفكرية التى بزغت في تلك الفترة مولد الديانة المسيحية التى واجهت الكثير من الاضطهادات الرومانية وكانت من المسائل التى واجهت الرومان لمدة طويلة . كما أن المشكلة الاقتصادية كانت من أهم العقبات التى اتصلت اتصالا وثيقا بكثرة الحروب التى خاضها الرومان وتطور الطبقات المجتمع الرومانى وحصول الأفراد الى حد كبير على الحقوق الرومانية . وقد تطور القانون الرومانى بتشريعاته المختلفة تطورا حاسما في تلك الفترة لأن هذه المسائل قد اقتضت اصدار عدة قوانين تنظيمية في كافة المجالات مما دفع الى هذا التطور في المجال القانونى . ولكن لم يستطع الأباطرة أنهاء هذه الاشكالات المختلفة وتثبيت أركان الامبراطورية والسلام الشامل في ربوعها الا في فترات محدودة ، مما أدى الى حدوث الانفصال داخلها والى الامبراطورية شرقية وأخرى غربية .

أما عن أهم الأباطرة الذين قاموا بدور فعال في بداية عصر الامبراطورية فعلى رأسهم الامبراطور أوغسطس الذى استمر من ٣١ق.م — ١٤م . ويلاحظ تدخل الامبراطور المباشر في شئون حكم الولايات الامبراطورية بالاشتراك مع مجلس الشيوخ الرومانى . وتتكرر ظاهرة تدخل الأباطرة في شئون هذا المجلس بصورة سافرة تؤدى في النهاية الى ضعف سلطانه وبروز سلطات الأباطرة . ولكن تواجد الجيوش الرومانية في بعض الولايات لاستكمال عمليات الدفاع والقمع المباشر لأعداء الامبراطورية سواء أكانوا من القبائل الجرمانية التى كانت تهدد الامبراطورية في مجال أوروبا الغربية أو في نطاق الحدود الشرقية في مناطق أرمينيا وبارثيا والفرس ، فدعا قادة هذه القوات الى التدخل في بعض الأحيان تدخلا مباشرا في الشئون السياسية الرومانية ووصل بهم الأمر الى تنصيب بعض الأباطرة ومحاولة فرضهم على مجلس الشيوخ الرومانى . ويتضح ذلك في فترة الأباطرة الضعاف الذين لم يتمكنوا من فرض السيادة الكاملة على القوات العسكرية الرومانية المرابطة في الولايات .

ولذلك فظاهرة تواجد هذه القوات العسكرية كانت من أهم القرارات التى تحمل مسئوليتها الامبراطور أوغسطس ولكنه قد نجح في التحكم فيها مما حقق السيادة الامبراطورية في عهده . وكان نهر الراين يعتبر الخط الفاصل بين الحدود الجرمانية والرومانية . ومن المشاكل التى واجهت الرومان في ذلك العصر مشكلة الخلافة على عرش الامبراطورية فكان مبدأ الوراثة هو المنتظر تحقيقه ولكنه لم يكن ليفى بالغرض المطلوب في بعض الأحيان مما استدعى استخدام التبنى بدلا منه أو مجرد اختيار من يقوم بهذه الوظيفة .

وقد وصل الاضطراب في الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية في هذه المرحلة من تاريخ الامبراطورية الرومانية الى درجة تهدد بالمخاطر مما أدى الى تعدد الثورات في أنحاء متفرقة في الامبراطورية وبصفة خاصة منطقة غاله وذلك في عهد الامبراطور فسبسيان T. Flavius Vespasian الذى استمر في الحكم من سنة ٦٩م — سنة ٧٩م . وقد تطلب هذا الموقف ضرورة تدعيم الوسائل الدفاعية الرومانية ضد هذه الثورات واستخدم الرومان الحصون والأسوار ذات الأبراج والأنفاق للقيام بهذا الدور الدفاعى . ولكن هذه الوسائل لم تحل دون استمرار الاضطرابات الداخلية أيضا فقد كانت المنافسة بين أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى وبين فئات الشعب الأخرى على أشدها . كما أن ظهور الديانة المسيحية كان عاملا جديدا في المجتمع الرومانى أدى الى تكون مجموعة جديدة من معتنقى تلك الديانة وقد ترتب على ذلك معارضة طوائف الشعب الرومانى الأخرى التى تعتقد في الآلهة الرومانية لهؤلاء المسيحيين الأول مما أدى أيضا الى عدم الاستقرار في ذلك الوقت من تاريخ الامبراطورية وخاصة أن بعض الأباطرة قد وصلوا الى درجة اعتبار أنفسهم يحملون الصفة الالهية . ويظهر ذلك على سبيل المثال في عهد الامبراطور دومتيانوس T. Flavius Domotianus الذى حكم من سنة ٨١م — سنة ٩٦م . وفي الاطار الداخلى قد أدت ممارسة ظاهرة التبنى الى تولى عدد من الأباطرة التاليين للامبراطور

نيرفا M. Cocceius Nerva وعم تراجان M.U.T. Trajan
وهادريان P.Aelius Hadrian وبيوس T.A.Antonius Pius
وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وذلك من سنة
٩٦م — سنة ١٨٠م . وقد فتح هذا الاتجاه المجال الى هذه الشخصيات
الجديدة مما أتاح فرصة تولي العرش لذوي الكفايات على خلاف الطريقة
التقليدية المعتمدة أولا وأخيرا على مبدأ الوراثة . ولكن على الرغم من ذلك
فقد حدثت بعض الاشكالات الاقتصادية في عهد الامبراطور ترجان وذلك
نتيجة ازدياد المطالب الامبراطورية في المجالات الحربية والسلمية مما اضطر
الامبراطور هادريان الى اجراء بعض الحلول المباشرة لهذه الأزمة
الاقتصادية وذلك بالغاء بعض الضرائب . وقد تطورت هذه الأزمة الاقتصادية
في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس ، والذي اشترك معه أيضا لأول مرة في
الحكم لوكيوس أوريليوس فيروس Locius Aurelius Verus ، فمنحت
الأقاليم الامبراطورية استقلالها الاقتصادي النسبي داخل نطاق الوحدة
الاقتصادية الامبراطورية .

ولم تقتصر التطورات الاقتصادية والسياسية على ذلك بل بدأت
ظاهرة جديدة أخرى في الموقف السياسي بأن حاولت القيادات العسكرية
في الولايات الامبراطورية ترشيح الأباطرة . ولم يستقر الموقف في هذا
الصدد بل لقد تنافست الولايات في ترشيحاتها مما أدى الى ازدياد
اضطراب الموقف السياسي الداخلي وتأكيد مدى الضعف السياسي الذي
وصل اليه مجلس الشيوخ الروماني في ذلك الوقت .

ومن ناحية أخرى فقد كان لقرار الامبراطور كراكلا Carcalla ، الذي
استمر في الحكم من سنة ٢١١م — سنة ٢١٧م ، الخاص باعطاء الحقوق لكافة
المواطنين الأحرار في أنحاء الامبراطورية الرومانية أثره في تمكن بعض الشخصيات
المنتمية أصلا الى الولايات الامبراطورية في الوصول الى كرسي العرش الامبراطوري
البربري الأصل أوبليوس ماكرينوس T.Opellius Macrinus الذي

استمر في الحكم من ٢١٧ م — ٢١٨ وكذلك الامبراطور العربي الأصل بوليوس فيليبوس الذي استمر في الحكم من سنة ٢٤٤ م — سنة ٢٤٩ م ·
وتنبغي الاشارة الى أن دفع الشعوب القبلية الجرمانية وكذلك مهاجمة الفرس على حدود الامبراطورية الرومانية وقد تضاعف مفعولها رغم محاولة الأباطرة الرومان التحكم في الموقف السياسي الداخلي والخارجي وذلك أثناء هذه المرحلة الأولى من تراجع الامبراطورية الرومانية ·

أما عن تاريخ المغرب القديم في عهد هؤلاء الأباطرة في هذه المرحلة الأولى من الامبراطورية الرومانية فقد تحول من منطقة تسود فيها السيادة القرطاجية الى منطقة يتحكم فيها الرومان · والواقع ان البربر كما سبقت الاشارة قد انقسموا على أنفسهم فبينما انحاز البعض الى الجانب الروماني فقد أصر البعض الآخر على أن يحافظوا على استقلالهم الذاتي بكافة الوسائل · وقد استمرت هذه الظاهرة طوال العصر الروماني في المغرب سواء كان ذلك في هذه المرحلة أو ما تلاها وكذلك تكررت حلقات الصراع بين الطرفين وذلك لأن الطرف الثاني وهو مجموعة البربر الأحرار والذين تغلب عليهم الصفة القبلية ذات الأصالة في الطبع غير المتأثر بالنزعات الحضرية قد دام على مبادئه القائمة على الاستقلال وتحرير المغرب من النفوذ الروماني · وكانت وسيلتهم في هذا الصدد القيام بالثورات المتتالية في سبيل تحقيق هذا الهدف منتهزين فترات ضعف بعض الأباطرة كما سبقت الاشارة الى ذلك

وأيضا انشغال الدولة الرومانية في توطيد أمنها الداخلي والخارجي في النطاق الأوربي والآسيوى وبصفة خاصة في غالة والدانوب والشرق الأدنى . وقد كانت هذه الثورات أن تؤدى الى نتائج ايجابية ولكن اتجاه الرومان الى تحويل المغرب الى عدد من الولايات الرومانية وتدعيم ذلك بانشاء المدن الرومانية المرتبطة بالطرق الرئيسية التى تساعد على التحكم في المنطقة وكذلك مساندة هذه السياسة الدفاعية بسياسة اقتصادية تحكمية ، كل ذلك قد أدى الى عدم وصول هذه المجموعة البربرية المتحررة الى نتائج حاسمة من وجهة نظرها . ومن ناحية أخرى كان الطرف الأول من البربر يبذل كافة الجهود في سبيل التقرب من الرومان تمكينا لاستمراره في تولى حكومات تلك البربرية . وقد اتضح ذلك في عهد الملك يوبا الثانى ، ابن يوبا الأول ، الذى يعاصر الامبراطور أوغسطس . وتاريخ يوبا الثانى قد اصطبغ منذ البداية بالطابع الرومانى البحت فقد نشأ في العصر الرومانى في روما واعتبر مواطنا رومانيا وقد ارتبط أيضا بالزواج بكليوباترا ابنة الملكة كليوباترا ملكة مصر في نهاية العصر البطلمى . ويمكن أعتبار عصر يوبا الثانى من الناحية الحضارية أقرب الى الصفة الدولية لأنه كان نشيطا في المجال الثقافى وحاول نشر هذا الجانب في أرجاء المغرب . وكان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية ودعم ذلك الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات في ذلك العصر ، كما أنه هو شخصيا قد حصل جانب العلم والأدب والمعرفة وكتب عددا من المؤلفات في كافة العلوم والآداب . وكان عصره من هذه الناحية متقدما للغاية ولكنه في نفس الوقت قد انقاد للثقافة الرومانية بصفة خاصة تحت تأثير نشأته الرومانية ، ولذلك اتجه الى تزكية الجوانب الرومانية ليس فقط في النطاق السياسى بل أيضا في العقيدة . فعلى الرغم من كون البربر قد اعتقدوا في الآلهة البربرية الأصل التى آمن بها أيضا الفينيقيون والقرطاجيون بالاضافة الى آلهتهم الساسية ، فقد اتجه الملك يوبا الثانى الى عبادة الامبراطور الرومانى أوغسطس وشيد في مدينة شرشال Iol ، التى أطلق عليها اسم قيصرية

واتخذ ها عاصمة لدولته البربرية ، منهدا للامبراطور أوغسطس ، وفي الاطار السياسي لم يستطع الملك يوبا الثاني تهدئة الأطراف البربرية المتحررة والتي قامت بعدد من الثورات ضده في محاولة تحرير المغرب من السيادة الرومانية ، ومن أهم هذه الثورات ثورة الزعيم البربري تاكفاريناس Tacfarinas وكانت هذه الثورة بمثابة تعبير حقيقي لأولئك البربر الأحرار ، وكانت ثورة تاكفاريناس من القوة بدرجة أن انتشارها في أرجاء المغرب كان سريعا للغاية فقد انحاز البربر الى تاكفاريناس لتحقيق عملية تحرير بلادهم من الرومان ومن البربر الموالين لهم وبصفة خاصة الملك يوبا الثاني ، ولم يكن النجاح في بداية تلك الثورة ناجما عن الحماس المتدفق في سبيل تحقيق أهدافه بل كان أيضا مرتبطا بدرايته بالفنون العسكرية فقد سبق له أن خدم في الجيش الروماني واكتسب بذلك خبرة عسكرية في أسلحة المشاة والفرسان ، هذا بالاضافة الى أن العنصر البربري يحمل في سجاياه الفتوة وتحمل المشاق وسرعة الحركة مما يكفل له تحقيق الانتصارات في المعارك الحربية ، وقد ظهرت شخصيات أخرى بربرية موريطانية موالية لتاكفاريناس وثورته مثل مازيبا Mazippa وقد تولى احدى القيادات العسكرية بجانب تاكفاريناس ، وانتشر هذا التيار الثورى بين القبائل البربرية وبصفة خاصة في وسط تيافل جداله في الجنوب ، ولم يعد خطر هذه القوة البربرية الجديدة قاصرا على الملك الموريطاني يوبا الثاني بل بدأ الرومان يخشون تطور الموقف وازدياده في المنطقة ، وقد تجسمت هذه الثورة بصفة خاصة في أواخر عهد الملك يوبا الثاني ، وتعاصر تلك الفترة حكم الامبراطور الروماني تيبريوس كلوديوس نيرون الذى استمر في الحكم من ١٤م — ٣٧م ، وقد استمرت هذه الثورة فترة حوالى ثماني سنوات من ١٧م — ٢٤م ، وكان من المنتظر أن يلتجىء الملك يوبا الثاني الى القوات الرومانية لمعاونة قواته في ايقاف هذه الحركة الثورية البربرية ، وقد نجح الرومان في بداية الأمر في الانتصار على قوات تاكفاريناس ولكن لم تكن مهمة الحرب مع البربر لتنتهي بتلك السهولة أو بمجرد معركة واحدة وذلك لأن البربر سرعان ما كانوا يلجأون الى الهضاب ويعيدون تأسيس وتنظيم قواتهم مرة

بسرعة فائقة ويبدأون في مهاجمة المراكز الرومانية والبربرية المعادية بصورة خاطفة تثير الاضطراب لدى أعدائهم . وقد نجح تاكفاريناس في هذا الصدد وتمكن من ايقاع الهزيمة بالقوات الرومانية والبربرية المعادية مما كفل له الاستيلاء على عدد كبير من الغنائم والاسلحة التى تساعده على مواصلة الحرب والانتصار في المراحل التالية . وعلى ذلك لم يتمكن الملك يوبا الثانى من ايقاف هذه الموجة البربرية المتحررة وتوفى سنة ٢٣م دون أن يصل الى تحقيق غرضه . وتولى ابنه الملك بطلميوس عرش المملكة البربرية وقد كان ضعف شخصيته وعدم جديته في تصريف شئون الدولة البربرية في هذا الموقف الدقيق من العوامل التى ساعدت أيضا تاكفاريناس على نشر ثورته البربرية بين الطوائف الموريطانية . ولما تنبه الرومان الى خطورة هذا الموقف اتجهوا الى تدعيم قواتهم العسكرية المساندة للقوات الموريطانية ضد تاكفاريناس . وقد استخدم الرومان طريقة الكائن المفاجئة ضد القوات تاكفاريناس وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته مما أدى الى تمكنهم من التحكم في الموقف وقتل تاكفاريناس سنة ٢٤م . وعلى الرغم من كون الملك البربرى بطلميوس يعتبر في جانب السياسة الرومانية فقد تصرف الامبراطور كاليجولا تصرفا شاذا عندما أمر بقتله على أثر اجتذابه انتباه الحاضرين بزيه الارجوانى اللون في حفل رسمى وذلك سنة ٤٠م . ولكن يغلب ان السبب الرئيسى في الأمر بقتله يرجع الى رغبة الرومان في الاستحواذ على المناطق شبه المستقلة المتبقية بالمغرب تحت نفوذهم المباشر بضمها الى الامبراطورية الرومانية . وتحقيق ذلك فعلا ونشأت ولايتى موريطانيا القيصرية والطنجية داخل نطاق المغرب الرومانى .

المغرب في عصر الاحتلال الرومانى :

حاول الرومان بكافة الوسائل العسكرية والتآمرية تثبيت أقدامهم في أرض المغرب بعد نجاحهم في احتلاله واعتباره احدى الولايات في الامبراطورية الرومانية . ولكن هذه المهمة لم تكن من السهولة بمكان لمدة

أسباب محلية وخارجية سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وبشرية . أول هذه الأسباب وأهمها هو شعور البربر بضرورة تحرير بلادهم من السيادة الرومانية والقيام في سبيل ذلك بعدد كبير من الثورات المتتالية أثناء المرحلتين الثانية والثالثة من العصر الروماني في المغرب . ولم تواجه الامبراطورية الرومانية تلك الثورات البربرية فقط بل لقد كانت هناك ثورات أوروبية وبصفة خاصة غالية تهدف الى الاستقلال أيضا من نطاق الامبراطورية الرومانية واقامة دولة غالية مستقلة . وهذا بالاضافة الى الثورات المشرقية الفارسية والمصرية والمقاومات الشديدة التي واجهها الرومان في تلك المرحلة . ويلمس المؤرخ أن الرومان لم يفوقوا في نهاية الأمر بين البربر الثائرين ضدهم وبين البربر الموالين لهم فقد انتابتهم موجة كراهية ضد البربر بوجه عام وسددوا كافة قواهم ضدهم انهاء لمقاومتهم وتثبيتا للسيادة الرومانية في المغرب . وقبل التعرض الى وسائل الرومان في محاولة انهاء المقاومة البربرية تنبغي الاشارة الى بعض تلك الثورات البربرية أثناء المرحلتين الثانية والثالثة من عصر الامبراطورية الرومانية .

لقد انتشرت هذه الثورات أثناء غالبية عصر الامبراطورية الرومانية في المغرب استكمالا لمراحلها السابقة في عصر الجمهورية الرومانية وقد احتلت مكانها خاصة في عهود الاباطرة كلوديوس نيرون قيصر وتيتوس فلافيوس فسبسيان وماركوس اليوس تراجان وبوبليوس اليوس هادريان وانطونيوس بيوس وكومودوس اندلونيوس وسفيروس الاسكندر ودقلديانوس وغيرهم . ويلاحظ أن البربر الثائرين لم يقتصروا على البربر الذين استوطنوا الأودية والمدن والقرى ودخلوا في نطاق المدنية بعد اتصالهم بالفينيقيين والقرطاجيين بل أيضا بربر المناطق الجبلية والصحراوية وكانوا لا يزالون على نزعتهم البدوية وشكيمتهم القوية فكانت مقاومتهم للرومان شديدة . ذلك مع العلم بأن هذه الاقاليم الجبلية والصحراوية صعبة المنال أمام القوى الرومانية لما تكتنفه بيئتها من مسالك وعرة وتضاريس طبيعية يعرف البربر خباياها .

وكان البربر ينتهزون ضعف الاباطرة أو الاضطرابات السياسية أو الاقتصادية الرومانية ويبادرون بالهجوم على المعسكرات والمدن والمراكز الرومانية تحت قيادة زعمائهم ورؤساء قبائلهم . ولقد نجحت هذه الثورات في بدايتها ولكنها لم تصل الى غايتها بسبب عناصر الخيانة المنبثة في بعض صفوف البربر نتيجة تحريض الرومان وتشجيعهم بكافة الوسائل . ولكن على الرغم من فشل هذه المحاولات في أهدافها فانها كانت تعاود الكرة مرة أخرى ; ولقد كان استفزاز الرومان للبربر شديدا للغاية مما يدفعهم الى المداومة على عملياتهم الثورية . فقد كان الرومان يحلون أنفسهم مكان البربر الآمنين في المدن والقرى الغربية ويستولون على أراضيهم وماشيتهم ويدفعونهم الى الالتجاء الى المناطق الصحراوية القحلة مما يثير سخط البربر وغليانهم . وكانت عملية تهجير البربر واجلائهم عن أراضيهم تهدف الى الاستعمار الروماني في المغرب على حساب البربر . ولقد استخدم الرومان وسائل العنف والضغط الحربي لتحقيق غايتهم . ومن ناحية أخرى اضطر بعض اولئك البربر الى التوجه الى الصحراء وعبورها نحو الجنوب . ولقد كانت تحركاتهم نحو نهر النيجر وغربي ووسط افريقيا حلقة جديدة لتلك الرحلات الاقتصادية التي سبق لاسلافهم تحقيقها أثناء العصر القرطاجي . ولقد اختلطت هذه العناصر البربرية الحامية الاصل ببعض العناصر الزنجية وتمكنت من تأسيس دولة غانا القديمة .

ومن أهم الثورات البربرية التى كادت أن تنجح ثورة الملك البربري فيرموس Firmus سنة ٣٧٢م وكان قد نجح في تحقيق التحالف السياسي والحربي بين بعض القبائل البربرية ،وكذلك استغل فرصة وجود مذهب مسيحية جديدة معارضة للرومان ونجح فيرموس في التحالف معها أيضا . ولقد كان البربر يؤملون في الدعوة المسيحية السلمية ويعتبرونها خطوة جديدة نحو انهاء السيادة الرومانية ،وأقبلوا على اعتناق الديانة المسيحية ولكنهم قوبلوا بالتعذيب الشديد من جانب الرومان . واتجه فيرموس بقواته نحو مدينة شرشال العاصمة الموريطانية وتمكن من احراز الانتصار على الرومان والاستيلاء عليها . وازاء هذا التطور الحاسم في الكيان السياسي المغربي القديم اتجه

الرومان الى استخدام وسائلهم التآمرية التى سبق لهم استخدامها أثناء المرحلة الأخيرة من عصر الدولة القرطاجية ، فقاموا بتحريض أخيه جيلدون وتمنيته بكافة الوسائل وتشجيعه على خيانة أخيه فيرموس والايقاع به . ولما تنبه الأخير الى ذلك فضل الانتحار سنة ٣٧٥ م وبذلك انتهت هذه الثورة البربرية التى وصلت الى درجة حاسمة في مقاومتها للنفوذ الرومانى . ولم يستمر جيلدون في موالاته للسادة الرومان طويلا بعد تبوئه المناصب العسكرية الرومانية في المغرب بل سرعان ما انقلب عليهم قائدا ثورة بربرية جديدة سنة ٣٩٦ م. واستخدم الرومان مرة أخرى وسيلتهم التآمرية بتحريض أخيه مقزيل ضده وتكررت المأساة وانتحر جيلدون . وفي هذه المرة لم ينعم الرومان على مقزيل بالمناصب مثل أخيه بل تركوه دون ذلك رغم ولائه لهم .

أما عن الوسائل المباشرة التى اتخذها الرومان في سبيل تحقيق سيادتهم الرومانية على الأراضى المغربية فكانت تتركز بصفة خاصة في تدعيم قواتهم العسكرية ، فقد أمر الأباطرة بانشاء المعسكرات الدائمة المجهزة بكافة الاحتياجات الرئيسية لجنود فرق الاحتلال الرومانى وعلى رأسها فرقة أوغسطس الثالثة التى عهد اليها بالدفاع عن الكيان الرومانى في المغرب . وكان المعسكر بمثابة مدينة عسكرية تتضمن المخازن والاسطبلات وساحات التدريب العسكرى . وقد اتجه الرومان الى تجنيد البربر وكذلك العناصر الغالية والاسبانية والسورية ولكن تحت قيادة الرومان . ولقد تطلبت عمليات بناء هذه المدن الحربية بذل جهود ضخمة في البناء والتشييد وتزويدها بالمياه والغذاء . وتطور ذلك نحو استيلاء الجنود على الأراضى المجاورة واستغلالها لصالحهم ، ولم يقتصر الأمر على الجيش بل لقد كان للرومان قواتهم البحرية أيضا ولكنها لم تكن بالجسامة التى كانت عليها في فترات الصراع البحرى الشديد مع القرطاجيين ولذلك اقتصرت واجباتها على عمليات حراسة السواحل وابعاد القراصنة وتأمين السواحل المغربية . وكان من أهم واجبات القوات العسكرية مراقبة تحركات البربر

ومراكز تجمعاتهم والوقوف أمام ثوراتهم والدفاع عن الكيان الرومانى .
ولكن تحقيق هذه الأغراض قد استلزم انشاء الطرق اللازمة للتحركات العسكرية والمدنية . وقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق تعتبر من أهم مخلفاتهم في المغرب . ومن أشهر تلك الطرق الطريق الساحلى الممتد من مدينة قرطاج الى الشرق حتى لبده والى الغرب حتى طنجة الى شاله ، وطرق داخلية تصل الى تبسه وتمجاد وجميلة وفولوبيليس وهى وليلى أو قصر فرعون . واستكمالا لهذه الوسائل الحربية التى خططها الرومان قاموا بحفر خنادق حول الأسوار والحصون تدعيما لخطوطهم الدفاعية .

ويتبين من ذلك أن هذه الوسيلة الحربية قد احتلت المكانة الأولى في الخطة السياسية الرومانية في المغرب ولكن استمر استخدام بعض الوسائل التقليدية الأخرى مثل محاولة اجتذاب زعماء البربر بكافة الوسائل للجانب الرومانى وكذلك محاولة عقد المحالفات السياسية مع القبائل البربرية . ولكن على الرغم من هذه الوسائل التى كانت تؤدى غايتها في بعض الأحيان فقد ظلت بعض الجهات الجبلية تحت السيادة البربرية .

والواقع أن تاريخ المغرب القديم في صميم عصر الامبراطورية الرومانية قد تأثر كل التأثر بأحداث الامبراطورية الداخلية والخارجية كاشكالات المنافسة على العرش الامبراطورى وكذلك استهتار بعض الأباطرة وتصرفاتهم غير العادية ، ومن الأمثلة الصارخة لذلك حادثة مقتل الملك البربرى بطلميوس في عهد الامبراطور كاليجولا وكذلك تصرف الامبراطور كلوديوس نيرون قيصر بصدد حريق روما سنة ٦٤م ، وأيضا تدخل القوات الامبراطورية وتعدد الترشيحات فيها لوظيفة الامبراطور ، ومن ناحية أخرى أيضا كانت هجمات العناصر الجرمانية وضغطها البشرى على أطراف الامبراطورية الرومانية في أوروبا من المخاطر الرئيسية التى واجهتها الامبراطورية الرومانية ،

ويتصل ذلك بتاريخ المغرب القديم في أواخر عهد الامبراطورية عندما تصل تلك الهجمات البشرية حتى شبه جزيرة ايبيريا وتتحرش بالمغرب وتهدد موريطانيا بصفة خاصة ، كل ذلك قد أثر على تصرفات الرومان في كافة أنحاء الامبراطورية متضمنة المغرب . ولكن كانت هناك بعض الأحداث المحلية في المغرب قد ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من تاريخ المغرب في العصر الروماني وعلى رأسها دخول الديانة المسيحية الى المغرب واعتناق البربر لها . وقد اعتبر الرومان هذا الاتجاه متنافيا مع أفكارهم الدينية وقاموا بعملية معارضة شديدة وقاسية على أولئك المسيحيين الأول من البربر . وكذلك كان للناحية الاقتصادية أثرها في تلك المرحلة لأن الطبقة الارستقراطية من الرومان كانت قد تمادت في اسرافها معتمدة على ضيعاتها الكبيرة والثروات التى تحصل عليها من وراثها مما أدى الى اضطراب الأحوال الاقتصادية وعدم توازن اقتصادى الى درجة أن الرواتب أصبحت تدفع بصورة عينية بدلا منها نقدية ، وكان كل ذلك من الأسباب التى أدت الى اضعاف السيادة الرومانية في أواخر عصر الامبراطورية . ويمكن القول بأن هذه المرحلة المتدهورة في تاريخ المغرب القديم قد بدأت بعد انتهاء حكم الامبراطور جورديان الثالث الذى حكم من ٢٣٨م — ٢٤٤م. وتستمر الى حد كبير حتى سنة ٤٢٩م. وعلى الرغم من مظاهر هذا الضعف السالف الذكر فقد حاول بعض الأباطرة انقاذ الموقف في المغرب، مثال ذلك قرارات الامبراطور ك . أوريليوس فاليريوس دقلديانوس الذى حكم من سنة ٢٨٤م — سنة ٣٠٥م. الذى قام بتوزيع السلطة الامبراطورية على أربعة من القياصرة ، واتجه أحدهم الى المغرب وقام بعملية تقسيم الولايات المغربية الى عدد من الأقاليم . ومما يسترعى الانتباه أن موريطانيا الطنجية قد انضمت الى الولايات الأسبانية . ولكن هذا التقسيم سرعان ما غيره الامبراطور قنسطنطين الأكبر وهو فلافيوس فاليريوس قنسطنطين الذى استمر في حكمه من سنة ٣٠٦م الى سنة ٣٣٧م. فقد جمع الولايات النوميدية في ولاية واحدة واتخذ مدينة قرطه العاصمة السابقة عاصمة لهذه الولاية المتحدة الجديدة وحملت أسمه

أى قسنطينه . ومن ناحية أخرى إتخذ هذا الامبراطور قرارا هاما وهو مرسوم ميلان الذى يقضى بمساواة المسيحيين في المعاملة مع غيرهم من باقى معتنقى الديانات الأخرى وأعادة اليهم أملاكهم . وكانت نهاية العصر الرومانى في المغرب على أيدى العناصر الوندالية التى كانت قد توغلت في شبه جزيرة أيبيريا والتى انتهزت فرصة اختلاف أحد الحكام الرومان وهو بونيفاس مع روما واستعانته بهم فتقدموا نحو المغرب سنة ٤٢٩م . وكان ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ المغرب هى العصر الوندالى . وقبل الانتقال الى هذه المرحلة يلزم التعرض الى الجانب الحضارى في تاريخ المغرب أثناء العصر الرومانى .

الفصل الثامن

العصر الروماني في المغرب في جانبه الحضاري

أول ثمرة يلمسها الدارس في العصر الروماني في المغرب هي قيام الرومان بانشاء عدد من المدن الرومانية الساحلية والداخلية في كافة أنحاء المغرب ، وقد اختار الرومان في غالبية الأمر نفس المواقع التى سبق أن اختارها الفينيقيون والقرطاجيون لانشاء مدنهم . ويمكن تلمس ذلك في المواقع الأثرية حيث يلاحظ تواجد الطبقة الرومانية فوق الطبقة الموريطانية التى تقع بدورها فوق الطبقة القرطاجية ، وذلك لأن عملية اختيار هذه المواقع كانت تتفق مع الرواد الأول من الفينيقيين من حيث صلاحية المكان وتناسبه مع كافة الأغراض الاقتصادية والدفاعية . وقد انتشرت هذه المدن الرومانية في الولايات الأربعة الرئيسية في المغرب وهى ولايات افريقيا ونوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية . وقد امتدت الولاية الافريقية في جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس وفي جانبها الغربى حتى مدينة عنابه . بينما تركزت نوميديا بصفة خاصة في شرقى الجزائر . أما موريطانيا القيصرية والطنجية فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الأقصى ويفصل بينهما نهر ملوية . وقد اتخذت مدينة شرشال عاصمة لموريطانيا القيصرية بينما مدينة طنجة عاصمة لموريطانيا الطنجية . وقد تضمنت المدن الرومانية في تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة ، فقد شيدت المبانى الحكومية والمكتبات والمعابد وأقواس النصر والحمامات والحوانيت والاسواق والمنازل ومعاصر الزيوت والمطاحن والساحات والمسارح نصف الدائرية ، والملاعب الدائرية والاسطبلات وغيرها من متطلبات الحياة العامة في المدن . وكان يشق المدينة الرومانية في تخطيطها طريقان أحدهما يتجه من الشمال الى الجنوب والآخر من الشرق الى المغرب ، ويتقابل الطريقان في الساحة العامة التى تعتبر بمثابة سوق المدينة ومركز النشاط الشعبى فيها . وكان يحيط بالمدينة حائط كبير له أبوابه ، وعلى سبيل المثال يبلغ طول حائط مدينة فولوبوليس ٢٣٥٠ مترا ويبلغ ارتفاع

الحائط ثمانية أمتار وسمكه ٦٠ر١ مترا . ولم تكن عمليات تشييد هذه العمائر الجديدة بالمهمة السهلة بل لقد تطلبت جهودا كبيرة لأنهما تتصل بانشاء مدن كاملة . ومن الأهمية الاشارة الى أن العمارة الرومانية قد اعتمدت الى حد كبير على العمارتين اليونانية والشرقية . وعلى سبيل المثال يلاحظ أن قوس النصر الرومانى يمكن ارجاعه في أصوله التاريخية الى الفن الاشورى . ويلاحظ أيضا تواجد بعض المسلات المصرية في روما وكذلك بعض المقابر الرومانية ذات الشكل الهرمى المصرى القديم . ولم تقتصر الحمامات الرومانية على جانب النظافة العامة بل كانت بمثابة مراكز للنشاط الرياضى البدنى وأيضا للثقافة والقراءة العامة . وقد حاول الرومان طبع هذه المدن بالطابع الرومانى الصرف وكذلك التأثير على البربر بكافة الوسائل لاجتذابهم الى الثقافة الرومانية وطبعهم بالتالى في الاطار الرومانى . وقد كان المواطنون الرومان في تلك المدن المغربية يحملون نفس حقوق المواطنين في مدينة روما فقد كانت تلك المدن بمثابة أمثلة أخرى للعاصمة الرومانية . ولقد خلفت الآثار عددا من هذه المدن الرومانية ، فلا تزال بعض آثار هذه المدن الرومانية تشهد الكثير من هذه العمائر . وقد تخلفت بعض المنازل الرومانية الخاصة التى كان يقطنها أثرياء الرومان وقد زينت أرضية تلك المنازل بالفسيفساء الملون والذى يعبر عن بعض الأساطير الرومانية وكذلك يحمل بعض النقوش الانسانية والحيوانية الفنية ، وكذلك تبقت بعض الآثار الفنية الرائعة فى النحت ومثال ذلك تمثال الكلب البرونزى ، وتماثيل أخرى انسانية ، وقد تميز المغرب في العصر الرومانى في الصناعة الفخارية وكذلك صناعة الصباغة الأرجوانية من الأصداف المحلية على الساحل المغربى في نواحى جزيرة الصويرة . وترجع هذه الصناعة في أصولها الى العصرين الفينيقى والقرطاجى حيث كانت من الصناعات المستوردة أصلا من الساحل الفينيقى هذا بالاضافة الى صناعات أخرى مثل السجاجيد والأنسجة وغيرها . وتلزم الاشارة في هذا الصدد الى دور القرطاجيين في ادخال الكثير من هذه الصناعات الى المغرب قبل الرومان .

ولقد نشطت هذه المدن الرومانية بعد انشائها نشاطا كبيرا وأعطت للمغرب صفته المدنية أكثر من الصفة البدوية ، واجتذبت هذه المدن الكثير من البربر اليها وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا يعملون في المزارع والضياع الرومانية التى كان يمتلكها كبار أثرياء الرومان . ولا يعنى ذلك أن أولئك البربر قد انفصلوا كلية عن مجتمعهم بل سرعان ما كانوا يتجهون الى الانضمام الى قبائلهم البربرية عندما تتجه تلك القبائل الى الثورة ضد النفوذ الرومانى .

ولقد اتجهت السياسة الرومانية في المغرب الى استغلال أقاليمه استغلالا شاملا في المجال الاقتصادى . ولم يقتصر هذا الاتجاه على المغرب بل لقد شمل أيضا كافة أرجاء الولايات الرومانية وعلى رأسها مصر . فقد اعتبر الرومان كلا من المغرب ومصر بمثابة مخزن كبير للحبوب وبصفة خاصة القمح لتموين المجتمع الرومانى . ولذلك اتجه الرومان الى اعطاء عناية خاصة للجانب الزراعى وعملوا على تطوير الزراعة المغربية لتحقيق غايتهم الاقتصادية . والواقع أن القرطاجيين كانوا قد سبق لهم أداء دور كبير في تطوير الحياة الزراعية في المغرب وما يتصل بها من حياة حيوانية مستأنسة . فقد أدخل القرطاجيون زراعة الزيتون والكروم وفواكه مناخ البحر الأبيض المتوسط مثل التين والرمان واللوز بالاضافة الى الخضروات المختلفة . وكذلك اهتم القرطاجيون بعمليات تصنيع بعض هذه المحاصيل وبصفة خاصة الكروم والزيتون واستخراج الزيوت واستغلالها في كافة الجوانب الغذائية والصحية والطبية والاضاءة . وكان دور الرومان في هذا المجال على نطاق أوسع من دور القرطاجيين لأن المدن الرومانية كانت تعتمد على اقتصاد ذاتى ، فلكل مدينة مطاحنها ومعاصرها الخاصة بها مما أدى الى انتشار الزراعة والصناعة ، وبالتالى التجارة . ومما يسترعى الانتباه أيضا أن روما كانت تستورد بعض الأعشاب الطبية من المغرب بجانب المواد الأولية الأخرى وعلى رأسها الحبوب والزيوت والأخشاب

وغيرها . ولم يقتصر النشاط التجارى مع شعوب البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها الدولة الرومانية بل اتجه نشاط المغرب أيضا الى المنطقة الجنوبية منه ، ويتصل ذلك بالنشاط البشرى والاستكشافى والتجارى الذى سبقت الاشارة اليه منذ العصرين الفينيقى والقرطاجى في منطقة النيجر وساحل أفريقيا الغربى .

وقد تطلبت هذه التوسعات الزراعية توفير المشروعات المائية اللازمة لتحقيق هذه الغاية الاقتصادية فاهتم الرومان في المغرب بعمل السدود لتخزين مياه الري ، هذا بالاضافة الى حفر الآبار وبناء مجارى المياه الرئيسية والثانوية وكذلك جمع مياه الأمطار وتخزينها ، وحفر القنوات لرى مختلف الزراعات .

وقد ألحقت بالمزارع الرومانية في المغرب ما يلزمها من الحيوانات المتصلة بالحياة الزراعية كالعجول والخيول وكذلك أيضا الدواجن والنحل . وكذلك استمرت طلبات صيد الحيوانات المفترسة كالنمور والفيلة والأسود من الغابات المغربية حيث كانت تستخدم في الملاعب العامة .

ولم تقتصر الحضارة الرومانية في المغرب على تلك الجوانب المادية السالفة الذكر بل لقد حاول الرومان أيضا نشر الثقافة الرومانية بكافة الوسائل في المجتمع المغربى . فقد اهتم الرومان بضرورة فرض اللغة اللاتينية في البيئة المغربية ولكن لم يتحقق ذلك بصورة عملية من جانب البربر الذين استمروا على استخدام لهجاتهم البربرية المتأثرة باللغة البونية . وفي المجال الدينى حاول الرومان أيضا فرض ديانتهم في المجتمع المغربى القديم وعلى رأسها عبادة الامبراطور الرومانى ولكن البربر لم يتقبلوا ذلك بسهولة فقد كانوا يعتقدون في آلهتهم البربرية مثل تانيت والقرطاجية مثل الاله بعل حمون . ولكن الرومان حملوا اليهم عبادة الامبراطور وكذا عبادة الآلهة الرومانية والشرقية مثل أوزير وايزيس . وعلى الرغم من موافقة الرومان للديانة اليهودية بالاستمرار في أداء شعائرها

فانهم في بداية الأمر لم يوافقوا على مثل ذلك للديانة المسيحية لأنهم كانوا يعتقدون بأن البربر قد اتخذوا تلك العقيدة كوسيلة لمعارضتهم . هذا وقد أقبل البربر على اعتناق المسيحية متخذين من صفتها السلمية دافعا ضد السيطرة الرومانية وقد ظهرت في المغرب عدة مذاهب دينية واجتماعية في ذلك الوقت . وعلى رأسها المذهب الدوناتي . وكذلك ظهر بعض الأدباء المسيحيين في المغرب في ذلك الوقت مثل أوغسطين مما يؤكد تواجد جانب فكرى فلسفى في المغرب .

ولكن هذه العناصر الحضارية الرومانية المادية والفكرية لم تتمكن من احلال نفسها بصورة نهائية في المغرب وصبغه بالصبغة الرومانية البحتة ، فقد ظل البربر يقاومون الرومان بثوراتهم المتتالية في المجال السياسى والحربى محافظين على تركتهم الحضارية البربرية والقرطاجية حتى أثناء المرحلتين الويندالية والبيزنطية .

من ذلك كله تتبين تلك الحقيقة التاريخية التى يلمسها الباحث في التاريخ المغربى القديم أثناء العصر الرومانى وهى احتفاظ المغرب بنزعته الحامية والسامية رغم محاولات الرومان المستمرة لطبعه بالطابع الرومانى في كافة المجالات الحضارية المادية والفكرية . وهذه الحقيقة تؤكد الصفة المميزة للمغرب القديم وهى أصالته المشرقية الأولى قبل العصر العربى . وكما سبقت الاشارة استخدم الرومان في هذا الصدد الكثير من الوسائل الحربية المدنية المشروعة وغير المشروعة في سبيل تحقيق وجهة نظرهم ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول الى غايتهم النهائية . والتفسير التاريخى لذلك هو أن المغرب في العصر القرطاجى قد تمكن من الوصول الى صميم العصر التاريخى وبدأ يؤدى دوره السياسى والحضارى في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط على قدم المساواة بالدولة الرومانية ولذلك لم يكن للاحتلال الرومانى فاعليته الكاملة في تعديل هذا الاتجاه الى أن استقبل المغرب مرحلة حاسمة جديدة في التاريخ وهى المرحلة العربية كون فيها المغرب والمشرق أمة عربية جديدة .

